عبد الأمير الرفيعي

العراق

بين سقوط الدولة العباسية
وسقوط الدولة العثمانية

الجزء الأول

الإهداء :

إلى الذين يرون البحث عن الحقيقة في عتمة التاريخ
طريقاً إلى يوم مشرق وعالم يعم فيه الخير.

عبد الأمير الرفيعي

المحتويات

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الخامس

المقدمة

أضع بين يدي القارئ الكريم الجزء الأول من كتاب "العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية"، الذي تتناول فصوله أهم الأحداث التاريخية التي ارتبطت بسقوط الدولة العباسية، والحكومات التي تسلطت على العراق وهيمنت على مقدراته، منذ تلك الفترة وحتى سقوط الدولة العثمانية. وهنا أود أن أشير إلى أن المواضيع التي يتناولها هذا الكتاب، تأتي ضمن إطار بحث أوسع يشمل تكوين وادي الرافدين والجزيرة العربية، والعوامل التي أدت إلى تصحرها، وساهمت في ظهور العرب في بواديها القاحلة وهجراتهم، إلى هذا الوادي الخصيب الفريد في تكوينه وموقعه الجغرافي.

وكان من المفروض أن اقدم للطبع هذه الدراسة قبل خروج هذا الكتاب، غير أن بعض المصاعب أخرت ذلك.

وبالنظر لارتباط ما تناولته فصول هذا البحث بالعراق بصورة عامة، وتاريخ عرب العراق بصورة خاصة، رأيت من الواجب أن استعرض ولو بإيجاز، أهم ما تناولته تلك الفصول، التي تلقي الضوء على العوامل التي تضافرت وساهمت في ظهور العرب في شبه الجزيرة، والتي أدت إلى انتشارهم وسيادتهم وتوجههم نحو الشمال، وبالتالي هجراتهم نحو وادي الرافدين.

فمنذ حوالي عشرين ألف عام، تعرضت الكرة الأرضية إلى تحولات مناخية كان من نتائجها انتهاء العصور الجليدية، وبداية عصر دافئ لازال مستمراً إلى يومنا هذا. وقد أدت تلك التحولات إلى ظهور السهل الرسوبي الخصيب في بلاد الرافدين، جراء ترسب الغرين الذي حملته مياه السيول الهائلة الناتجة عن ذوبان الجليد. وقد أدى ذوبان الجليد على الكرة الأرضية كذلك، إلى ارتفاع مستوى سطح المحيطات والبحار المتصلة بها، فتكونت جغرافياً، شبه الجزيرة العربية من رقعة الأرض التي عزلتها المياه المرتفعة عن البر الأفريقي، بعد تكوين البحر الأحمر، وعن البر الآسيوي بعد تكوين الخليج.

وبينما كانت السيول تغمر بمياهها وادي الرافدين وترسب غرينها هناك، كانت الأمطار تشح وتنحسر عن شبه الجزيرة، بعد أن زحف حزام الأمطار الذي كان يمر بها نحو الشمال، فتسبب في تحول مناطق واسعة منها إلى صحارى جرداء. وهكذا اختفت منها بالتدريج النباتات وبقية الكائنات الحية. ومع تفاقم ظاهرة التصحر وانكماش مقومات الحياة بدأت هجرات البشر والكائنات الحية من شبه الجزيرة باتجاه الشمال نحو وادي الرافدين.

ولكن بالرغم من تلك التحولات المناخية، ظلت مجموعات صغيرة من البشر معزولة في بعض الوديان التي كانت تتوفر فيها الينابيع وغيرها من مصادر المياه مع قليل من مقومات الحياة. وفي خضم صراع تلك المجموعات البشرية من أجل البقاء، أخذت تصطاد حيواناً فريداً في خصوصياته، صمد هو الآخر في تلك البيئة القاحلة، إذ كان قد تكيف لحياة الصحراء قبل دخوله شبه الجزيرة، قادماً من صحارى آسيا الوسطى، ذلك هو الجمل، الذي أخذت أعداده تتزايد هناك، بعد اختفاء الحيوانات المفترسة من تلك البوادي. وبمرور الزمن أهلت تلك الجماعات الجمل، واستخدمته في التنقل بين الوديان المتباعدة التي تتوفر فيها مصادر المياه، إضافة إلى الاستفادة من لحمه ولبنه ومنتجاته الأخرى.

لقد فتح تأهيل الجمل، آفاقاً جديدة للحياة أمام تلك الجماعات المتفرقة والمعزولة عن بعضها، إذ أصبح بإمكانها التنقل والوصول إلى الواحات ومصادر المياه الأخرى، وكذلك إلى شواطئ البحر التي كانت من مصادر الغذاء المهمة. وهذا ساعد على تواصل تلك الجماعات وتوحيد جهودها في الصراع من أجل البقاء. وهكذا كانت، كما تشير البحوث، البدايات لظهور مجتمع أسلاف العرب الذين أهلوا الجمل ذا السنام الواحد في جنوب شبه الجزيرة، ذلك الحيوان الذي ساعدهم على البقاء والانتشار في مختلف مناطقها وبواديها.

العرب على طريق البخور

وحينما بدأ أولئك العرب الأوائل، عمليات جمع أعواد البخور والطيب من تلك الوديان الجنوبية ونقلها شمالاً لبيعها في أسواق العالم القديم، كان الجمل واسطة النقل الوحيدة التي يمكنها حمل تلك البضائع عبر الوديان والصحارى من جنوب الجزيرة والوصول بها حتى أسواقها الرئيسية. وهذه كانت البداية لقيام أقدم وأهم طريق تجاري بري ربط سواحل جنوب الجزيرة ووديانها، بأسواق وادي الرافدين وبقية العالم القديم. وعبر السنين تمكن أولئك العرب من وضع معالم ذلك الطريق التجاري وتحديد مراحله ومحطاته، في مواقع ملائمة تتوفر فيها مصادر كافية للمياه. ومع نمو وتوسع تلك التجارة العالمية نمت تلك المحطات والمراكز التجارية، وتحول بعضها إلى مستوطنات مأهولة بالسكان، كان يسكنها التجار والعمال والعبيد وغيرهم ممن يقدمون مختلف الخدمات للقوافل التجارية.

قد يصعب على الباحث تحديد نقطة البداية لقيام ذلك الطريق التجاري، غير أن الشواهد التاريخية تشير إلى أن البخور كان ينقل إلى وادي الرافدين وحواضر العالم القديم عبر وديان الحجاز المحاذية لسواحل البحر الأحمر، في حدود الألف الثانية قبل الميلاد. وهذا يشير إلى بداية احتكاك العرب بسكان

وادي الرافدين، وتعرفهم على حضارات العالم القديم. وإن شعوب العالم القديم أطلقت على الجماعات التي كانت تأتي من أعماق الصحراء على الجمال اسم "عربو" أي راكبي الجمال، وأطلقت على مواطنهم الصحراوية اسم "عربايا". وهكذا جاء أسم العرب والجزيرة التي انتشروا فيها وسادوا بها كسكان.

ومع اتساع تجارة البخور كانت مراكز العرب التجارية تزحف من جزيرتهم نحو الشمال، وينتشر وجودهم في البوادي الشمالية القريبة من الأسواق الرئيسية. وبالنظر لملاءمة الأحوال المناخية في تلك البوادي الشمالية وتفوقها على مثيلاتها في جنوب الجزيرة العربية، من ناحية توفر المراعي الواسعة وكثرة مصادر المياه الجوفية، أخذت أعداد العرب تتضاعف في تلك البوادي، وتتسع مراكزهم السكانية وتزداد قرباً من وادي الرافدين.

لقد أحدثت تلك التطورات بمرور الزمن، تحولات سكانية واقتصادية مهمة في مجتمعات العرب بصورة عامة . فمع استمرار هجرات القبائل العربية نحو البوادي الشمالية، أخذت كفة أولئك العرب ترجح سكانياً واقتصادياً على عرب الجنوب. فمن الناحية السكانية تحول عدد من محطات ومراكز العرب التجارية في الشمال إلى مستوطنات ومدن استقر فيها التجار ومختلف الشرائح الاجتماعية التي ارتبطت مصالحها بتجارة البخور. أما اقتصادياً فإن ازدهار تلك التجارة مكنت أولئك التجار العرب من جني أرباح كبيرة وتحقيق ثروات هائلة لم يسبق لها مثيل. يضاف إلى ذلك أن عرب الشمال بحكم احتكاكهم بسكان العالم القديم وتعرفهم على حضاراته، اكتسبوا تجارب ومعارف لم تكن متوفرة لعرب الجنوب.

ومع ازدياد ثروات عرب الشمال ونفوذهم، ازدادت سيطرتهم على تجارة البخور، وبالتالي على طريق تلك التجارة. وأخذ نفوذهم يمتد نحو الجنوب اقتصادياً وسكانياً وحضارياً. ومن المرجح أن ذلك التفوق، رجح كفة لهجاتهم العربية في لغة التخاطب اليومية، خاصة في المراكز التجارية والمستوطنات المستقرة. وبازدياد أعدادهم ونمو نفوذهم سادت لهجاتهم الشمالية على طول

طريق تجارة البخور في الحجاز وحتى جنوب الجزيرة العربية، بينما كانت لهجات عرب الجنوب تذوب في لغة الأكثرية من عرب الشمال وتختفي بالتدريج من الاستعمال في الحياة اليومية. ولعل تطور تلك الظاهرة اللغوية ساهم في ظهور النظريات التي قسمت العرب تاريخياً إلى "عرب بائدة" و "عرب عاربة".

إن البحث في تطور تاريخ العرب ولغتهم يبرز أهمية العوامل التي ساهمت في ذلك، ومن أهمها عوامل البيئة الجغرافية التي فرضت ظروفاً اقتصادية واجتماعية أدت بالعرب الأوائل إلى تأهيل الجمل، وإلى تطوير تجارة البخور، التي جاءت بهم إلى البوادي الشمالية في شبه الجزيرة، حيث أقاموا مستوطناتهم ومراكزهم التجارية التي كانت القاعدة الأساسية لوجودهم في تلك المناطق ومن ثم توغلهم في وادي الرافدين.

إن أقدم الإشارات المكتوبة عن العرب جاءت في المدونات الآشورية التي تعود إلى العام ٨٥٣ق.م. التي تسرد أعمال الملك الآشوري شيلمنصر الثالث(١) فقد خاض جيش هذا الملك في تلك السنة عدداً من المعارك، أشهرها معركة (القرقار) على نهر العاصي، واشتبك بجيوش عدد من ملوك وأمراء الدويلات الآرامية الذين تحالفوا ضده. ففي أخبار تلك المعركة، ورد اسم العرب واسم الملك "جندبو العربي" الذي انضم إلى ذلك الحلف المعادي للملك الآشوري، وجاء بجيش من الصحراء قوامه ألف جمل. ومنذ ذلك التاريخ استمر اسم العرب يتكرر في السجلات الآشورية. فالملك "تجلاتبليزر" قاد هو الآخر عدة حملات عسكرية غرب الفرات، منها حملة عسكرية قادها في العام ٧٣٤ق.م. وقد جاء في سجلات تلك الحملة أن الملكة العربية "شمسي" قدمت

---

(١)طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص٥٠٦

للملك الآشوري الجزية التي كان منها ثلاثون ألف جمل وعشرون ألف رأس من الماشية وخمسة آلاف كيس من البخور والتوابل[1].

إن ما جاء في المدونات الآشورية يرسم لنا صورة عن مدى نمو ثروات العرب، ونفوذهم السياسي والعسكري في البوادي الشمالية. ويظهر ذلك بجلاء، في مدونات الملك "أسرحدون"، فحينما قرر أن يزحف بجيوشه، من بلاد آشور للاستيلاء على مصر في العام ٦٧١ق.م. رأى أنه لا يمكن لجيوشه اجتياز الصحراء، للوصول إلى مصر، إلا بعد كسب ود العرب الذين كانوا يسيطرون على الصحارى التي تفصل وادي الرافدين عن وادي النيل. ولهذا أقام الملك "أسرحدون" حلفاً مع العرب، ذلك الحلف الذي استمر بعده، وذهب حداً أبعد في عهد الملك آشور بانيبال. فحينما زحف ذلك الملك بجيوشه لإعادة سيطرة الآشوريين على وادي النيل شارك المقاتلون العرب راكبي الجمال في تلك الحملة العسكرية.

وفي الفترة ما بين العام ٥٠٠ق.م. والعام ١٠٠ق.م. طور عرب الشمال العدة (الحداجة) التي توضع فوق ظهر الجمل للركوب والتحميل، مما زاد في حمولة الجمل وسهل استعمالاته الأخرى في السلم والحرب. ثم إن ازدياد ثروات العرب، مكنتهم من اقتناء الخيول والحصول على المزيد من الأسلحة كالسيوف والرماح وغيرها، إضافة إلى النبال التي كانوا يرمون بها الأعداء من على الجمال. وهذا أعطاهم ثقلاً اقتصادياً وعسكرياً جديداً في بواديهم الشمالية. أما في الجنوب فإن تلك التطورات حسمت الأمر لصالح عرب الشمال اقتصادياً وسكانياً ولغوياً.

وفي حدود القرن الثالث ق.م تمكن العرب من نقل ثقل وجودهم التجاري والاستيطاني عبر حاجز نهر الفرات، الذي كان دائماً الحد الفاصل بين مستوطنات العرب ومراكزهم التجارية، ومجتمعات وادي الرافدين الزراعية.

---

(١) Richard W. Bulliet - The Camel and The Wheel P٧٨

ففي تلك الفترة شيد العرب مدينة الحضر في الجزيرة الواسعة بين دجلة والفرات في موقع يبعد حوالي ٥٨كم من الجهة الشمالية الغربية لموقع مدينة آشور القديمة الواقعة على نهر دجلة.

كان موقع الحضر مستوطناً للعرب ومركزاً لتجارتهم مع حواضر بلاد الرافدين وما جاورها.وبمرور الزمن اتسع ذلك المستوطَن وتحول إلى مدينة حصينة. وهكذا قامت للعرب مدينة تجارية محصنة بين دجلة والفرات.وكان من حكام تلك المدينة "سنطرق" أو "سننطروق" الذي كان يدعو نفسه (ملك عربو).

إن قيام مدينة الحضر وظهور سلالة حاكمة فيها، يشير إلى مدى توغل العرب في وادي الرافدين من جهة، وإلى المرحلة الحضارية التي بلغوها في تلك الأيام. ثم إن مناعة تلك المدينة وبقائها مستقلة بيد حكامها العرب، يشير إلى قوة وجودهم في تلك المناطق. فقد امتنعت مدينة الحضر على العديد من الغزاة والفاتحين الذين اجتاحت جيوشهم بلاد الرافدين بعد سقوط بابل.

فقد صمدت في وجه الإمبراطور الروماني تراجان، وصمدت كذلك في وجه الإمبراطور سبتموس سفيروس، الذي غزا بلاد الرافدين واستولى على بابل وسلوقية وطيسفون ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على مدينة الحضر بالرغم من محاصرتها لأكثر من شهر. وامتنعت الحضر كذلك على جيوش الملك الفارسي اردشير.

وبالرغم من أن العرب شيدوا مدينة الحضر في مرحلة انكماش تجارة البخور التي انتكست بعد سقوط بابل، فإن المعلومات التاريخية تشير، ومنها كتابات المؤرخين اليونان ومن أخذ عنهم من الكتاب الرومان وغيرهم منذ القرن الثاني ق.م. إلى أن العرب ظلوا محافظين إلى تلك الأيام، على ثرواتهم ومكانتهم في ذلك العالم القديم.

فكتابات سترابو وبليني تذكر:

أن بلاد العرب هي أرض الثروات الأسطورية والرفاه الباذخ. إنها ارض البخور والطيب والتوابل. وإن أهلها يعشقون الحرية ويعتزون بها.

مجتمعات طريق البخور

غير أن اغلب المصادر التي تناولت تاريخ العرب وثرواتهم ومنعة صحاريهم ، لم تلتفت إلى التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في المجتمعات العربية التي قامت على طول طريق تجارة البخور. تلك التحولات التي غيرت طبيعة تلك المجتمعات، وفتحت لها آفاقاً جديدة في ميادين الفكر والمعرفة الإنسانية.

فقد ظهرت في تلك المراكز التجارية مجتمعات تجاوز اقتصادها مرحلة البداوة وجمع القوت. إذ كان سكانها يعتمدون في معيشتهم على التجارة وما يرتبط بها من خدمات. وفي إطار ذلك الاقتصاد المنتج ظهرت الملكية الفردية وما تحمله من سلبيات وإيجابيات اقتصادية واجتماعية، وظهرت فيها فئات اجتماعية تتباين في معيشتها ومصادر رزقها، وفي اختصاصاتها ومهاراتها في العمل. فكان منها التجار بمختلف فئاتهم، والعمال الأحرار وغيرهم من فقراء الناس، والعبيد الذين يخدمون أسيادهم الذين ترتبط مصالحهم بتلك التجارة. تلك الحقائق التاريخية التي لم يلتفت إليها أولئك الكتاب، تؤكد أن مجتمعات العرب التجارية التي ظهرت على طول طريق تجارة البخور بلغت مرحلة اقتصادية متقدمة.

والعرب بحكم مصالحهم التجارية كانوا يتنقلون بين السواحل الجنوبية للجزيرة العربية وأسواق العالم القديم، وأهمها أسواق بابل التي كانت تعد مركز التجارة العالمية وعاصمة العالم القديم. وفي بابل كان العرب يحتكون بالسكان المحليين ويتعرفون على أحوالهم وعقائدهم الدينية وتراثهم الفكري. إضافة إلى احتكاكهم بالتجار والجماعات القادمة من مختلف الأنحاء. كل ذلك أكسبهم تجارب ومعارف واسعة. وبمرور الزمن أخذت تلك التجارب والمعرفة

بأبعادها الفكرية، طريقها إلى مجتمعات العرب على طول طريق تجارة البخور، مما كان له أبلغ الأثر في إغناء تراثهم الفكري وتطورهم الحضاري.

غير أن ازدهار تجارة البخور توقف على حين غرة في النصف الأول من القرن السادس ق.م. إذ واجهت بابل سلسلة من الأزمات الاقتصادية والسياسية بعد أن انقطعت عنها موارد البحر المتوسط. ولتعويض ما فقدته بابل حاول الملك نبونيدس (٥٥٦ق.م.) السيطرة على تجارة البخور، ولذلك سار نحو تيماء واستولى عليها وعلى عدد من المراكز التجارية منها دومة الجندل "أدمو". ثم مد نفوذه جنوباً واستولى على مراكز تجارية وواحات عديدة منها يثرب "يثربو"، وأقام هناك حاميات عسكرية ومستوطنات أسكن فيها جماعات من بابل ومن بلاد الشام. غير إن ذلك الوضع لم يدم طويلاً، فبعد مرور عقد من الزمن زحف الملك الإخميني كورش بجيوشه للاستيلاء على بابل.

وبسقوط بابل على يد كورش انهارت الإدارة المركزية ومؤسساتها، وانهار معها الاقتصاد المركزي الذي تميزت به حضارة وادي الرافدين، ذلك الاقتصاد الذي كان يعتمد على الملكية الجماعية، التي تدار بمؤسسات تابعة إما للملك أو للمعبد. وقد كان لتلك التحولات أسوأ النتائج على تجارة البخور وعلى الذين ارتبطت مصالحهم بها. لأن مجتمعات بابل بمعابدها ومؤسساتها الحكومية، كانت المستهلك الرئيسي للبخور والطيب ومختلف البضائع التي كانت قوافل العرب تنقلها من جنوب الجزيرة العربية. وهكذا بدأت مرحلة تدهور تجارة البخور، التي انعكست نتائجها السلبية على المجتمعات العربية المرتبطة بتلك التجارة.

فقد أضرت بالتجار العرب وبالقبائل العربية التي اعتمدت حياتها إلى حد بعيد على تلك التجارة، ومنها القبائل التي كانت تعمل في نقل البضائع أو حراسة قوافلها، أو القبائل التي كانت تعيش على تربية الجمال وتكثيرها وبيعها في المحطات التجارية، أو التي كانت تجبي الرسوم من القوافل التي تمر في مناطق نفوذها. هذا بالإضافة إلى الأضرار التي تكبدها التجار العرب بسبب

تحول طرق تجارة الهند إلى شرق دجلة بعيداً عن وادي الرافدين، وسيطرة التجار الفرس عليها.

العرب على ضفاف الفرات

وأمام تلك الضغوط الاقتصادية كان لابد للعرب من البحث عن سبل بديلة للمعيشة. ولذلك اتجهت العديد من القبائل العربية إلى أرياف العراق. وفي منطقة الفرات الأوسط ظهرت الحيرة التي يقال بان اسمها مشتق من كلمة "حرتا" السريانية وتعني مضارب الخيام فكانت أول مستوطناتهم على نهر الفرات. وبمرور السنين كثف العرب وجودهم في تلك المنطقة واستبدلوا خيامهم بالمساكن الثابتة.

تقع مدينة الحيرة على الضفة الغربية من نهر الفرات على بعد عشرين كلم جنوب الكوفة وما يقارب السبعون كلم جنوب موقع مدينة بابل القديمة. وكان موقعها ملتقى أهم طرق التجارة البرية التي تربط الجزيرة العربية بوادي الرافدين، إضافة إلى قربه من أهم المناطق الزراعية في قلب ذلك الوادي، ولاجتماع تلك المزايا في ذلك الموقع أخذت القبائل العربية تتوارد عليه. وفي أوائل القرن الثالث الميلادي تمكن أولئك العرب الذين رسخت أقدامهم في تلك المناطق من إقامة أول دولة لهم على ضفاف الفرات واتخذوا من مدينة الحيرة عاصمة لتلك الدولة. ويبدو أن حالة الضعف والانقسامات والحروب التي سادت المنطقة بعد سقوط إمبراطورية بابل ساعدت هؤلاء العرب على توطيد أركان دولتهم التي أصبحت القاعدة والمنطلق لتوغلهم في أرياف وادي الرافدين. ولما كانت اللهجة السائدة في مجتمع عرب الحيرة هي لهجة عرب شمال الجزيرة فإن الرأي السائد بين الباحثين هو أن غالبية عرب الحيرة ينتمون إلى القبائل الشمالية، بالرغم من أن ملوكهم اللخميون ينتمون إلى عرب اليمن القحطانيين. كل هذا يعزز الرأي الذي يضع هجرات القبائل العربية نحو وادي الرافدين ضمن إطار انهيار تجارة البخور بعد سقوط بابل.

وبعد قيام دولة الحيرة على ضفاف الفرات دخل هؤلاء العرب مرحلة جديدة في تطورهم التاريخي، إذ أقاموا هناك مجتمعاً جديداً تنسجم أسسه الاقتصادية والاجتماعية مع طبيعة وخصوصيات الزراعة في وادي الرافدين. وفي خضم تلك التحولات أخذ العرب يتكيفون اجتماعياً واقتصادياً، مع حياة الزراعة النهرية في وادي الرافدين، والتعامل مع طبيعة أنهاره وفيضاناتها وتحول مجاريها، ومع بطائح وأهوار ذلك الوادي الخصيب.

وبفضل استخدام الجمل الذي يسميه البعض سفينة الصحراء استمر التواصل الحضاري بين مجتمع عرب العراق ومجتمعات الجزيرة العربية. ففي الحيرة، وعبر التحولات الحضارية التي صاحبت تطور المجتمع العربي على ضفاف الفرات، ظهرت معالم الخط العربي، الذي قام على نسق الخط الآرامي والنبطي، وعرف بالخط الحيري. والمعلومات التاريخية تشير إلى أن الخط العربي أخذ طريقه من الحيرة إلى مكة وغيرها من مدن الحجاز. قال بن رسته: "إن قريش تعلموا فن الكتابة من الحيرة". ومن المعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا يعنون بتسجيل العهود والمواثيق، والأحلاف، وصكوك الحقوق والتجارة، وسندات ملكية الرقيق. ويقال: كان في قريش حين ظهور الإسلام، سبعة عشر رجلاً يجيدون القراءة والكتابة منهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ويزيد بن أبي سفيان.

وحينما بدأت الفتوحات الإسلامية، خرجت جموع المسلمين من يثرب مدينة الرسول (ص) وسارت على طريق البخور نحو الحيرة، ومنها إلى بابل ثم إلى المدائن. ولكن حينما قرر المسلمون تمصير حاضرتهم الأولى في وادي الرافدين، كان لابد أن تكون جوار الحيرة، وهكذا قامت الكوفة بين الفرات وتلال الغري التي تشرف على الحيرة. وما حدث بين الحيرة والكوفة من تواصل، جاء دليلاً آخر على أن في التاريخ من عوامل الاتصال والاستمرار ما يجعل كل فترة متممة لما قبلها ونتيجة طبيعية لظروفها. ففي الكوفة حاضرة الإسلام الأولى تطور الخط العربي الذي عرف بالخط الكوفي والذي

يعد امتداداً للخط الحيري. وهكذا أصبحت الكوفة المحطة الحضارية الجديدة في تاريخ عرب العراق.

بعد هذا الاستعراض السريع، لابد لي أن أشير إلى أنني بصدد طبع هذا القسم من الدراسة في مجلد مستقل، على أن تتبعه الفصول التي تتناول الفتوحات الإسلامية وانتشار العرب في العراق وتحولهم إلى الزراعة النهرية، في ظل سياسة الدولة الإسلامية، التي وضعت قوانين جديدة لملكية الأرض وزراعتها ودفع ضرائبها في البلاد المفتوحة. تلك السياسة التي أقرها الخليفة عمر بن الخطاب بعد التشاور مع علي بن أبي طالب وعدد من كبار الصحابة. ودور عرب العراق (أهل الكوفة وأهل البصرة) في الفتوحات الإسلامية في فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر. والأحداث التي واجهتهم في العصر الأموي، ومنها سياسة تهجير عرب العراق إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر في آسيا الوسطى. ودور تلك القبائل العربية، التي عرف أهلها باسم عرب خراسان، في إسقاط الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية. ثم الأحداث التي واجهها عرب العراق في العهد العباسي، والظروف التي أدت إلى ظهور أول مؤسسة عسكرية للمماليك الترك في التاريخ الإسلامي. تلك المؤسسة التي تسلط أمراؤها على الخلافة العباسية، وتحكموا في توجيه سياستها. كل هذه الأحداث تصل بنا إلى موضوع كتابنا هذا.

تمهيد

المفهوم الجغرافي والاسم

أدرك الباحثون منذ زمن أثر البيئة الجغرافية على الكائنات التي تعيش على وجه الأرض بما في ذلك الإنسان. ومع تقدم العلوم والتكنولوجيا الحديثة زادت معرفتنا بالبيئة الجغرافية التي نعيش فيها وبأبعاد تأثيرها على حياتنا. وقد سهل ذلك علينا فهم تاريخ الإنسان وتطور الحضارات التي شيدها. إن ظهور هذه الحقائق العلمية التي اجتمعت وتشابكت فيها العديد من العوامل التي أثرت على حياة الإنسان، فرضت على الباحثين إعادة تقييم كثير من الأحداث التاريخية وإلغاء مفاهيم كانت سائدة ومسلم بها. وساعدت على إبراز مفاهيم وقناعات جديدة لم يكن يلتفت إليها.

وعند دراسة وادي الرافدين نجد أنفسنا أمام وضع فريد لبيئة جغرافية ذات صفات خاصة، فحينما قامت حضارات الإنسان وتطورت مجتمعاته في ذلك الوادي، فإن تطورها جاء نتيجة طبيعية لتلك البيئة ذات الخصوصيات الفريدة. وكما أن تلك العوامل المتشابكة أثرت على حضارات إنسان وادي الرافدين عبر العصور، فإنها أثرت كذلك وبذات الأبعاد على حياة الإنسان العربي الذي حل في وادي الرافدين، فكانت حياته والتاريخ الذي صنعه نتيجة طبيعية لتلك البيئة وخصوصياتها. وعليه فإن أية دراسة جدية لتاريخ العراق منذ استقرار العرب في وادي الرافدين لابد أن تقيم تلك العوامل التي اجتمعت في بيئته وأثرت في مجتمعات عرب العراق من جميع جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية. وإن سبر أغوار تلك العوامل يكشف لنا حقيقة ما حدث في التاريخ ويساعدنا على تصحيح مفاهيمنا القديمة المشوشة لتاريخنا وتكوين رؤية سليمة وواضحة وقناعات جديدة مبنية على حقائق العلم المتوفرة.

لقد اختلف الباحثون في اصل اسم العراق، فمنهم من أرجعه إلى تراث قديم وانه مشتق من كلمة أوروك التي تعني بلغة السومريين المستوطن وبذلك دخل اللفظ في تركيب أسماء مدن عراقية قديمة مثل "أوروك" و "أور" وغيرهما.

بينما يرى آخرون أن التسمية لها جذور فارسية. ومن هؤلاء الباحث الآثاري "هرتسفلد" الذي يرى بان الاسم مشتق من الكلمة الفارسية "ايراك" ومعناها البلاد السفلى(١). والرأي الثالث يشير إلى إن اسم العراق عربي ويعني شاطئ الماء.

إذ جاء في القاموس المحيط: (العراق ... شاطئ الماء أو شاطئ البحر طولاً ... ومن النهر حاشيته من أدناه إلى منتهاه ... أو سمي بعراق لأن العراق بين الريف والبر، أو لأنه على عراق دجلة والفرات، أي شاطئيهما، والعراقان الكوفة والبصرة ...)(٢).

لقد رسم بن حوقل حدود العراق كما كان يراها الجغرافيون العرب في زمانه فقال في كتابه الشهير "صورة الأرض":

وأما العراق فإنه في الطول من حد تكريت إلى عبادان، وعرضه من القادسية على الكوفة وبغداد إلى حلوان، وعرضه بنواحي واسط من سواد واسط إلى قرب الطيب، وبنواحي البصرة من حدود البصرة إلى حدود جبي ... ثم من الأنبار إلى حد تكريت بين الدجلة والفرات ...(٣).

وهنا نلاحظ أن هذا المفهوم الجغرافي للعراق كما رآه العرب ينحصر بالوادي الرسوبي الذي يمتد جنوب خط هيت-سامراء والذي تكون بعد نهاية العصور الجليدية. أما المنطقة التي تمتد شمال ذلك الخط فكان العرب يطلقون عليها اسم "أرض الجزيرة" التي حددها بن حوقل فقال:

فأما الجزيرة التي بين دجلة والفرات فتشتمل على ديار ربيعة ومضر ومخرج الفرات من داخل بلد الروم ... ويمر على بالس إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت والأنبار. وينقطع الحد عن الفرات مما يلي الجزيرة بالأنبار. ثم يعود من حد الجزيرة من سمت الشمال فيكون إلى تكريت الحد العراق. وتكريت على دجلة وينتهي الحد منها فصاعداً على دجلة إلى السن مما يلي الجزيرة وإلى الحديثة والموصل. ويصعد بصعود دجلة إلى الجزيرة المعروفة باسم ابن عمر(٤).

---

(١) طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص٩-ص١٤

(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي - القاموس المحيط

(٣) أبي القاسم ابن حوقل النصيبي - صورة الأرض ص٢٠٨

(٤) ن.م. ص١٨٩

أما من الناحية التاريخية فقد شاع استعمال اسم العراق في الأدوار الأخيرة من عهد دولة الحيرة ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين حيث بدأ استعماله يظهر في الشعر الجاهلي في القصائد التي قيلت في حق ملوك الحيرة وغيرها. وقد خلدت لنا معلقات الكعبة العديدة من تلك القصائد. كل هذا يعزز الرأي القائل بان اسم العراق مفهوم جغرافي عربي ارتبط بوجود العرب في الوادي الرسوبي. ومن المرجح إن اسم العراق كتراث لغوي عم استعماله بعد قيام دولة الحيرة العربية على الفرات. وفي العهود الإسلامية اخذ مفهوم الاسم يتسع حتى شمل ديار ربيعة وتغلب، والتي أصبحت الموصل قاعدتها بعد أن اتخذها بنو حمدان عاصمة لهم. وكانت الموصل ملتقى الطرق التي توصل ببلاد الشام وبلاد الروم وخراسان وبلاد ما وراء النهر.

لقد أطلق العرب على الوادي الرسوبي اسم "ارض السواد"، فيقال سواد العراق لأن أرضه تلوح للقادم من الصحراء، بنخيلها وحقولها الخضراء وكأنها خط أسود يمتد على صفحة الرمال البيضاء. وبعد تشييد الكوفة أخذ المسلمون يطلقون على أرياف الفرات الأوسط اسم سواد الكوفة، وعلى أهل الريف اسم سواديون ومفردها سوادي. ثم ظهرت تسميات أخرى كسواد البصرة وسواد واسط وسواد بغداد. وكلها تقع ضمن أرض الوادي الرسوبي الذي يمتد جنوب خط هيت-سامراء.

أما الأرض التي تمتد شمال خط هيت-سامراء والتي أطلق الجغرافيون عليها اسم "ارض الجزيرة" فهي على شكل مثلث قاعدته في الشمال حيث تتصل عبر الفرات بالصحراء السورية، ويبلغ أقصى عرض لها بين دجلة والفرات نحو ٤٠٠ كلم.

وتتكون أرض الجزيرة بالدرجة الأولى من صخور كلسية ورملية تقطعها مجموعة من الوديان الطويلة.وتتميز تلك المناطق بكونها مرتفعة وتنحدر بشدة باتجاه الجنوب الشرقي، مما يسبب في ازدياد سرعة جريان مياه دجلة والفرات فيها. وبسبب ذلك الانحدار الشديد، تمر عبرها سيول الفيضانات دون

أن ترسب المواد العالقة بها. بل على العكس فإنها تجرف معها نسبة من سطح التربة التي تمر عليها وتحملها نحو الجنوب. ولذا فان منطقة الجزيرة لم تكن تعتبر جزءاً مهماً من المجتمعات الزراعية التي قامت في وادي الرافدين. ولكنها كانت الجسر الرئيسي للهجرات البشرية التي تدفقت على وادي الرافدين عبر العصور.

أنهار وأهوار وبطائح العراق

بالرغم من انتهاء عصر الطوفانات والسيول العظيمة التي أعقبت العصور الجليدية، فإن مياه دجلة والفرات استمرت تحمل في مواسم الفيضان كميات جسيمة من الطمي والغرين من المناطق المرتفعة وتنقلها إلى السهل الرسوبي المنخفض جنوب خط هيت_سامراء حيث تبدأ المواد العالقة بها بالترسب.

تحول مجاري الأنهار

وبالنظر لانخفاض سرعة جريان المياه في السهل الرسوبي، كانت عملية ترسب تلك المواد تحدث كذلك في مجاري الأنهار نفسها، فيرتفع بسبب ذلك مستوى قاع تلك الأنهار وتظهر في مجاريها جزر رملية سرعان ما تنمو فيها الحشائش والأدغال مما يساعد على تماسك تربتها. وهذا بدوره كان يقلل من قابلية استيعاب تلك الأنهار للمياه التي تجري فيها. وفي مواسم الفيضانات كان منسوب مياه تلك الأنهار يرتفع إلى حد إحداث فجوات في جوانبها لا يمكن السيطرة عليها. ومن تلك الفجوات كانت المياه الفائضة تجري نحو مناطق منخفضة قريبة وتشق بفعل جريانها مجراً جديداً للنهر يكون مجراه غالباً أوطأ من مجراه القديم، وبتفاقم عملية حفر المجرى الجديد وتوسعه،كانت إمكانية استيعابه للمياه تزداد على حساب المجرى القديم. وبعد انتهاء موسم الفيضان وانخفاض مناسيب المياه في أنهار العراق، كان سكان تلك المناطق يواجهون مشاكل جديدة. إذ كانت كميات المياه في المجرى القديم تتناقص أو ربما تنقطع عنه، مما يسبب هلاك المزارع والبساتين التي كانت ترتوي من ذلك النهر، وبالتالي اندثار القرى والمدن الواقعة عليه. مما يضطر السكان إلى الهجرة إلى مناطق أخرى بعد أن تجف المياه في مناطقهم وتنقطع فيها سبل

الحياة. وطالما عرضت تلك التحولات سكان تلك المناطق إلى ويلات، وجرتهم إلى صراعات دموية حول الماء والأرض.

ومن الجدير بالملاحظة أن ظاهرة تحول مجاري أنهار العراق، كانت من أقوى العوامل التي ساهمت في اندثار الحضارات القديمة في وادي الرافدين وتحول مراكز الاستيطان والمدن من مكان إلى آخر.

لابد أن نشير هنا إلى أن ظاهرة تحول مجاري الأنهار في العراق ظلت محصورة في منطقة السهل الرسوبي، حيث قامت حضارات سومر وأكد. وإن وجود آثار المدن القديمة بعيداً عن مجاري الأنهار الحالية ما هو إلا دليل على تلك التحولات في مجاري الأنهار منذ فجر الحضارات.

ومن أهم المدن التي اندثرت وتشاهد آثارها بعيدة عن مجاري الأنهار هي "نفر" و "أوروك/ الوركاء" و "لارسة" و "أور" و "أر يدو". وكذلك مدن "بابل" و "سبار" و "كيش" و "كوثى". ولنفس الأسباب اندثرت مدينة واسط التي بناها الحجاج على مجرى نهر دجلة القديم.

أما المنطقة الواقعة إلى الشمال من خط هيت-سامراء فإن مجاري دجلة والفرات لم يطرأ عليهما أي تغير وذلك لاختلاف طبيعتها الجغرافية. ففي هذه المنطقة يجري كل من دجلة والفرات في مجرى خاص به، تكون عبر العصور. إذ شق كل من النهرين مجراه عميقاً في تلك الهضبة الكلسية شديدة الانحدار، وذلك بفعل شدة تيار المياه الجارية. ومع مرور الزمن ونتيجة لعملية الحفر الطبيعية، تكونت لكل منهما ضفاف صخرية عالية ساعدت على حفظ وتثبيت مجاري تلك الأنهار. ولهذا نجد أن آثار المدن القديمة مثل "نينوى" و "آشور" تقع بالقرب من مجرى نهر دجلة الحالي.

وبسبب ارتفاع الأرض عن مجرى النهر في مناطق الجزيرة لم يتمكن الإنسان من الاستفادة من مياه دجلة والفرات في زراعة تلك المنطقة الواسعة كما هو الحال في الوادي الرسوبي الخصيب. ولذلك ظلت أرض الجزيرة شمال خط هيت-سامراء شبه قاحلة لا تصلح إلا للرعي عدا بعض المناطق

الصغيرة بالقرب من الشواطئ أو التي تظهر صيفاً في مجرى النهر أي بين شاطئيه، أو في الأراضي الديمية في أقصى الشمال.

ولفيضانات دجلة والفرات طبيعة خاصة تتميز بالعنف وعدم الانتظام. ثم أن أوقاتها غير ملائمة لمواسم الدورة الزراعية في العراق. ففي فصل الربيع ترتفع مناسيب المياه في دجلة والفرات بصورة مفاجئة. ولكن مياه هذه الفيضانات تأتي متأخرة بالنسبة إلى الزراعة الشتوية. ثم أن فترة تلك الفيضانات تكون عادة قصيرة إذ تهبط مناسيب المياه بسرعة وقبل بداية أشهر الصيف. ولذا تشح المياه قبل نضوج المحاصيل الصيفية مما يتسبب في هلاك نسبة كبيرة منها.

من ناحية أخرى تأتي فيضانات دجلة والفرات في كثير من السنين عنيفة ومدمرة ولذا فإن نظام الري وعملية السيطرة على المياه تكون بالغة الصعوبة والتعقيد.

لقد واجه الإنسان منذ فجر الاستيطان في وادي الرافدين ذلك الواقع الصعب. فأجبرته طبيعة تلك البيئة على بذل جهود جبارة من أجل السيطرة على الرافدين الذين كانا يعتبران من أشد أنهار العالم عنفاً. ولذا يعتقد العديد من الباحثين أن تلك البيئة الفريدة تركت بصماتها واضحة في حياة وفكر وطباع المجتمعات الإنسانية التي قامت على ضفاف تلك الأنهار منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا.

إن من أهم آثار فيضانات دجلة والفرات المدمرة هي أن طغيان المياه في مجرى النهر غالباً ما تخرب الشواطئ وتندفع إلى المناطق المنخفضة من السهل الرسوبي وتغمر مساحات شاسعة منها. فتتكون الأهوار والبطائح وأكثرها مسطحات مائية غير عميقة. وإن البحوث العلمية تشير إلى أن بعض هذه الأهوار كانت موجودة منذ نهاية العصور الجليدية. ولابد أن مساحات تلك الأهوار كانت تتسع أو تتقلص حسب حجم الفيضانات التي تتحكم فيها الظروف المناخية السائدة. وأن الرأي السائد في الوقت الحاضر عند غالبية

الباحثين هو إن قسماً من تلك الأهوار غمرته مياه الخليج بعد ارتفاع مستوى سطح المياه في المحيطات والبحار المتصلة بها جراء ذوبان الثلوج في نهاية العصور الجليدية.

أما الأهوار التي ظلت في وادي الرافدين فإنها تكون جزءاً متميزاً من السهل الرسوبي الذي يشمل وسط وجنوب العراق. وقد ظلت تلك الأهوار عبر التاريخ تتأثر بفيضانات دجلة والفرات وتحول مجاريها. وهذا بدوره كان يغير مواقع تلك الأهوار ويتحكم بمساحاتها وامتداداتها، ويتحكم كذلك بحجم ومواقع سكان تلك الأهوار. فالمعلومات التاريخية تشير إلى أن مجتمعات أهوار العراق لم تكن ثابتة ولا أزلية كما يبدو لأول وهلة بل كانت تتغير مع التحولات السكانية في وادي الرافدين. فكثيراً ما كانت التحولات في مجاري الأنهار تغمر مساحات شاسعة من المناطق الرعوية والزراعية في وسط وجنوب العراق فتتحول تلك المناطق إلى أهوار وبطائح يهجرها من ينجو من سكانها وبالعكس فإن تحول المياه إلى تلك المناطق كان يحرم مناطق أخرى من المياه فتجف أهوارها وبطائحها وتنكشف فيها الأرض وتتحول إلى ، أما مناطق زراعية ، أو رعوية ، وبذلك تفتح الباب أمام هجرات جديدة وانتشار جديد للسكان فيها. وقد ساعدت تلك الظاهرة الفريدة القبائل العربية منذ دخولها وادي الرافدين على الانتشار في الأهوار الجنوبية.

إن الدراسات تؤكد بأن توغّل وانتشار القبائل العربية في أهوار جنوب العراق، خضع لنفس العوامل التي خضع لها سكان العراق منذ عصور بابل. وإن مجتمعات العرب التي قامت في الأهوار تكيفت مع تلك البيئة الفريدة في فترة زمنية تعد قصيرة نسبياً، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن عشائر ألبو محمد والسواعد التي تعد اليوم من أهم وأكبر العشائر العربية المنتشرة في أهوار دجلة في منطقة العمارة هي عشائر زبيدية انحدرت وتوغلت في أهوار العمارة في العهود العثمانية ولكنها تكيفت مع طبيعة تلك الأهوار فسكنت البيوت المصنوعة من القصب بدلاً من الخيام وتحولت إلى زراعة الرز

وتربية الجاموس وصناعة الحصر من القصب والبردي الذي يكثر في تلك الأهوار في مدة قصيرة نسبياً لم تتجاوز بضعة أجيال. وكذلك عشائر بني أسد التي انحدرت إلى أهوار الفرات الجنوبية واستقرت في منطقة الجزائر بعد إن قضى عسكر المماليك على دولتهم في الحلة في أواخر العهد العباسي. ومنذ ذاك الحين تكيفت تلك العشائر العربية إلى حياة تلك الأهوار.

ومن الجدير بالملاحظة فإن معالم خارطة توزيع العشائر العربية في العراق في عصرنا الحاضر اتخذت وضعها الحالي بعد تحول نهر دجلة من مجراه القديم الذي كان يمر بمدينة واسط، إلى مجراه الحالي في أواخر القرن السادس عشر. وكذلك التحولات التي شملت مختلف فروع نهر الفرات بين الحلة والكوفة والتي استمرت حتى بناء سدة الهندية في مطلع القرن العشرين. وفي الوقت الحاضر يمكن تقسيم أهوار العراق إلى ثلاثة مجموعات رئيسية:

أهوار منطقة الفرات الأوسط

وتمتد من منطقة الحلة إلى الشامية والديوانية. وكانت مياه تلك الأهوار تتصل ببحر النجف، وهور أبو دبس وتمتد شرقاً حتى مجرى دجلة القديم بالقرب من واسط (نهر الغراف حالياً) وجنوباً حتى حدود المنتفك (منطقة الناصرية-سوق الشيوخ). ولكن العديد من أهوار وبطائح هذه المنطقة انحسرت عنها المياه وتحولت أراضيها للزراعة.

أهوار الفرات الجنوبية

تمتد من منطقة الناصرية - سوق الشيوخ حتى حدود شط العرب في البصرة. ولابد أن نشير هنا إلى أن مياه دجلة التي تجري في نهر الغراف تلتقي بمياه الفرات في هذه المناطق. وتمتد في هذه المنطقة عدة أهوار أوسعها هور الحمار الذي تجري فيه مياه الفرات ثم تخرج وتصب في شط العرب عن طريق نهر (كرمة علي) وفي الوقت الحاضر تصل أكثر مياه الفرات إلى شط

العرب عن طريق كرمة علي وليس عن طريق القرنة كما كان الحال قبل نحو قرن من الزمن.

الأهوار الشرقية في منطقة دجلة

من الجدير بالذكر إن نهر دجلة غير مجراه الرئيسي في الوادي الرسوبي، في القرن السادس عشر، فقد كان مجراه القديم أقرب إلى نهر الفرات ويمر بمدينة واسط. وإن تحوله إلى مجراه الشرقي الحالي غير كثيراً في خارطة أهوار وبطائح وسط وجنوب العراق. فقبل عملية التحول تلك، كانت مياه دجلة تغذي في وسط العراق عدداً من الأهوار والبطائح التي كانت مياهها في أغلب الأحيان تتصل بأهوار وبطائح الفرات الأوسط، وتمتد لتتجاوز منطقة واسط إلى جنوب العراق. ولكن بعد تحول مجرى دجلة إلى المجرى الشرقي منذ القرن السادس عشر تقلصت أهوار وبطائح مجرى دجلة القديم بعد أن انحسرت عنها المياه. مما تسبب في تغير معالم تلك المناطق. وبالمقابل توسعت الأهوار والمسطحات المائية في جنوب وجنوب شرقي العراق، وتضاعفت كميات المياه التي تجري فيها وهذا بدوره سبب تغير معالم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تلك المناطق، ومن العشائر التي تأثرت بتلك التحولات عشائر بني لام وعشائر ألبو محمد، وفي الوقت الحاضر فان أكبر أهوار دجلة جنوب شرق العراق هو هور الحويزة وهور شويجة.

ولما كانت مياه دجلة والفرات تقترب من بعضها ثم تلتقي في جنوب العراق لتكون شط العرب، فان مياه أهوارها الجنوبية تلتقي هي الأخرى لتكون مسطحات مائية واسعة على شكل مثلث مترامي الأطراف يمتد من شط العرب حتى العمارة من جهة دجلة، ومن شط العرب حتى سوق الشيوخ- الناصرية من جهة الفرات. وفي نطاق تلك البيئة المائية الواسعة تجري عشرات الأنهار وعدد لا يحصى من الجداول. وبين مياه تلك الأنهار والجداول والمسطحات المائية تظهر بعض المناطق المرتفعة نسبياً لتكون

قطعاً من اليابسة تعرف بالجزائر لكونها محاطة بالمياه، والتي توجد فيها عادة مناطق صالحة للزراعة تنمو في بعضها أشجار النخيل، بينما تنمو حولها أحراش القصب والبردي، وان أغلب تلك الجزر صالح لسكنى الإنسان بالرغم من أنها معزولة لوقوعها في أعماق تلك الأهوار. وقد فرضت تلك البيئة على الإنسان الذي دخلها واستقر فيها أن يتفاعل مع خصوصياتها ويكيف حياته للمعيشة فيها.

ومن الجدير بالملاحظة أن مناطق الأهوار التي تلتقي فيها مياه دجلة بمياه الفرات تنتشر فيها عشائر انحدرت إليها من مناطق الفرات وأخرى انحدرت من مناطق دجلة وجميع تلك العشائر تحفظ أصولها والظروف التي أدت إلى هجرتها وتوغلها في تلك الأهوار. وهذه الحقائق القائمة على الأرض تؤكد على أن التحولات السكانية التي جرت في وادي الرافدين عبر العصور بسبب الفيضانات وتحول مجاري الأنهار كانت تشمل مجتمعات الأهوار كذلك. فالأهوار في حقيقتها تمثل الإمتدادات الطبيعية لذلك المجتمع النهري. وإن سكان وادي الرافدين كانوا يستفيدون دائماً من عزلة ومناعة تلك الأهوار في تعزيز مواقعهم على الأرض، خاصة في صراعاتهم مع القوى الأجنبية. وفي الفصول القادمة سنلقي بعض الضوء على انتشار الإنسان العربي واستقراره في وادي الرافدين. والظروف التي فرضت عليه التوغل والانتشار في أهوار العراق، لنرى كيف أن القبائل العربية استفادت من مناعة منطقة الأهوار والبطائح واستخدمتها كوسيلة للدفاع عن وجودها.

انتشار واستقرار العرب في العراق

مرت مجتمعات جميع الأقوام الذين هاجروا إلى وادي الرافدين بأنماط من الحياة تكاد أن تكون متماثلة فرضتها البيئة النهرية لذلك الوادي الفريد في تكوينه وموقعه الجغرافي.

وبالرغم من أن هجرات العرب لم تخرج عن جوهر ذلك الإطار العام فإن العوامل التي أحاطت نشأتهم وتطور تاريخهم في شبه الجزيرة أفضت على هجراتهم واستقرارهم في العراق خصوصيات جعلت من ذلك ظاهرة تستحق البحث والاستقصاء.

فمن المعروف إن جميع الأقوام الذين هاجروا من شبه الجزيرة واستقروا في وادي الرافدين قطعوا علاقاتهم بشبه الجزيرة وانهمكوا في بناء حياتهم الزراعية. أما العرب فإن علاقاتهم التاريخية بوادي الرافدين تطورت بعد تأهيل الجمل وبعد قيام وتطور الطرق البرية لتجارة البخور. أي بعد أن سادوا كسكان في شبه الجزيرة وامتداداتها الشمالية، وسيطروا على تلك التجارة وطرقها البرية. وإن هجراتهم الكبيرة وتغلغلهم في أرياف العراق حدثت بعد انهيار حضارة بابل وانكماش أسواق تجارة البخور، التي كانت محور حياة العرب التجارية.

وفي غالب الظن فإن تحرك القبائل العربية من عدنانية وقحطانية، تلك التي سميت بـ"التنوخية" وكذلك القبائل العدنانية من شمال الجزيرة، مثّل الموجات الأولى لتلك الجماعات التي عانت من ضغوط تلك الأزمة الاقتصادية، مما اضطرها للهجرة إلى أرياف العراق بحثاً عن سبل بديلة للمعيشة. وفي تلك الأرياف وجدت تلك القبائل العربية ظروفاً مؤاتية وإمكانات واسعة للتعايش مع سكان تلك المناطق الذين سبقوهم في الهجرة إلى وادي الرافدين. فقد وجدت تلك القبائل العربية التي كانت تملك أعداداً كبيرة من الجمال مساحات

شاسعة من الأراضي البور تمتد بين انهار وادي الرافدين تنمو فيها الأشواك والشجيرات وأنواع من النباتات التي تصلح لرعي الإبل ولا تصلح لرعي مواشي ودواب المزارعين المحليين. يبدو أن تلك الحقيقة ساعدت القبائل العربية على الانتشار في تلك المناطق والاستفادة من تلك المراعي من دون المساس بمصالح المزارعين المحليين أو التجاوز على مراعيهم المحلية.

وفي ذات الوقت وجد العرب إن المناطق الزراعية المجاورة، بحاجة إلى وسائط نقل إضافية خاصة في مواسم الحصاد، حين يتضاعف الطلب عليها لنقل الغلال إلى مراكز التسويق. فاصبح بإمكانهم تسخير تلك الأعداد الكبيرة من الجمال في قطاع النقل المحلي.

أما السكان فقد وجدوا من جانبهم أن جمال العرب توفر لهم واسطة للنقل ذات كلفة زهيدة بالرغم من تفوقها في المزايا والإمكانات على دوابهم ووسائط نقلهم الأخرى. فالجمل ينفرد بإمكانات في النقل البري لا تتوفر في بقية الدواب ولا حتى في العربات التي كانت موجودة في ذلك الزمن. إذ بإمكان الجمل الوصول إلى مواضع جمع الغلال في قلب المناطق الزراعية، والبروك على الأرض مما يسهل على المزارعين عملية تحميل الغلال وبقية المنتجات، ومن ثم النهوض والسير بحمله مسافات طويلة عبر الحقول والسواقي والمناطق الموحلة التي تكثر في وادي الرافدين، للوصول إلى مراكز التسويق.

مما زاد من أهمية مساهمة الجمل في قطاع النقل المحلي، إمكانية توفير أعداد كبيرة منه في الوقت المناسب والمكان المناسب. ففي مواسم الصيف والخريف، التي يزداد الطلب فيها على وسائط نقل إضافية، يصادف أن يضطر أصحاب الجمال إلى الاقتراب من انهار العراق بعد أن تشح المياه في البوادي وتجف مراعيها، فتكون قطعان الجمال قريبة من المناطق الزراعية، وجاهزة للمساهمة في عمليات النقل. وبالنظر لانخفاض كلفة إدامة الجمل الذي يمكنه أن يقتات على الأشواك والشجيرات المتوفرة في تلك المناطق،

اصبح بإمكان العرب تقديم خدماتهم في النقل بكلفة تقل كثيراً عن كلفة وسائط النقل الأخرى.

وفي إطار تلك الظروف السائدة تمكن الجمل من اقتحام قطاع النقل المحلي واخذ ينافس وسائط النقل التقليدية. واثبت في العديد من المجالات تفوقه عليها. وقد بلغ نجاحه في هذا المجال حداً انه أقصى من ميدان النقل عدداً من الوسائط التقليدية بما في ذلك العجلة التي كانت إحدى وسائط النقل الرئيسية ليس في وادي الرافدين فحسب بل في منطقة الهلال الخصيب.

لقد أثارت مسالة نجاح الجمل في إقصاء العربة من قطاعات مهمة للنقل اهتمام عدد من الباحثين. ومن أهم ما طرح بهذا الصدد، هو مسالة الفترة الزمنية التي برزت فيها تلك الظاهرة. فمن المعروف والمتفق عليه بين الباحثين، هو أن أعداداً كبيرة من الجمال كانت موجودة في البوادي المجاورة للمناطق الزراعية ومجتمعاتها المستقرة في وادي الرافدين وبلاد الشام منذ أيام الآشوريين وقبل سقوط بابل بعدة قرون.

إذا لماذا جاءت عملية إقصاء الجمل للعجلة بعد ثمانية أو تسعة قرون من ذلك؟، ثم كيف ارتبطت تلك التحولات بانتشار العرب واستقرارهم في بلاد الرافدين؟.

لقد أجاب الباحث Richard W. Bulliet على هذه المسألة المهمة فقال:

لم يكن بإمكان الجمل أن يقتحم ميدان النقل وينافس العجلة إلا بعد أن تمكنت تلك الجماعات البدوية التي تملك الجمال من الاندماج في مجتمعات واقتصاد الشرق الأوسط(١).

وقد يصعب علينا تحديد الزمن الذي بدأت فيه مثل تلك العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، بين سكان وادي الرافدين والقبائل العربية القادمة من الصحراء، ولكن يمكن القول بان تلك العلاقات لم تتم بين ليلة وضحاها، وإن العرب بمرور الزمن تمكنوا من بناء علاقات واسعة ساعدتهم على اقتحام مختلف

(١) Richard W. Bulliet - The Camel and The Wheel P. ١٠٩

قطاعات النقل وتكثيف وجودهم هناك. وقد شجع نجاحهم في ذلك المجال القبائل العربية الأخرى على الهجرة إلى بلاد الرافدين.

وقد أشار الباحث Richard W. Bulliet إلى تلك الحقيقة فقال:

تمكن العرب أصحاب الجمال عبر روابطهم القبلية من اقتحام جميع حقول النقل واخذوا يتنافسون مع وسائط النقل الأخرى ويقدمون خدمات متعددة تتباين بين نقل الأحجار وحمل المحاصيل والغلال الزراعية في مواسم الحصاد . . . .

وقد ساعد ذلك النشاط الاقتصادي، القبائل العربية على الاندماج في هيكل الاقتصاد المحلي وفي نسيج ذلك المجتمع الزراعي. وبمرور الزمن وبفعل العوامل الطبيعية التي تميزت فيها البيئة النهرية لوادي الرافدين تمكنت جماعات كبيرة من تلك القبائل العربية من التحول إلى الزراعة والاستقرار، وبالتالي تعلم فنون الزراعة والمهارات الحقلية المرتبطة بها.

وهكذا اندمجت تلك القبائل العربية بذلك المجتمع الزراعي وانصهرت في مختلف شرائحه الاقتصادية والاجتماعية وقامت قرى وبلدات جديدة، واصبح لهم دور فعال في كيانه الاقتصادي والاجتماعي.

وبين سقوط بابل وظهور دولة الحيرة برزت ظاهرة لغوية مهمة تمثلت في انتشار وسيادة اللغة الآرامية في بلاد الرافدين. وحين بدأت موجات الهجرات العربية نحو أرياف العراق وجد العرب إن اللغة الآرامية هي السائدة في التداول اليومي بين السكان. وفي الحيرة وبعد استقرار عدد من القبائل العربية ظهرت معالم مجتمع جديد اختلط العرب فيه بأولئك الذين يتحدثون بالآرامية. وبحكم المصالح المشتركة وتداخل عمليات التبادل التجاري اضطر القادمون الجدد من العرب إلى تعلم اللهجات واللغات المحلية وبالمقابل تعلم السكان المحليون التحدث باللغة العربية. وبالنظر إلى انتماء تلك اللغات إلى عائلة لغوية واحدة لم يجد العرب أو المتحدثون بالآرامية صعوبة في التخاطب بلغات بعضهم. وتشير العديد من الوقائع بان ذلك الازدواج اللغوي دام لعدة أجيال، توسعت أثناء ذلك دائرة الاختلاط والاقتباس وأخذت بمرور الزمن أبعاداً جديدة شملت مختلف حقول المعرفة.

وبالرغم من صعوبة تحديد طول تلك الفترة فبالإمكان القول بان ازدهار دولة الحيرة واتساع نفوذها، الذي صاحبه ازدياد تدفق الهجرات العربية على أرياف العراق اخذ يرجح كفة الميزان السكاني في صالح العرب، وهذا بدوره غير معالم ذلك الازدواج اللغوي لصالح اللغة العربية.

وبمرور الزمن أخذت تلك اللهجات الآرامية تذوب في اللغة العربية وتختفي من الاستعمال اليومي. وفي تلك الأثناء كانت اللغة العربية تستوعب وتهضم كل ما كان صالحاً وقادراً على البقاء من تلك اللهجات الآرامية التي هي بدورها كانت قد استوعبت كل ما كان صالحاً وقادراً على البقاء من اللغات القديمة التي ذابت فيها. وخلال تلك التحولات الحضارية كانت اللغة العربية تنمو وتزداد ثراءً.

وقد ضمت دولة الحيرة ذلك المجتمع الذي شاهد ولادة ونمو تلك الظاهرة الحضارية، التي تمثلت في اندماج لغتين تجمعان بينهما خلاصة كل ما ظل حياً وصالحاً للبقاء من تراث لغوي عريق يمثل مجموع اللغات التي تنتمي في أصولها إلى لغات شبه الجزيرة العربية. وبعد مرور أربعة قرون من التطور الحضاري الذي شاهده مجتمع الحيرة، بطل بالتدريج استعمال اللغة الآرامية بمختلف لهجاتها واختفت من الحياة اليومية واخذ الناس يتخاطبون باللغة العربية وحدها. وهذا ما شاهده عرب الفتح الإسلامي في الحيرة. إذ يروى عن خالد بن الوليد حينما جاءه رؤساء أهل الحيرة للتفاوض في أمر الصلح قال:

ويحكم ما انتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب... أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل...؟ فأجابه عدى اللخمي بل عرب عاربة وأخرى متعربة...، فقال: لو كنتم كما تقولون لم تعادوننا وتكرهون امرنا..؟، فقال له عدي: ليدلك على ما نقوله انه ليس لنا لسان إلا بالعربية...، فأجاب خالد بن الوليد: ... صدقت... الخ (١).

(١) المحامي عباس العزاوي - عشائر العراق، ج١ص٦٣

سكان العراق منذ الفتح الإسلامي

من أجل أن نكون رؤية موضوعية عن التركيب الإثني لسكان العراق منذ الفتح الإسلامي لابد لنا أن نأخذ بنظر الاعتبار التحولات المناخية التي طرأت على الكرة الأرضية، والتي دفعت الجماعات البشرية التي كانت تتجول في شبه الجزيرة العربية، للهجرة شمالا نحو بلاد الرافدين. إن جميع المعلومات التاريخية التي قدمتها لنا مختلف البحوث تؤكد على أن الأقوام الذين هاجروا إلى وادي الرافدين منذ نهاية العصور الجليدية وبداية الفترة الدافئة، تعود أصولهم إلى شبه الجزيرة العربية التي انحسرت عنها الأمطار وتعرضت لظاهرة التصحر.

وان أولئك الناس، بعد انعزالهم عن البر الأفريقي والآسيوي، تحركوا نحو الشمال، واستقروا في وادي الرافدين وسادوا فيه كسكان. وشيدوا في ذلك الوادي الرسوبي الخصيب الحضارات الزراعية التي أدت إلى قيام القرى والمدن وبالتالي مؤسسة الدولة.

إن جميع الدراسات حول انتشار الإنسان على الكرة الأرضية تؤكد بأن العوامل الطبيعية والمناخية هي التي ترسم نسق الهجرات البشرية وليس الأشكال السياسية للدول والإمبراطوريات. وقد برزت تلك الحقائق التاريخية أيام الحكم الفارسي الإخميني لبلاد الرافدين (٥٣٩ ق.م - ٣٣١ ق.م). فبالرغم من استيلاء الجيوش الإخمينية على بلاد الرافدين، وإلحاقها بلاد آشور وبابل بالإمبراطورية الإخمينية، فإن ذلك الإلحاق السياسي لم يغير جوهر وطبيعة الهجرات البشرية نحو بلاد الرافدين. إذ شاهدت أيام الحكم الفارسي الإخميني، اتساع هجرات الأقوام الآرامية من شبه الجزيرة إلى بلاد الرافدين، وإلى بقية أقاليم الهلال الخصيب حتى إن الآراميين سادوا كسكان وفرضوا سيادة لغتهم في جميع تلك الأقاليم وبذلك أصبحت اللغة الآرامية لغة

التخاطب في الحياة اليومية، وفي المبادلات التجارية، وفي كتابة العقود، مما اضطر الملك دارا الأول (٥٢٠ ق.م - ٤٨٦ م) إلى اعتماد اللغة الآرامية كلغة رسمية في الإمبراطورية الإخمينية، إلى جانب اللغة الفارسية.

وحينما ندرس الوضع السكاني في العراق أيام الحكم الفارسي الساساني الذي سبق الفتح الإسلامي نجد أنه بالرغم من إلحاق وادي الرافدين بالإمبراطورية الساسانية فان الوضع السكاني ظل خاضعا لعوامل البيئة والمناخ التي حاقت بالمنطقة عبر العصور، والتي ظلت تدفع الجماعات البشرية للهجرة من شبه الجزيرة العربية إلى وادي الرافدين. وان تلك الهجرات البشرية التي استمرت أثناء الحكم الساساني هي التي قررت طبيعة التحولات السكانية واللغوية في بلاد ما بين النهرين والتي كانت تشبه في كثير من ملامحها، التحولات السكانية واللغوية التي أحدثها الآراميون أيام الإمبراطورية الإخمينية. أما في أيام الإمبراطورية الساسانية فإن موجات الهجرة من شبه الجزيرة إلى بلاد ما بين النهرين، حملت معها في هذه المرة، العرب الذين توالت هجراتهم، فكان من أهم نتائج تلك الهجرات ظهور الحيرة على شواطئ الفرات الغربية في أقرب موقع لبابل في قلب سواد العراق.

توغل العرب في أرياف السواد، بسبب اتساع دورهم في عمليات النقل المحلي، بعد أن أثبت الجمل صلاحيته بل تفوقه في العديد من الحالات على باقي وسائط النقل المستعملة في وادي الرافدين. مما أوجد للعرب دورا اقتصاديا في عمليات الإنتاج وهيأ لهم الظروف اللازمة للاندماج بالنسيج الاقتصادي المحلي.

لقد ساعد نمو دور العرب الاقتصادي في اختلاطهم سكانيا ولغويا بسكان بلاد الرافدين الذين سبقوهم في الهجرة ، والذين كانوا ينطقون بلغات ولهجات تعود في أصولها إلى لغات أقوام الجزيرة العربية. وإن ذلك التقارب اللغوي، سهل مع اتساع الهجرات العربية، عمليه انصهار تلك اللهجات واللغات في اللغة

العربية. وقد أنتجت تلك الظاهرة مجتمع عرب الحيرة الذي كان بمثابة نقطة الانطلاق لانتشار وسيادة اللغة العربية في وادي الرافدين.

إن هذه الحقائق التاريخية تبين لنا أن نسق الهجرات البشرية إلى بلاد الرافدين لم يتغير بعد سقوط بابل، بل ظل خاضعا لعوامل طبيعية مناخية حاقت بالمنطقة منذ نهاية العصور الجليدية والتي كان عاملها الرئيسي تفاقم ظاهرة الجفاف والتصحر في شبه الجزيرة العربية. أما وجود الجماعات الإثنية الأخرى والقادمة من خارج إطار شبه الجزيرة العربية، فقد خضع لعوامل مختلفة كان أهمها العوامل السياسية والتجارية . ولذا فان حجم ذلك الوجود وطبيعته ارتبط بتلك العوامل السياسية والتجارية وانتهى بزوالها. كما حدث مثلاً للجماعات الإغريقية التي تعاظم وجودها أيام الحكم السلوقي لبلاد الرافدين ثم انحسر بزوال ذلك الحكم.

لقد خضع الوجود الإثني الفارسي في وادي الرافدين لظروف مشابهة. فبالرغم من نمو ذلك الوجود فانه لم يخرج عن كونه ظاهرة ارتبطت بوجود الحكم الساساني. وان المعلومات التاريخية تشير إلى أن رجال الإقطاع الساساني بما فيهم العائلة الملكية اعتمدوا بصورة رئيسية على سكان السواد في العمل الزراعي وما يرتبط به من نشاطات. ولا توجد أية مؤشرات بحدوث هجرات سكانية من الشرق إلى وادي الرافدين للاستقرار والعمل الزراعي في تلك العهود. وإن سلسلة جبال زاجروس كانت دائماً الحد الفاصل بين سكان السهل الرسوبي في وادي الرافدين وسكان الهضبة الإيرانية.

وعلى الأرجح فان الوجود الفارسي كان بصورة عامة مقتصرا على شرائح ومجموعات ارتبط وجودها بمؤسسة الإقطاع الساساني كالإداريين ورجال المؤسسة العسكرية يضاف إليهم التجار والحرفيون وغيرهم. وقد حدد حجم تلك الشرائح الظروف الاقتصادية للبلاد في تلك الأيام.

من المهم الإشارة هنا إلى أن سقوط بابل افقد بلاد الرافدين مركزها التجاري العالمي. إذ تحولت خطوط التجارة العالمية التي كانت تمر ببابل إلى شرقي

نهر دجلة بمحاذاة جبال زاجروس. وقد أدى خروج خطوط التجارة العالمية من بلاد ما بين النهرين، إلى اندثار المراكز الحضرية، بما فيها مدينة بابل بسبب خروج التجار والعاملين في مختلف النشاطات التجارية وتحولهم إلى المراكز التجارية الجديدة. أما وادي الرافدين فقد تحول إلى ريف زراعي يكاد يخلو من المدن والمراكز الحضرية الكبيرة. غير أن سكان تلك الأرياف فقد ظلوا بأغلبيتهم الساحقة ينتمون اثنيا إلى أقوام شبه الجزيرة العربية بما فيهم العرب، الذين ظلت هجراتهم تتوالى وتتسع طيلة أيام الحكم الساساني. ولذا فإن لغات ولهجات أقوام شبه الجزيرة العربية ظلت هي السائدة في طول وعرض البلاد، وإن التحولات اللغوية التي حدثت أثناء تلك الحقبة التاريخية مثلت بمجملها انتشار اللغة العربية.

إن المعلومات التاريخية تشير إلى أن جيوش الفتح الإسلامي التي زحفت من الحيرة نحو بابل ومنها إلى المدائن والتي توغلت في قلب أرياف وادي الرافدين شاهدت أن غالبية السكان في القرى والأرياف ينطقون إما باللغة العربية أو بلهجات نبطية آرامية قريبة من اللغة العربية، بل في أغلب الحالات كان السكان يفهمون اللغة العربية. فإن صحت تلك المعلومات، فمن الممكن اعتبارها مؤشراً يفيد أن لغات ولهجات سكان أرياف وادي الرافدين كانت تمر في تلك الحقبة التاريخية بمرحلة انتقال وتحول إلى اللغة العربية. وإن جميع الإشارات إلى استعمال لغات أخرى، بما في ذلك اللغة الفارسية، كانت ترد حينما يتعلق الأمر بالتخاطب مع بعض التجار الفرس أو مع الإداريين ورجال الجيش والحكومة. فلم نسمع أن رجال الفتح الإسلامي احتاجوا إلى مترجمين في تعاملهم مع السكان المحليين.

وهذا يفسر لنا سبب سيادة اللغة العربية في وادي الرافدين في فترة زمنية قصيرة نسبياً، لا تكاد تتجاوز الجيل الأول، بعد الفتح الإسلامي للعراق. ومادمنا بصدد مسألة سيادة اللغة العربية في العراق، لا يمكننا أن نقلل من أهمية انتشار الإسلام السريع بين الفلاحين والمزارعين والسكان الفقراء،

الذين حررهم الفتح الإسلامي من عبودية الإقطاع وظلم الحكام، وأعاد إليهم الأرض ليعيشوا فيها أحراراً يزرعونها لأنفسهم ولا يؤخذ منهم إلاّ الضرائب الإسلامية. فلا عجب أن يتوجه بحماس أبناء الأرض المفتوحة في سواد العراق وخاصة الفقراء منهم نحو الإسلام ونحو دراسة علوم القرآن وآداب اللغة العربية، فيظهر منهم جيل من العلماء والأدباء وقادة الفكر الذين أخذوا مواقعهم في حاضرتي الإسلام الكوفة والبصرة وساهموا ليس في نشر الإسلام فحسب بل في عملية سيادة اللغة العربية في وادي الرافدين. وهذا لم يحدث في البلاد الأخرى التي لم تجتمع فيها كل تلك العوامل التي اجتمعت في وادي الرافدين إبان الفتح الإسلامي، ولذا فإن انتشار اللغة العربية وسيادتها في البلاد الأخرى استغرق مدة أطول استمرت في بعض الحالات لأجيال عديدة.

الباب الأول

الخلافة العباسية في العهد السلجوقي
ودولة بني أسد في الحلة

تقديم

حينما اجتاحت جيوش جنكيز خان حدود بلاد الإسلام الشرقية في سنة ٦١٦هـ كانت سلطة الخليفة العباسي الناصر لدين الله لا تتعدى وسط وجنوب العراق وإقليم خوزستان. أما بقية أقاليم العالم الإسلامي فقد كانت تحكم من قبل أمراء وسلاطين مستقلين عن خلافة بغداد ولم تكن علاقتهم بالخلافة العباسية تتعدى المراسيم التقليدية. وكان العراق يعاني في تلك الفترة من سوء الإدارة وفسادها ومن تسلط أمراء عسكر المماليك على مقاليد الأمور في بغداد. وكنتيجة لتلك الأوضاع كانت البلاد تتعرض إلى آفات الفيضانات التي كانت تخرب المدن والقرى، وتتلف المزارع والبساتين، وتنشر الأمراض والمجاعات وتقضي على السكان، وبذلك تحول العراق إلى بلد شبة رعوي خفيف الزراعة قليل السكان. إذ تشير كتابات عدد من المؤرخين الذين عايشوا سقوط الدولة العباسية بأن مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية تحولت في أواخر العهد العباسي إلى صحاري قاحلة خالية من الزرع، أو إلى مستنقعات وأهوار وأراضي تغطيها الأملاح. وحتى في الأراضي المزروعة فإن القوة الإنتاجية كانت منخفضة بسبب التدخل السيئ في شؤون الإدارة الزراعية.

إذ كان الأسلوب الشائع في الإدارة الزراعية آنذاك، نسقاً من الإقطاع كان يعرف بـ "الضمان"[١].كان الخليفة العباسي يقطع بموجبه، مناطق واسعة لأحد أصحاب النفوذ لاستغلالها لأجل معين. وكان غالبية المنتفعين بـ "ضمان" تلك الإقطاعات أمراء العسكر المماليك من الشركس والترك. وكانت مساحات تلك الإقطاعات وما تدره من خيرات، يتناسب في الغالب مع نفوذ ذلك الأمير العسكري.

(١) الدكتور جعفر خصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص ٩٩.

وإلى جانب ذلك كان هناك نسق آخر من الإقطاع يعرف بـ "التولية" إذ كان الخليفة يولي بموجبة أحد الأشخاص إدارة مناطق زراعية واسعة ومدن وانهار، على أن يرسل حصة متفق عليها للدولة. وتذكر لنا الكتابات التي تناولت تلك الفترة أسماء العديد من أمراء العسكر الذين تمكنوا بنفوذهم، من الاستحواذ على مناطق واسعة من أخصب الأراضي الزراعية وذلك تحت اسم "الضمان" أو "التولية". وكان الخليفة الناصر لدين الله الذي بدأت حملة جنكيزخان في عهده، أكثر خلفاء بني العباس المتأخرين إقطاعا للأراضي والمدن. ولكن بالرغم من أن إقطاع تلك المناطق الواسعة كان يصدر باسم الخليفة العباسي فان المعلومات التاريخية تؤكد بأن الخلفاء العباسيين في تلك الفترة لم يكونوا يملكون من الأمر شيئاً، وان السلطة الحقيقية كانت بيد أمراء العسكر من المماليك. وإن حصول أولئك الأمراء وأمثالهم على مثل تلك الإقطاعات باسم الضمان أو التولية، لم يكن يمثل في حقيقة الأمر إرادة الخليفة، بل كان يعكس سلطة المؤسسة العسكرية في تلك المرحلة التاريخية.

لقد استمرت الأوضاع في ظل سلطة عسكر المماليك تنحدر من سيئ إلى أسوأ حتى استيلاء المغول على بغداد وسقوط الدولة العباسية في سنة ٦٥٦هـ. وأثناء تلك الأعوام الطويلة توالى على سدة الخلافة العباسية في بغداد أربعة خلفاء هم:

- الناصر لدين الله: ٥٧٥هـ - ٦٢٢هـ
- الظاهر بأمر الله: ٦٢٢هـ - ٦٢٣هـ
- المستنصر بالله : ٦٢٣هـ - ٦٤٠هـ
- والمستعصم بالله: ٦٤٠هـ - ٦٥٦هـ

ولذا فإن أسماء أولئك الخلفاء ارتبطت بالأحداث التاريخية التي بدأت مع حملة جنكيزخان وانتهت باستيلاء هولاكو على بغداد. وارتبط بأسمائهم كذلك، سوء الإدارة الاقتصادية والتمزق السياسي والاجتماعي، الذي لعب أمراء المماليك الدور الكبير فيه. وبما أن تسلط أمراء المماليك على الخلافة العباسية كان

يمثل وضعاً تاريخياً تكون في فترة ضعف وتفكك الدولة السلجوقية، التي فرضت حكمها على العراق وعلى الخلافة العباسية، منذ أن استولى طغرل بك السلجوقي على بغداد قبل قرنين من سقوط الدولة العباسية. لذا أصبح لزاماً علينا أن نلم ببعض أحداث تلك الحقبة التاريخية، بالرغم من إننا لا نود هنا الدخول في تفاصيل التاريخ العباسي لتلك الفترة لأن ذلك خارج عن نطاق بحثنا، ولكن لابد لنا أن نلم ببعض أحداث التاريخ إلماماً يوصلنا إلى ربط الأحداث بما يتعلق بموضوعنا، فإن الأوضاع التي ارتبطت بالغزو المغولي والتي حاقت بالعالم الإسلامي وبالعراق، كانت في حقيقة الأمر إحدى الفواصل لتاريخ ترتبط أحداثه بالدولة السلجوقية وبتسلط أمراء المماليك على الدولة العباسية.

الفصل الأول

دولة بني أسد

كان العراق في العهد السلجوقي إقليما تابعاً لإمبراطورية واسعة مركزها في إيران، أما السلطة الفعلية في بغداد كانت بيد السلطان، يتولاها بالنيابة عنة الوزير "نظام الملك" أما السلطة العسكرية والأمنية فكانت بيد "الشحنة"، الذي كان يعين من قبل السلطان السلجوقي. ولما كان الشحنة يقيم في بغداد فإننا قد نسمع عن شحنة العراق أو شحنة بغداد. وقد تقضي الضرورة إقامة سلطات عسكرية محلية فنسمع مثلا عن شحنة واسط أو شحنة الحلة.

بصورة عامة لم يكن سلاطين السلاجقة يسمحون لخليفة بغداد أن يمتلك قوة عسكرية كبيرة مستقلة عن سلطتهم. ولذا فإن دور العسكر الخليفي، وكان غالبيتهم من المماليك الترك والشركس، هامشياً في السلطة كدور الخليفة نفسه. وفي الإدارة كان للسلطان عادة نواب ينظمون إدارة الإقطاع الزراعي ويجبون الأموال، ولا يخفى الغرض السياسي من ذلك، إذ كان من مصلحة الحكومة المركزية السلجوقية قيام اكثر من مركز للقوى داخل وخارج بغداد لتسهل السيطرة على البلاد وليضمن السلطان طاعة الخليفة وتبعيته له.

وفي ظل تلك السياسة، كان تنظيم وإدارة الري وتنظيف الأنهار وترميم السدود وبقية الواجبات الزراعية والإدارية تناط عادة بسلطات محلية. ونحن نعلم بأن طبيعة الإدارة الزراعية وتنظيمها في انهار وادي الرافدين التي تعتمد على الزراعة الحوضية كانت دائما تهيئ الظروف لقيام كيانات محلية تضطلع

بمثل تلك المسؤوليات التي كانت تعزز دورها الاقتصادي والسياسي في المنطقة.

وقد شاهدت منطقة الفرات الأوسط من العراق في العهد السلجوقي تحت ظل تلك السياسة والظروف، تطور كيان اقتصادي سياسي قدر له أن يلعب دوراً مهماً في أحداث تلك الحقبة من تاريخ العراق. وكان محور ذلك الكيان قبيلة بني أسد التي حلت على الفرع الشرقي من نهر الفرات، فعرفت تلك المنطقة بـ "حلة بني أسد" أو "حلة بني مزيد" أمراء تلك القبيلة العربية. وتعد قبيلة بني أسد من أكبر قبائل العرب، التي انتشرت بعد الفتوحات الإسلامية في وسط العراق على الجانب الغربي من نهر دجلة.

وفي القرن الخامس الهجري جرت تحولات طبيعية واجتماعية في تلك المنطقة، كما كان يحدث غالباً للمجتمعات الزراعية في وادي الرافدين، وذلك بسبب ظاهرة تحول مجاري الأنهار. وقد اقترنت تلك التحولات بازدياد المياه وازدهار الزراعة في حوض الفرع الشرقي لنهر الفرات، وتحول تلك القبيلة العربية إلى الاستقرار الزراعي هناك كنتيجة لذلك. وفي النصف الثاني من ذلك القرن برزت تلك القبيلة كقوة اقتصادية وإدارية فاعلة مكنت أمرائها بني مزيد من توحيد سكان تلك المناطق وقيادتهم على طريق إقامة كيان له مواصفات الدولة.

لقد بدأت إرهاصات تلك الظاهرة في عهد السلطان السلجوقي ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان. ففي عهده بلغت سلطة بني أسد في الفرات الأوسط شأواً مهماً في أيام زعامة بهاء الدولة منصور بن مزيد الأسدي الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في ديوان السلطان السلجوقي، وبنفوذ مماثل في ديوان الخلافة في بغداد. وحينما توفي بهاء الدولة في سنة ٤٧٩هـ. كتب ابن الأثير:

في هذه السنة في ربيع الأول توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور ابن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي صاحب الحلة والنيل [1] وغيرهما مما يجاورهما ولما سمع نظام الملك خبر وفاته قال مات أجل صاحب عمامة. وكان فاضلاً قرأ على علي بن برهان... ولما توفي أرسل الخليفة إلى ولده سيف الدولة صدقة نقيب العلويين أبى الغنائم يعزيه وسار سيف الدولة إلى السلطان ملكشاه فخلع عليه وولاه ما كان لأبيه[2].

سيف الدولة والحلة السيفية

تولى سيف الدولة صدقة زعامة بني أسد بعد وفاة والده بهاء الدولة. وقد دامت زعامته ٢١ عاماً بلغت أثناءها إمارة بني أسد أ شأواً مهما من القوة الاقتصادية والعسكرية والنفوذ السياسي. وفي السنة الأولى التي تولى فيها سيف الدولة صدقة زعامة بني أسد، جاء إلى العراق السلطان السلجوقي ملكشاه بعد أن فتح الجزيرة وحلب وغيرها من بلاد الشام ودخل بغداد لأول مرة. ومما ذكر أن السلطان خرج للصيد، فمر بالنجف وكربلاء حيث زار مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في النجف ومشهد الحسين بن علي في كربلاء، وبينما كان في تلك المناطق من الفرات الأوسط حل السلطان ملكشاه ضيفاً على سيف الدولة صدقة، فهيأ سيف الدولة سماطين للطعام أحدهما لعامة الناس اشتمل على ألف رأس من الغنم ومائة جمل وغيرها من أصناف الطيور، ثم أردفه من السكر شيئاً كثيراً فمر به السلطان وتناول منه شيئاً من الطعام وأشار للناس فتقدموا والتهموه عن آخره. ثم انتقل السلطان إلى سرادق عظيم من الحرير كان فيه خمسمائة قطعة من الفضة وألوان من تماثيل الند والمسك والعنبر هيأ فيه سماطاً خاصاً لطعام السلطان. بعد ذلك

---

(١) النيل - بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير. معجم البلدان لياقوت الحموي

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ.

حمل سيف الدولة صدقة إلى السلطان عشرين ألف دينار وقدم له ذلك السرادق الحرير بما فيه[1].

لم تكد تمر فترة وجيزة حتى أصبح سيف الدولة القوة الحقيقية في العراق، وأصبحت إمارته في الفرات الأوسط، قاعدة الاستقرار في البلاد. ولما ازدادت الفتن بين سكان محلات بغداد في سنة ٤٨٢هـ وبلغت حداً عجز فيه شحنة بغداد خمارتكين عن المحافظة على الأمن، استعان الخليفة المقتدي بأمر الله بسيف الدولة صدقة، الذي أرسل من الحلة عسكراً أعادوا الأمن إلى بغداد. قال بن الأثير:

وجرى من النهب والقتل والفساد أمور عظيمة فأرسل الخليفة إلى سيف الدولة صدقة بن مزيد فأرسل عسكراً إلى بغداد، فطلبوا المفسدين والعيارين فهربوا منهم فهدمت دورهم وقتل منهم ونفي وسكنت الفتنة وأمن الناس [2].

بعد وفاة السلطان ملكشاه السلجوقي دخلت دولة السلاجقة مرحلة جديدة من تاريخها بدأت فيها الانقسامات والصراعات الداخلية التي أدت إلى تفكك إمبراطوريتهم العظيمة والتعجيل بانقراضها. وفي خضم تلك الصراعات، سلك سيف الدولة صدقة سياسة ساعدته في تدعيم أركان سلطته وزيادة نفوذه في العراق. فبعد وفاة ملكشاه التزم سيف الدولة صدقة جانب السلطان بركيارق ابن ملكشاه وظل كذلك حتى سنة ٤٩٤هـ. كتب ابن الأثير:

في هذه السنة خرج الأمير صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد صاحب الحلة عن طاعة السلطان بركيارق وقطع خطبته في بلاده وخطب فيها للسلطان محمد. وسبب ذلك أن الوزير الأغر أبا المحاسن الدهستاني وزير السلطان بركيارق أرسل إلى صدقة يقول له قد تخاف عندك لخزانة السلطان ألف ألف دينار وكذا ديناراً لسنين كثيرة فإن أرسلتها وإلا سيرنا العساكر إلى بلادك وأخذناها منك. فلما سمع هذه الرسالة قطع الخطبة وخطب لمحمد. فلما وصل السلطان بركيارق إلى بغداد على هذه الحالة أرسل إليه مرة بعد مرة يدعوه إلى الحضور عنده فلم يجب إلى ذلك. فأرسل إليه الأمير أياز ليضمن له كل ما يريده فقال:

---

(١)ن.م. ج٨ص١٤٥

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٨ص١٥١

لا أحضر ولا أطيع السلطان إلا إذا سلم وزيره أبا المحاسن، وإن لم يفعل فلا يتصور مني الحضور عنده أبداً ويكون في ذلك ما يكون. فلم يجب إلى ذلك فتم على مقاطعته...(١).

الحلة السيفية

كانت مقاطعة سيف الدولة للسلطان تعني في واقع الحال استقلاله بمنطقة الفرات الأوسط وإقامة دولة محلية عربية في العراق. إذ أرسل سيف الدولة بعد ذلك جيشاً إلى الكوفة وطرد منها النائب بها عن السلطان السلجوقي وضمها إلى إمارته المستقلة.

وفي سنة ٤٩٥هـ خطا سيف الدولة خطوة أخرى على طريق الاستقلال في منطقة الفرات الأوسط فشيد على شاطئ الفرات في قلب حلة بني أسد مدينة سماها "الحلة" اتخذها عاصمة لدولته الفتية، ولذا عرفت باسمه فكان يقال لها الحلة السيفية. كتب ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:

وفيها بنى سيف الدولة صدقة بن مزيد الحلة بالجامعين وسكنها وإنما كان يسكن هو وآباؤه وقبله في البيوت العربية(٢).

واستمرت قوة سيف الدولة تنمو حتى أصبح أهل العراق يلتجئون إليه، ففي سنة ٤٩٧هـ داهم التركمان بقيادة بلك بن بهرام بن أرتق مدينة عانة والحديثة واستولوا عليها، فالتجأ مشايخ المنطقة إلى سيف الدولة صدقة، فسار معهم إلى عانة فهرب عنها التركمان وعادت عانة إلى أهلها. ومن ثم رجع سيف الدولة إلى حلته. وفي تلك السنة غضب سيف الدولة على شحنة بغداد أيلغازي بن أرتق فسار إلى بغداد وعسكر في جانب الكرخ. فلما سمع الشحنة بقدوم سيف الدولة جمع عسكر التركمان وهرب إلى بعقوبة.

وفي شهر شوال من ذلك العام انحدر سيف الدولة إلى واسط التي تقع على نهر دجلة وطرد منها عسكر التركمان، فسار جماعة منهم إلى بغداد وجماعة

---

(١)ن.م. ج٨ص١٩٨

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٨ص٢١٤

إلى السلطان السلجوقي بركيارق، ثم ضمن واسط إلى صاحب البطيحة وعاد إلى الحلة.

في العام التالي توفي السلطان بركيارق بن ملكشاه فقوى جانب السلطان محمد بن ملكشاه حليف سيف الدولة. ولما جاء السلطان محمد إلى بغداد في سنة ٤٩٨هـ استقبله سيف الدولة صدقة بمظاهرة عسكرية كبيرة حشد فيها خمسة عشر ألف فارس وعشرة آلاف راجل. وبعد أن دانت الأمور إلى السلطان محمد بن ملكشاه خاطب في سنة ٤٩٩هـ سيف الدولة صدقة في أمر البصرة التي كان إسماعيل بن أرسلانجق قد استولى عليها واستقل بها مدة عشر سنوات، فسار إليها سيف الدولة صدقة بعساكره وطرد منها إسماعيل بن أرسلانجق وبذلك دخلت البصرة تحت سلطة سيف الدولة. وفي السنة الأولى للقرن السادس الهجري استولى سيف الدولة صدقة على قلعة تكريت، التي تقع على الأطراف الشمالية لوادي الرافدين، وهكذا خضعت المناطق الزراعية في الوادي الرسوبي، من أقصى شماله حتى أقصى جنوبه لسلطة سيف الدولة صدقة بن مزيد الأسدي صاحب الحلة. وكانت تلك تجربة تاريخية جديدة يخوض غمارها عرب العراق في أيام السلاجقة.

نهاية سيف الدولة الأسدي

غير أن تلك الدولة التي ولدت في قلب مجتمع عرب العراق الزراعي، أخذت أبعادا سياسية وعسكرية أثارت مخاوف السلطان محمد السلجوقي، الذي أصبح يخشى قيام تعاون أو تحالف بين سيف الدولة والخليفة العباسي، مما قد تكون له عواقب وخيمة على الدولة السلجوقية. وتلك إمكانية كانت واردة في ظل ظروف الضعف التي كانت تعيشها دولة السلاجقة. لذا قرر السلطان السلجوقي الانقلاب على حليف الأمس والتعجيل في القضاء عليه.

في شتاء سنة ٥٠١هـ جهز السلطان محمد جيوشه وتحرك نحو العراق. وحينما علم سيف الدولة صدقة بنوايا السلطان اخذ يستعد للحرب، فاجتمع إليه

عشرون ألف فارس وثلاثون ألف راجل. ويروى بأن الخليفة المستظهر بالله اهتم بالأمر فأرسل إلى الحلة، نقيب النقباء علي بن طراد الزينبي ليحذر سيف الدولة صدقة ويعرض عليه استعداد الخليفة للتوسط بينه وبين السلطان. أما السلطان فقد وصل بغداد متظاهراً بأنه ينوي الخروج لحرب الإفرنج، وأرسل إلى سيف الدولة صدقة أن يبعث إليه بالمال والعساكر والحضور إلى بغداد. ولما كان سيف الدولة على علم بنوايا السلطان، امتنع عن الاجتماع به، وطلب منه أن يرحل عن بغداد ويواصل السير إلى ساحات الجهاد. وقال إذا رحل السلطان عن بغداد أمددته بالمال والرجال وما يحتاج إليه في الجهاد. وأما الآن وهو ببغداد وعسكره بنهر الملك فما عندي مال ولا غيره[١].

وبعد أن اكتملت عدة السلطان الذي كانت الجيوش تتقاطر عليه من مختلف أنحاء الإمبراطورية، أرسل إلى واسط الأمير محمد بن بوقا التركماني فأخرج عنها نائب سيف الدولة وفرق رجاله. وأرسل خيله إلى منطقة قوسان وكانت من أعمال صدقة فنهبها. ثم أقطع السلطان واسط لقسيم الدولة البرسقي. وفي تلك الأثناء كان الخليفة المستظهر بالله منشغلا في بذل الجهود من أجل إيجاد حل للخروج من تلك الأزمة التي أخذت تنذر بعواقب وخيمة يصعب التكهن بنتائجها، فعاد مرة أخرى وأرسل نقيب النقباء إلى الحلة. ولما كان سيف الدولة لا يمانع بالصلح جهز ابنه دبيس ليسير إلى بغداد مع نقيب الأشراف. ولكن ما حدث في تلك الأثناء بين عساكر السلطان ورجال بني أسد يشوبه بعض الغموض، إذ يقال بأن جماعة من العسكر السلجوقي عبروا أحد الأنهار وباشروا بالقتال، فلما رأى سيف الدولة ذلك امتنع من إرسال ولده دبيس إلى السلطان وتعطلت بذلك مساعي السلام. ودارت رحى الحرب بين العرب والسلاجقة، واشتد القتال فحمل سيف الدولة على الأتراك، وفي أثناء حملته أصيب بجرح في وجهه ثم أصابه سهم في ظهره فسقط على الأرض بعد أن

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٨ص٢٤٦

جذبه أحد الأتراك عن فرسه، وكان ينادي أنا صدقة أنا ملك العرب، فتقدم عليه غلام تركي وقتله.

كتب ابن الأثير في أحداث ٥٠١هـ فقال:

في هذه السنة في رجب قتل سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدي أمير العرب، وهو الذي بنى الحلة السيفية بالعراق وكان قد عظم شأنه وعلا قدره واتسع جاهه واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم. وكان كثير العناية بأمور السلطان محمد والتقوية ليده والشد منه على أخيه بركيارق حتى انه جاهر بركيارق بالعداوة ولم يبرح على مصافاة السلطان محمد. وزاده محمد إقطاعا من جملته مدينة واسط وأذن له في أخذ البصرة... وقال: إن الذي أفسد ما بينهما العميد أبو جعفر محمد بن الحسين البلخي وقال في جملة ما قاله عنه: إن صدقة قد عظم أمره وزاد حاله وكثر إدلاله ويبسط في الدولة وحمايته كل من يفر إليه من عند السلطان وهذا لا تتحمله الملوك... .

يبدو أن العميد أبو جعفر قال ذلك ليبرر موقف العداء والانقلاب على سيف الدولة فاتهمه باعتناق مذهب الباطنية (أي الشيعة الإسماعيلية) ويرد ابن الأثير على تهمة العميد أبو جعفر فيقول: وكذب وإنما كان مذهبه (أي سيف الدولة) التشيع لا غير.... ثم استطرد في ذكر سجايا سيف الدولة وصفاته فقال:

وكان عادلاً والرعايا معه في أمن ودعة ولم يصادر أحدا من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة. ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له. لقد كان من محاسن الدنيا... (١).

وبعد انتهاء الحرب ومقتل سيف الدولة صدقة، بعث السلطان أماناً لزوجته التي كانت قد التجأت إلى البطيحة، وحينما قدمت إلى بغداد تلقاها السلطان بكل إجلال واحترام واعتذر لها عن مقتل زوجها سيف الدولة واستخلف ابنها دبيس ابن سيف الدولة لإمارة بني أسد. ثم خلع على سعيد بن حميد قائد جيش سيف الدولة، وولاّه الحلة السيفية. وفي السنة التالية جاء منصور ابن سيف الدولة إلى بغداد فأكرمه السلطان.

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٨ص٢٤٥ و ص٢٤٩

دبيس بن سيف الدولة الأسدي

في سنة ٥١١هـ توفي السلطان محمد بن ملكشاه فخلفه ولده السلطان محمود وكان يدير أمور دولته الوزير أبو منصور الذي أرسل إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب للسلطان محمود في بغداد. وفي تلك الأثناء كان الأمير دبيس بن صدقة يقيم مع السلطان محمد منذ مقتل والده سيف الدولة. فانتهز تلك الفرصة وطلب من السلطان الجديد أن يعود إلى بلده الحلة.

وحينما عاد دبيس بن صدقة التفت حوله جموع كبيرة من العرب والأكراد وغيرهم(١)، فأخذت إمارة بني أسد بقيادة دبيس بن صدقة تستعيد قوتها ودورها السياسي والعسكري في العراق، بينما كانت دولة السلاجقة تسير حثيثاً نحو نهايتها. وفي سنة ٥١٢هـ توفي الخليفة العباسي المستظهر بالله وبويع لولده المسترشد. وبينما كان الناس منشغلون بأمر البيعة ترك بغداد الأمير أبو الحسن ابن المستظهر وسار إلى الحلة فأكرمه دبيس وعلم منه بوفاة المستظهر بالله. ولما علم الخليفة الجديد بالتجاء الأمير أبو الحسن عند أمير بني أسد خاف من أمر يحدث من ناحية أخيه، فبعث إلى الحلة نقيب النقباء الشريف علي بن طراد الزينبي العباسي يحمل خاتم الخليفة وأمانه وأمره أن يأخذ البيعة من دبيس بن سيف الدولة ويعيد الأمير أبا الحسن. أما دبيس فلم يمانع في أمر البيعة، وبايع الخليفة فعلاً ليثبت موقفه الإيجابي من الخلافة. أما في أمر تسليم أخي الخليفة فقد قال دبيس: لا والله لا أسلمه إليكم وهو جاري ونزيلي ولو قتلت دونه، فرجع نقيب النقباء إلى بغداد وحده لا يحمل معه سوى بيعة دبيس للخليفة الجديد. وهذا ما كان يحتاج إليه الخليفة لأن دبيس كان يتمتع بنفوذ كبير ويمسك بأكبر قوة عسكرية في العراق.

في سنة ٥١٣هـ استوزر الخليفة المسترشد أبا علي الحسن ابن علي بن صدقة الأسدي ولقبه بجلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٨ص٢٨٠

أمير المؤمنين. ويبدو أن مراجعاً سلجوقية عليا أخذت تتخوف من تقرب الخليفة المسترشد من أمراء بني أسد، فعملت على إبعاد الوزير الأسدي من الديوان إذ يذكر ابن الطقطقى، إن المسترشد قبض مرة على جلال الدين الأسدي وعزله عن الوزارة. ولم يكن ذلك عن إرادة من المسترشد وإنما دعته الضرورة إلى القبض عليه لان وزير السلطان كان يتعصب عليه. ثم بعد ذلك بمدة زال المانع فأعاده المسترشد إلى وزارته وخلع عليه خلع الوزارة وتقدم إلى أرباب الدولة بالسعي بين يديه إلى الديوان. وهو أول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه رجالة[1].

وقد وصف ابن الطقطقى الوزير الأسدي بقوله: كان فاضلاً نحريراً عالماً بقوانين الرياسة خبيراً... وكانت له معرفة بالحساب وأعمال السواد... .

ويروى بأن الوزير الأسدي كان يسند الخليفة العباسي المسترشد بكل ما أوتي به من قوة ونفوذ، إذ يقول ابن الطقطقى أنه لما عزم السلطان سنجر على الوصول إلى بغداد وتوعد الخليفة كتب إليه الوزير الأسدي: والله لإن تحركت لأقطعن جميع ما ورائك عنك وأقطعك عنه، ولإن سرت فرسخاً لأسيرن إليك فرسخين. وفي سنة ٥٢٢هـ توفي الوزير جلال الدين أبو علي بن صدقة الأسدي.

نهاية المسترشد ودبيس الأسدي

مع نهاية الثلث الأول للقرن السادس الهجري دخل العراق منعطفاً جديداً من تاريخه، ففي سنة ٥٢٩هـ وقعت الحرب بين السلطان مسعود وعدد من أمراء السلاجقة الذين تجمعوا في بغداد بعد وفاة السلطان طغرل وسيطرة السلطان مسعود على همدان.

---

(١) محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقى - الفخري في الآداب السلطانية ص٣٠٤

ويبدو أن أولئك الأمراء حملوا الخليفة المسترشد على قطع الخطبة للسلطان مسعود والخروج لقتاله. غير أن الحرب انتهت بهزيمة أولئك الأمراء وأسر الخليفة المسترشد. فسار السلطان مسعود إلى مراغة والخليفة الأسير معه وهناك قتل الخليفة المسترشد في ظروف غامضة. إذ قيل بأن دخل عليه في خيمته جماعة من الإسماعيلية فقتلوه ومثلوا به[١]. وقيل أيضا بأن السلطان هو الذي بعث تلك الجماعة لقتل الخليفة لأنه خافه إذ قويت نفسه على جمع الجيوش والخروج ضده. وبعد أن قتله السلطان بتلك الصورة أخرج جماعة من أهل الجرائم فقتلهم وأوهم الناس بأنه قتل قتلة الخليفة ثم أطلق سراح القتلة الحقيقيين سراً[٢]. وبعد وصول الخبر بقتل الخليفة المسترشد، بويع في بغداد لولده الراشد بالله.وكان ذلك في سنة ٥٢٩هـ.

وفي تلك الأثناء كان دبيس بن صدقة مع السلطان مسعود بظاهر مدينة خوي. وبعد أن قتل السلطان مسعود الخليفة المسترشد، بعث إلى سرادق دبيس بن صدقة بغلام أرمني وأمره بقتله. وحينما وصلت أخبار مقتل دبيس بن صدقة، ثار الفرات الأوسط واجتمع الرجال بالحلة والتفوا حول ابنه صدقة ابن دبيس، وكثرت جموعه حتى أن عسكر السلطان عجز عن الاستيلاء على الحلة. واستمرت حالة الثورة والغليان إلى حين قدوم السلطان مسعود إلى بغداد في سنة ٥٣١هـ. قال ابن الطقطقى:

... وكان دبيس بن صدقة أحد أجواد الدنيا. كان صاحب الدار والجار والحمى والذمار، وكانت أيامه أعياداً. وكانت الحلة في زمانه محط الرحال وملجأ بني الآمال ومأوى الطريد ومعتصم الخائف الشريد[٣].

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٨ص٣٤٨

(٢)محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقى - الفخري في الاداب السلطانية ص٣٠٣

(٣)ن.م.ص٣٠٢

الخليفة الراشد والسلطان مسعود

زاد عجز السلطان مسعود عن قمع ثورة الفرات الأوسط، من أطماع منافسيه في العراق. فسار الملك داود السلجوقي في عسكره من أذربيجان ودخل بغداد ونزل بدار السلطان مسعود. وتحرك من الموصل نحو بغداد أتابك عماد الدين زنكي، وجاء كذلك برتقش صاحب قزوين والبقش صاحب إصفهان. ومن الحلة زحف صدقة بن دبيس بعسكره ونزل في الجانب الغربي من بغداد. وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب لابن أخيه الملك داود، وجرت الأيمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكي[1]. ولكن عندما جاءت الأخبار بتوجه السلطان مسعود نحو العراق انفرط عقد المتحالفين وحدثت نزاعات في بغداد اختل بسببها الأمن. ومن ثم عاد الملك داود إلى أذربيجان، وتفرقت جيوش باقي الأمراء. أما عماد الدين زنكي فقد تحول إلى الجانب الغربي من بغداد ليعود إلى الموصل، وحينما رأى الخليفة ذلك، عبر هو الآخر إلى عماد الدين زنكي وسار معه نحو الموصل.

عزل الراشد وخلافة المقتفي

وبعد أن دخل السلطان مسعود بغداد جمع القضاة والفقهاء وحصل منهم على فتوى تقضي بخلع الخليفة الراشد بن المسترشد ثم أحضر عمه الأمير أبو عبد الله بن المستظهر وعقد له البيعة ولقبه المقتفي لأمر الله. وفي سنة ٥٣١هـ بدأ تحرك جديد ضد السلطان مسعود، إذ تحالف الأمير منكبرس حاكم فارس ونائبه بخوزستان الأمير بوزابه وعبد الرحمن طغايريك والملك داود واتفقت كلمتهم على القضاء على السلطان مسعود. وطلب رؤساء ذلك الحلف من الخليفة المخلوع الراشد الالتحاق بهم على أن يعيدوه إلى سدة الخلافة فاستجاب لهم وسار من الموصل نحو أذربيجان.

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٨ص٣٥٢

رأى السلطان مسعود إن ليس بإمكانه الخروج لحرب أعدائه في إيران وترك العراق على الحالة التي كان عليها، فقرر أن يرتب أموره في العراق أولا، فتصالح السلطان مع الأمير صدقة بن دبيس الأسدي وزوجه ابنته[1]. وبتلك المصاهرة كسب السلطان إلى جانبه أهم قوة عسكرية وسياسية داخل العراق. ثم زوج السلطان أخته للخليفة الجديد.

السلطان وصدقة بن دبيس

وبعد أن رتب السلطان أموره السياسية في العراق خرج على رأس جيشه وسار نحو أذربيجان وفي هذه المرة خرج معه صهره الأمير صدقة بن دبيس الأسدي على رأس عسكره العراقي والتقت الجيوش في موضع يدعى "بتجن كشت" وهناك دارت رحى الحرب. وفي الجولة الأولى انهزمت تلك الجيوش أمام جيش السلطان مسعود ووقع في الأسر الأمير منكبرس ولما أحضر بين يدي السلطان مسعود أمر بقتله، وبعد ذلك انشغل عسكر السلطان مسعود في أعمال النهب، وتفرق في ملاحقة المنهزمين. ويروى بأن الأمير بوزابه وعبد الرحمن طغايريك كانا يراقبان سير المعركة من مرتفع، فشاهدا تفرق عسكر السلطان مسعود، فاندفعا بعساكرهم في هجوم مباغت أنزل هزيمة منكرة بعسكر السلطان مسعود. وفي تلك الأثناء وقع في أسرهم الأمير صدقة بن دبيس وجماعة من أمراء السلاجقة. ولما علم الأمير بوزابه بما حل بالأمير منكبرس بين يدي السلطان أمر فقتل صدقة بن دبيس بن مزيد الأسدي صبراً مع باقي الأسرى.

و بعد تلك المعركة تفرق شمل المتحالفين مرة أخرى، إذ سارع بوزابه بالعودة ليضع يده على إقليم فارس ويضمه إلى إقليم خوزستان. أما الملك داود فقد عاد إلى بلاده بعد أن فشل في دخول العراق، وعاد كذلك خوارزم

(١)ن.م. ج٨ص٣٥٦

شاه، وبقي الخليفة المخلوع الراشد وحيداً، فتوجه إلى إصفهان حيث قتل على يد نفر من الذين كانوا في خدمته.

بعد مقتل الأمير صدقة بن دبيس أقر السلطان مسعود إمارة بني أسد على أخيه محمد بن دبيس الأسدي. وفي سنة ٥٣٢هـ تزوج السلطان مسعود ابنة دبيس بن سيف الدولة ليدعم مركزه في العراق. ولكن السلاجقة ظلوا يتلقون ضربات متلاحقة كانت تزيد من ضعفهم وتسرع في انهيار سلطانهم. ففي سنة ٥٣٦هـ انهزمت في الشرق جيوش السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي أمام قبائل الخطا الذين استولوا على بلاد ما وراء النهر. وهكذا خرجت بلاد ما وراء النهر من يد المسلمين. وبعد تلك الهزيمة استولى خوارزم شاه على مدينة مرو عاصمة خراسان. وفي سنة ٥٤٠هـ اجتمع الأمير بوزابه الذي بات يحكم فارس وخوزستان، والملك محمد ابن السلطان محمود والملك سليمان شاه والأمير عباس حاكم الري، وأعلنوا الحرب على السلطان مسعود فأخذت جيوشهم تستولي على الأقاليم التي كانت بيده. ولما شعر السلطان بعجزه اضطر للدخول معهم في مفاوضات للصلح. ويبدو أن كفتهم العسكرية كانت هي الأرجح، ففرضوا شروطهم السياسية عليه، وكان من جملتها أن فرض الأمير بوزابه تعيين وزيره أبي الفتح بن دارست وزيراً في ديوان السلطان مسعود. وبذلك فقد السلطان مركزه السابق وتهمش دوره بين حكام السلاجقة.

علي بن دبيس يستولي على الحلة

كانت الحلة في تلك الأيام بيد محمد بن دبيس ابن سيف الدولة، وذلك منذ أن ولاه السلطان مسعود بعد مقتل صدقة بن دبيس في حرب سنة ٥٣١هـ. ولما تهيأ السلطان مسعود لمغادرة بغداد في سنة ٥٤٠هـ أشار عليه شحنة بغداد مهلهل، أن يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت من باب الاحتياط، ولما علم علي بن دبيس بما كان يحاك ضده تسلل سراً وخرج من بغداد وسار نحو

الفرات الأوسط. وهناك التفت حوله جموع بني أسد وحلفاؤهم، فزحف علي بذلك الجمع نحو الحلة، وحاول أخوه محمد بن دبيس أن يتصدى له ولكن عساكره انهزموا أمام رجال علي بن دبيس الذي استولى على الحلة. وبمرور الأيام أخذ أمره يستفحل ونفوذه يزداد وبات يتصرف بإقطاعيات الأمراء الأتراك مما اضطر شحنة بغداد مهلهل أن يجمع ما لديه من عسكر الترك ويجهزهم ويزحف بهم نحو الحلة، فتصدى علي بن دبيس لجيش مهلهل وأنزل به هزيمة منكرة. فعادت فلوله المهزومة إلى بغداد، مما اضطر الخليفة المقتفي إلى وضع رجال على السور لحفظه، وراسل علي بن دبيس، فأعاد علي بأنه مطيع ويسمع لما يرسمه الخليفة، فهدأت المخاوف في بغداد.

يقول ابن الأثير عن مشاعر البغداديين نحو علي بن دبيس اتجاه مهلهل وعساكر بغداد:

وكان أهلها يتعصبون لعلي بن دبيس. وكانوا يصيحون إذا رأوا مهلهلاً وبعض أصحابه (يا علي أكله) وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب[(١)] **.**

واستمر علي بن دبيس في سلطته ونفوذه في الفرات الأوسط وفي تلك الأثناء كثرت شكاوى أمراء الإقطاع الترك الذين طردهم علي من إقطاعياتهم فحاول السلطان مسعود تدارك الأمر بالاستعانة بسلاركرد فأقطعه الحلة وأمره أن يأخذها من علي بن دبيس أمير بني أسد بالقوة، فجهز سلاركرد جيشاً كبيراً وزحف به نحو العراق. وفي بغداد انضم إلى جيشه عسكر الترك، فسار سلاركرد بتلك الجيوش نحو الحلة واستولى عليها بعد معارك عنيفة. ولكن علي بن دبيس عاد بعد مدة وهاجم الحلة وتمكن من طرد سلاركرد منها الذي ذهب إلى بغداد[(٢)].

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٩ص١١

(٢)ن.م. ج٩ص١٩

وفي سنة ٥٤٧هـ توفي السلطان مسعود السلجوقي الذي كان العراق قاعدته المهمة فحدث فراغ سياسي وعسكري في بغداد لم يكن بإمكان أي من ملوك وأمراء السلاجقة سده لما كانوا يعانونه من ضعف.

الفصل الثاني

انحسار حكم السلاجقة

بعد وفاة السلطان مسعود هرب شحنة بغداد إلى تكريت بعساكره وانهارت آخر معالم حكومة السلاجقة في بغداد، فجمع الخليفة المقتفي لأمر الله مماليكه واستولى على دار الشحنة ودور باقي أصحاب السلطان وصادر أموالهم ثم سير وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة على رأس عسكر المماليك إلى الحلة التي كان قد استبد بها شحنة بغداد مسعود بلال فانتزعها منه. ثم سير الوزير عسكراً إلى الكوفة وإلى واسط لنفس الغرض. وهكذا ظهرت لأول مرة في دار الخلافة ببغداد معالم حكومة مستقلة تبسط نفوذها باسم الخليفة على أهم المناطق الزراعية في العراق، ولكي يحمي الخليفة ذلك الوضع الجديد، اخذ بتوسيع قوته العسكرية التي كان قوامها المماليك الترك.

وفي سنة ٥٥١هـ واجه الخليفة المقتفي لأمر الله أول امتحان لذلك الوضع المستقل، إذ أرسل السلطان محمد السلجوقي يطلب أن يخطب له في بغداد والعراق، ولكن الخليفة امتنع عن ذلك. وعلى الأثر جهز السلطان جيشاً وسار من همدان نحو العراق وضرب الحصار حول بغداد. وقد اهتم الخليفة للأمر فجمع العساكر وفرق السلاح على الجند وعلى سكان بغداد واتخذ ما يلزم للدفاع. واستمرت المناوشات عدة اشهر من دون أن يحقق السلطان أي شي مما أضطره إلى رفع الحصار والعودة إلى همدان.

ولما توفي السلطان سنجر ابن ملكشاه في سنة ٥٥٢هـ قطعت خطبته ولم يجلس في الديوان للعزاء. وفي سنة ٥٥٥هـ توفي الخليفة المقتفي لأمر الله بعد أن أمضى في الخلافة قرابة ربع قرن من الزمن. قال بن الأثير:

وفي هذه السنة توفي المقتفي لأمر الله ابن المستظهر بالله ... وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم[(١)] **.**

المستنجد وعسكر المماليك

بعد وفاة المقتفي تولى الخلافة ولده المستنجد بالله الذي شهدت خلافته تحولات مهمة بالنسبة للعراق وللخلافة العباسية. ففي عهده ازداد نفوذ أمراء عسكر المماليك حيث أخذوا يسدون بالتدريج الفراغ الذي تركه حكام السلاجقة ورجالهم في مواقع السلطة. فعلى الصعيد العسكري والإقطاعي مثلا، أخذ مملوك الخليفة الأمير قيصر يبسط نفوذه على الفرات الأوسط بعد أن تولى منصب شحنة الحلة. ومسك مملوك الخليفة أرغش إقطاع الكوفة وكان أميرا للحج. وهكذا ظهرت في العراق طبقة جديدة من أمراء الإقطاع قوامها أمراء العسكر الخليفي، وكان جلهم من مماليك الترك والشركس. ومع نمو تلك الطبقة وازدياد نفوذها، ازداد تعسف أولئك الأمراء مع سكان البلاد حتى بلغ حداً فجر صراعات دموية بين عرب العراق والعسكر الخليفي.

وقد تفجرت تلك الصراعات في سنة ٥٥٦هـ بعد أن منع أمراء المماليك عن العشائر العراقية رسومهم من الطعام والتمر، مما أدى إلى تجمع رجال تلك العشائر للاحتجاج وكانت غالبيتهم من خفاجة، غير أن أمراء العسكر جابهوا رجال العشائر بقوة السلاح.كتب ابن الأثير عن تلك الأحداث تحت عنوان:

(ذكرى الحرب بين العرب وعسكر بغداد):

في هذه السنة في شهر رمضان اجتمعت خفاجة إلى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر وغير ذلك فمنعهم أمير الحاج أرغش وهو مقطع الكوفة ووافقه على منعه الأمير قيصر شحنة

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٩ص٦٨

الحلة وهما من مماليك الخليفة فأفسدت خفاجة ونهبوا سواد الحلة والكوفة فأسرى إليهم الأمير قيصر شحنة الحلة في مائتين وخمسين فارسا وخرج إليه أرغش في عسكر وسلاح.

فانتزعت خفاجة من بين أيديهم وتبعهم العسكر إلى رحبة الشام فأرسل خفاجة يعتذرون ويقولون قد قنعنا بلبن الإبل وخبز الشعير وأنتم تمنعونا رسومنا وطلبوا الصلح فلم يجبهم أرغش وقيصر.

وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب فتصافوا واقتتلوا وأرسلت العرب طائفة إلى خيام العسكر ورحالهم فحالوا بينهم وبينها. وحمل العرب حملة منكرة فانهزم العسكر وقتل كثير منهم وقتل الأمير قيصر وأسرت جماعة أخرى وجرح أمير الحاج جراحة شديدة ودخل الرحبة فحماه شحنتها وأخذ له الأمان وسيره إلى بغداد. ومن نجا مات عطشاً في البرية. وكان إماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى فإذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه. وكثر النوح والبكاء في بغداد على القتلى[١].

القضاء على إمارة بني أسد

بعد حرب سنة ٥٥٦هـ رأى المماليك إن الأمر لا يمكن أن يستقيم لهم في العراق وعشائر الفرات الأوسط لازالت تمسك من القوة ما يمكنها أن تهدد مصالحهم الإقطاعية في تلك المناطق الزراعية الغنية، أو حتى وجودهم كمتسلطين على مؤسسة الخلافة في بغداد. ولما كانت إمارة بني أسد هي القاعدة والمحور الذي يمكن أن تجتمع حوله تلك العشائر، قرروا شن حرب شاملة لتدمير تلك القاعدة، وسحق قوة بني أسد واقتلاعهم من أرضهم وتشتيت شملهم. وفي سنة ٥٥٨هـ أكمل عسكر بغداد استعدادهم لتلك الحرب وخرج جيش المماليك بقيادة يزدن بن قماج وسار نحو الحلة للقضاء على بني أسد. في هذه الحرب استعان المماليك بابن معروف مقدم المنتفك على أن يسلموه بطائح بني أسد بعد الاستيلاء عليها.

ويبدو أن بني أسد كانوا على علم بما يخطط ضدهم، وبخروج جيش المماليك من بغداد نحوهم، فتحصنوا في بطائحهم. وحينما وصل جيش المماليك، والتحقت به عشائر المنتفك بقيادة ابن معروف، بدأت المرحلة الأولى للحرب. فضرب العسكر الحصار على بني أسد داخل بطائحهم، ثم سخر جميع أفراد

---

(١)ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٩ص٧٦

القوات العسكرية وحلفائهم، في عملية سد مسالك الأنهار التي كانت تغذي تلك البطائح، وتحويل المياه إلى جهات أخرى. ويبدو أن تلك العملية الشاقة طالت وطال معها الحصار إلى أمد أقلق ذوي الأمر في بغداد، ربما لاقتراب موسم الفيضانات التي يمكن أن تجرف مياهها ما أقيم من سدود وتعرض الجيش لكارثة يصعب التكهن بنتائجها. ولذا أرسل الخليفة إلى يزدن بن قماج القائد العسكري للعملية، توبيخاً وعتبا، لتأخره في إنجاز المهمة التي أرسل من أجلها حتى إنه اتهمه بموالاة بني أسد، كونهم قبائل شيعية، إذ يقال بأن يزدن كان يتشيع. وبعد ذلك التوبيخ من بغداد، ضاعف يزدن بن قماج جهوده حتى تمكن من سد مسالك تلك الأنهار. وبعد أن تم سد مسالك تلك الأنهار، هبط مستوى المياه وانكشفت أرض البطائح. فحينئذ شن العسكر هجوماً عاماً تمكنوا أثنائه من التوغل داخل تلك البطائح حيث باشروا بقتل من وجدوه هناك. وهكذا تعرض رجال بني أسد إلى مذبحة وحشية ذهب ضحيتها آلاف الناس.

قال ابن الأثير:

في هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله بإهلاك بني أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر من فسادهم، ولما كان في نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمدا لما حصر بغداد. فأمر يزدن بن قماج بقتالهم وإجلائهم من البلاد وكانوا منبسطين في البطائح واللوير فلا يقدر عليهم.

فتوجه يزدن إليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل. وأرسل إلى ابن معروف مقدم المنتفك وهو بأرض البصرة فجاء في خلق كثير، وحصرهم وسكر عنهم الماء وصابرهم مدة فأرسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجزه وينسبه إلى موافقته في التشيع وكان يزدن يتشيع، فجد هو وابن معروف في قتالهم والتضييق عليهم وسد مسالكهم في الماء. فاستسلموا حينئذ فقتل منهم أربعة آلاف قتيل، ونودي فيمن بقى من وجد بعد هذا في الحلة المزيدية فقد حل دمه. فتفرقوا في البلاد ولم يبق منهم في العراق من يعرف وسلمت بطائحهم إلى ابن معروف وبلادهم(١) .

إن تلك الأحداث تفسر لنا، أهمية الأهوار والبطائح في حياة القبائل العربية ووجودها في المناطق الزراعية من وادي الرافدين. فقد استفادت تلك القبائل

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٤٧٩هـ. ج٩ص٨٣

منذ استقرارها في ذلك الوادي الرسوبي الخصيب، من مناعة بطائحه وأهواره واتصالها بعضها، فكانت تلك الأهوار بمثابة بعدها الإستراتيجي للدفاع عن وجودها وسيادتها على أرض العراق. ولذا فإن تلك الحرب لم تنه وجود بني أسد في العراق، فقد تسللت عشائرهم عبر تلك البطائح وانحدرت إلى بطائح وأهوار جنوب العراق. كما انتشرت جماعات منهم في مختلف أنحاء الفرات الأوسط. ولم تكد تمر فترة من الزمن حتى عاد بني أسد يلعبون دورهم في مجتمع عرب العراق. وقد برز منهم بعد تلك الانتكاسة التاريخية، رجال كان من أشهرهم وزير المستعصم بالله العباسي مؤيد الدين بن العلقمي، الذي كانت عشيرته تنزل في منطقة النيل قرب الحلة. وينتمي كذلك إلى بني أسد عدد كبير من العلماء والفقهاء ورجال الفكر والأدب الذين برزوا في عقود لاحقة، وكان من أشهرهم العلامة الحسن بن المطهر الحلي، والشيخ أحمد بن فهد الحلي الأسدي. أما عشائر بني أسد التي انحدرت إلى أهوار جنوب العراق فإنها تعد اليوم من أكبر وأقوى العشائر العراقية في منطقة الجبايش المعروفة بالجزاير أو البطائح في منطقة سوق الشيوخ وما جاورها. وتنتشر لهم عشائر من سوق الشيوخ إلى القرنة وإلى أهوار العمارة ينزلون بين عشائر بني مالك وبني خيكان وألبو محمد[(١)]. وينتمي إلى بني أسد العديد من العشائر والأسر التي ما زالت تحمل اسم "الأسدي" بينما تعرف عشائر وأسر أخرى تفرعت من بني أسد بأسماء خاصة بها، مثل آل الطريحي، وآل الشبيبي، وآل الجزائري في النجف، وآل كمونة في كربلاء. ويوجد كذلك في كربلاء وضواحيها عدد من العشائر تنتمي إلى بني أسد، استقرت بين ضواحي كربلاء وبين الهندية وطويريج، منهم ألبو بحر، وألبو مجزم، وألبو مجدي، وألبو ضاحي، وألبو غانم.

(١) المحامي عباس العزاوي - عشائر العراق، ج٤ص٤٧

وبعد أن قضى عسكر المماليك على إمارة بني أسد، دخل العراق مرحلة جديدة من تاريخه انفرد فيها أمراء المماليك بالسلطة، وباشروا منذ ذلك الحين بتطبيق سياسة تجريد عرب العراق من السلاح، ودفعهم للاشتغال كفلاحين في الأراضي الزراعية والإقطاعيات التي استحوذوا عليها في عهدهم الجديد. وكان ممن اتسعت أملاكه في ذلك العهد عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء الذي تولى إقطاع نهر الملك في أيام المقتفي، فحصل بذلك أموالاً جمة. وزاد نفوذ قطب الدين قايماز الذي نال منصباً عسكرياً رفيعاً.

نهاية الخليفة المستنجد

وبعد القضاء على إمارة بني أسد، وفي سنة ٥٦٦هـ قرر أمراء المماليك وعلى رأسهم أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز وهو حينئذ أكبر أمير عسكري في بغداد، إزاحة الخليفة نفسه عن طريق طموحاتهم، فاتفقوا على قتله. وبعد إنجاز خطتهم جاءوا بولده المستضيئ وعقدوا له البيعة، بعد أن اشترطوا عليه شروطا، وجعلوه يقسم لهم أيمانا غليظة بالالتزام بتلك الشروط.

يصف لنا ابن الأثير كيفية القضاء على الخليفة الذي كان مريضاً طريح الفراش، فيقول: "فدخل إليه يزدن وقيماز الحميدي فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلق الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات... وأحضر هو وقطب الدين، ابنه أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة، ولقباه المستضيئ بأمر الله وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذ الدار وقطب الدين قيماز أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك"(١).

أما ابن الطقطقى فيقول:

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٩ص١٠٨-١٠٩

ومات المستنجد مخنوقاً في الحمام. خنقه أكابر دولته... لأنهم خافوه على أنفسهم ... ثم أن عضد الدين أستاذ الدار أخرج ولده المستضيئ وبايعه وشرط عليه شروطاً وأحلفه عليها أيمانا مؤكدة، منها أن يكون هو وزيراً وان يكون ولده أستاذ الدار، وفلان أمير العسكر وفلان كذا وكذا فالتزم المستضيئ لهم بذلك وحلف أيماناً غليظة[١].

أما وزير المستنجد شرف الدين بن البلدي فقد قبضوا عليه وقتلوه وقطعوه ورموه في دجلة ثم نهبوا داره. وهكذا سقطت مؤسسة الخلافة العباسية مرة أخرى في قبضة أمراء عسكر المماليك.

(١)محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقى - الفخري في الآداب السلطانية ص٣١٧-٣١٨

الفصل الثالث

الناصر لدين الله وتسلط أمراء المماليك على الخلافة

حينما قتل الخليفة المستنجد بالله كان حفيده الناصر شاباً يدرك ما كان يجري من حوله، وبعد تسعة أعوام تولى هو أمر الخلافة العباسية، بعد وفاة والده المستضيئ سنة ٥٦٦هـ. وفي أثناء تلك الفترة كان أمراء مماليك الترك في بغداد قد قطعوا شوطاً بعيداً في توطيد مركزهم وتوسيع نفوذهم، وفي أيام الخليفة الناصر اجتاحت جيوش جنكيزخان بلاد الإسلام وقضت على دولة خوارزم شاه. وقد واجه العراق والعالم الإسلامي بعدها تحولات تاريخية كبيرة اختلف المؤرخون في تفسير أسبابها وتقييم أبعادها. وفي ضمن هذا الإطار اختلفوا حتى في تقييم شخصية الناصر، الذي دامت خلافته قرابة نصف قرن هجري. إذ تراوحت آراؤهم فيه بين الإطراء والمديح والذم والاتهام بالتواطؤ مع أعداء الإسلام. فقد قال عنه صاحب الفخري:

كان الناصر من أفاضل الخلفاء وأعيانهم بصيراً بالأمور مجرباً مهيباً مقداماً عارفاً حاد الخاطر، متوقد الذكاء... يمارس الأمور السلطانية ممارسة بصير، وكان يرى رأي الإمامية... وكان كل أحد من أرباب المناصب والرعايا يخافه ويحاذره... وفي أيامه انقرضت دولة آل سلجوق بالكلية[١].

ومهما كانت مؤهلات الناصر فان أقدار التاريخ جاءت به إلى سدة الخلافة في عصر انبعاث وتعاظم حكم المماليك، الذين تسلطوا مرة أخرى على الخلافة العباسية وكأن التاريخ كان يعيد نفسه. فقد سبق أن شهد العراق في النصف

(١) محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقى - الفخري في الآداب السلطانية ص٣٢٢

الأول من القرن الثالث الهجري تعاظم قوة عسكر مماليك الترك في عهد الخليفة المعتصم (٢١٨هـ -٢٢٧هـ). ومر شعبه بتجربة تسلط المماليك على الخلافة في الفترة التي أعقبت القضاء على الخليفة المتوكل بأيديهم في سنة ٢٤٧هـ. غير أن سلطة تلك المؤسسة العسكرية تلاشت في العصر البويهي والعصر السلجوقي. ثم عادت فانبعثت في بغداد من جديد في خضم نزاعات السلاجقة وانحسار سلطان دولتهم.

وفي هذه المرة بلغ أمراء عسكر مماليك الخليفة أوج قوتهم ونفوذهم، بعد القضاء على دولة بني أسد في سنة ٥٥٨هـ. إذ حققوا تسلطهم الكامل على مؤسسة الخلافة العباسية، بعد القضاء على الخليفة المستنجد في سنة ٥٦٦هـ. ولما كانت غالبية أولئك المماليك ينتمون إلى الجيل الأول لتلك الطبقة المتسلطة، فان جهودهم انصرفت منذ البداية إلى تكوين أنفسهم. وذلك بالارتقاء إلى أعلى المناصب العسكرية، وجمع ثروات خاصة كان أساسها امتلاك الأراضي الزراعية والإقطاعيات. وفي أيام الناصر الذي دامت خلافته قرابة نصف قرن هجري، تسنى لهم الاستحواذ على أكثر المقاطعات الزراعية في العراق، وبذلك ظهرت طبقة جديدة في البلاد كانت تجمع بين السلطة العسكرية والثراء الإقطاعي. وكان عدد وحجم تلك الإقطاعيات، يتناسب مع مركز ذلك المملوك في المؤسسة العسكرية وبالتالي نفوذه في ديوان الخلافة.

لما كان الحصول على مثل تلك الإقطاعيات يأتي عن طريق "الضمان" أو "التولية" بموجب عقود تصدر من ديوان الخليفة، لأن تلك المقاطعات كانت شرعاً ملك الدولة، فان عقود الضمان أو التولية كانت تصدر باسم الخليفة. ولذلك فان اسم الخليفة اقترن بتلك الظاهرة، وعلى هذا الأساس اعتبر الناصر أكثر الخلفاء العباسيين المتأخرين إقطاعا للأراضي الزراعية والمدن.

على سبيل المثال أقطع الناصر لدين الله، أمير العسكر علاء الدين تنامش، الدجيل[١] وداقوقا [٢]. وكان بيد الأمير طغرل الناصري، إقطاع اللحف[٣] والبندنيجين[٤]. وكانت تلك المقاطعات من أعمال بغداد في طرف النهروان. أما الأمير آي به بن عبد الله التركي المعروف بالشاهين فكان بيده إقطاع واسط لمدة من الزمن.

غير أن ذلك التوسع في الإقطاع، اصطدم بمشكلة ضيق الرقعة الجغرافية التي كانت تحت سلطان الخلافة. وقد جر ذلك أمراء المماليك، الذين تزايدت أعدادهم، إلى التنافس والتناحر فيما بينهم من جهة، والتجاوز على أملاك الناس، والاعتداء على حقوق الآخرين من الجهة الأخرى. وقد بلغت أعمال الظلم في الكثير من الحالات حد تهجير الملاكين الآخرين من أراضيهم وتشريدهم.

إن هذه الحقائق التاريخية التي توردها العديد من المصادر، تشير إلى أن الخليفة الناصر الذي اقترنت الكثير من تلك الأعمال باسمه كان في حقيقة الأمر كباقي خلفاء تلك الفترة مغلوباً على أمره ضعيفاً أمام قوة أمراء عسكر المماليك.

لعل من أبرز الأحداث التي كشفت عن ضعف مركز الخليفة الناصر، المصير الذي واجهه وزيره، نقيب الأشراف نصير الدين بن المهدي العلوي الذي يقال

---

(١) الدجيل - اسم نهر فرعي مخرجه من دجلة أعلى بغداد بين تكريت وبينها يسقي كورة واسعة وبلاداً كثيرة منها أوانا وعكبرة والحضيرة وصريفين ثم تصب فضلته في دجلة ايضا - معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٢) داقوقا - مدينة بين إربل وبغداد تعرف اليوم بـ (طاووق)

(٣) اللحف - صقع من نواحي بغداد سمي بذلك لانه في لحف جبال همدان و اوند وتلك النواحي. وهو دو ا مما يلي العراق ومنه البندنجين وغيرها وفيه عدة قلاع حصينة - معجم ياقوت

(٤) البندنجين - وهي بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من اعمال بغداد. والبندنجين اسم يطلق على عدة محال متفرقة غير متصلة البنيان بل كل واحدة منفردة لاترى الاخرى لكن نخل الجميع متصلة - معجم ياقوت.

بأنه تنازع مع عدد من أمراء المماليك ومنهم مملوك الخليفة أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع وكذلك المملوك قشتمر. وقد فجر ذلك النزاع أزمة سياسية في بغداد، إذ شن أولئك المماليك حملة شعواء ضد الوزير أجبرت الناصر بالنهاية على عزل وزيره ووضعه تحت الإقامة الإجبارية.

كان الوزير ابن المهدي العلوي في بداية أمره ينوب عن النقيب عز الدين المرتضى الذي كان في عهد علاء الدين خوارزم شاه نقيباً للعلويين في جميع البلاد التي كانت تحت سلطانه. ولكن بعد أن قتل خوارزم شاه النقيب عز الدين المرتضى هرب ولده النقيب شرف الدين محمد وبصحبته نائبه نصير الدين ابن المهدي العلوي إلى بغداد مستجيرين بالخليفة الناصر. قال صاحب الفخري:

... فاختبره الناصر فرآه عاقلاً لبيباً سديداً فصار يستشيره سراً فيما يتعلق بملوك الأطراف فوجد عنده خبرة تامة بأحوال السلاطين العجم ومعرفة بأمورهم وقواعدهم... وكان الناصر كلما استشار به في شيء من ذلك يجده مصيباً عين الصواب فاستخلصه لنفسه، ورتبه أولا نقيب الطالبيين ثم فوض إليه أمور الوزارة.

ثم أشار إلى عزل الوزير والقبض عليه فقال:

وقبض الناصر عليه كارهاً لأمور اقتضت ذلك. وكان القبض عليه في سنة أربع وستمائة ونقل إلى دار في دار الخلافة، فأقام بها تحت الاستظهار على حالة الإكرام والمراعاة إلى أن مات تحت الاستظهار في سنة سبع عشرة وستمائة[(١)].

أما ابن الأثير فان روايته تلقي الضوء على بعض الأمور التي فرضت على الخليفة الناصر القبض على وزيره ابن المهدي العلوي، فذكر في أحداث سنة ٦٠٤هـ:

فلما كان في الثاني والعشرين من جمادى الآخر من هذه السنة عزل وأغلق بابه. وكان سبب عزله انه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة، فمنهم أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع فإنه هرب من يديه إلى الشام سنة ثلاث وستمائة. فارق الحاج بالمرخوم وأرسل يعتذر ويقول: إن الوزير يريد أن لا يبقى في خدمة الخليفة أحدا من مماليكه، ولاشك انه يريد أن يدعي الخلافة....

---

(١) محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقى - الفخري في الآداب السلطانية ص٣٢٥،ص٣٢٦.

وبالرغم من أن المماليك وضعوا حملتهم ضد الوزير في إطار الدفاع عن خلافة بني العباس، فإن ذهاب المملوك سنقر وجه السبع إلى مصر كان في حقيقة الأمر يحمل تهديداً موجهاً إلى الناصر، الذي طالما تعرض لضغوط الأيوبيين الذين ما انفكوا يطمحون بالعودة إلى العراق منذ أيام صلاح الدين الذي حاول الاستيلاء على الموصل مرتين كانت الأولى في سنة ٥٧٨هـ والثانية في سنة ٥٨١هـ. ولابد أن ما قام به سنقر وجه السبع كان المقصود منه إحراج الخليفة.

أما في بغداد فقد شن المماليك حملة شعواء ضد الوزير، كانت موجهة إلى الناصر، إذ أثاروا فيها الإشاعات والأقاويل التي تحذر الناصر من أطماع وزيره العلوي بالخلافة. وتطالب الخليفة بالتحرك ضده، وقد حشدوا في تلك الحملة حتى الشعراء. وظلت تلك الضغوط تتضاعف حتى اضطر الخليفة الناصر إلى أن ينحني أمامها ويصدر أمراً بعزله. وتشير المصادر أن الوزير ابن المهدي عرض بعد عزله على الناصر أن يعيد الأموال والنفائس التي أنعمها عليه والتي كانت تزيد على خمسة آلاف دينار، وطلب منه أن يسمح له أن يقيم بمشهد الإمام موسى الكاظم أسوة ببعض العلويين، ولكن الخليفة الناصر رفض ذلك وقال له:

إننا ما أنعمنا عليك بشيء فنوينا إعادته ولو كان ملئ الأرض ذهباً ونفسك في أمان الله وأماننا. ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك. غير أن الأعداء قد أكثروا فيك. فاختر لنفسك موضعاً تنتقل إليه موقراً محترماً...(١).

ويبدو من هذا، أن الخليفة الناصر كان على بينة من أمور تدبر ضد وزيره، وكان يخشى أن يعتدي أمراء المماليك على حياته ولذا اختار لإقامته داراً في دار الخلافة ليبقى بمأمن من "الأعداء الذي أكثروا فيه" وهكذا عاش الوزير

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٩ احداث سنة ٦٠٤هـ

ابن المهدي العلوي محجوزاً عليه في دار الخلافة حتى وفاته في سنة ٦١٧هـ، وهو العام الذي بدأت فيه حملة جنكيزخان على بلاد الإسلام.

وبعد أن خضع الناصر لإرادة أمراء المماليك وقبض كارهاً على وزيره ومستشاره المقرب، عاد إلى بغداد المملوك سنقر وجه السبع وعاد كذلك المملوك قشتمر. وفي سنة ٦٠٨هـ ولّى الخليفة الناصر ذلك المملوك وجه السبع الكوفة إقطاعاً، وقد صدر أمر التولية باسم الناصر[١].

المماليك ودولة خوارزم شاه

بعد أن وطد أمراء المماليك أقدامهم في السلطة بدءوا يتطلعون للتوسع شرقاً، ويستعدون للاستيلاء على بعض الأقاليم التي انحسر عنها حكم السلاجقة في إيران. وكان لابد أن ينفذ أمراء المماليك تلك الفتوحات المتوقعة باسم الخليفة العباسي. ولكن إيران شهدت في تلك الأثناء تعاظم قوة دولة علاء الدين خوارزم شاه الذي استولت جيوشه خلال فترة قصيرة على أملاك دولة السلاجقة، وامتد نفوذه حتى حدود الصين والهند. وبذلك سيطرت جيوش تلك الدولة الفتية على الجناح الشرقي للعالم الإسلامي، وأصبحت عسكرياً القوة العظمى في المنطقة.

وحينما حاول مماليك بغداد التوسع، وتوغل جيشهم باسم الناصر شرقاً، واستولى على بعض الأقاليم في إيران، تصدت له جيوش علاء الدين خوارزم شاه وأنزلت به هزيمة منكرة. ولابد أن تلك الحرب ونتائجها أججت في نفوس أمراء المماليك، الذين كانوا وراء تلك السياسة، مشاعر الحقد والكراهية ضد علاء الدين خوارزم شاه، الذي أصبح العقبة الكأداء عسكرياً، أمام تحقيق طموحاتهم في التوسع نحو الشرق.

---

(١) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين، ص١٠١

وبالمقابل اشتدت نزعة علاء الدين خوارزم شاه للتوسع غرباً وبسط نفوذه على العراق وعلى دار الخلافة. فأخذ يشدد في مطالبته الخليفة الناصر أن يأمر فيخطب له في بغداد والعراق، كما كان الحال مع سلاطين السلاجقة. غير أن الناصر ظل يرفض الاستجابة لرغبة خوارزم شاه، وفي غالب الظن فإن أمراء المماليك كانوا وراء تلك السياسة التي كانت ترفض أي تطور إيجابي أو تقارب بين الخليفة العباسي وخوارزم شاه. إذ كانوا يعدون ذلك تهديداً مباشراً لمصالحهم، كطبقة عسكرية إقطاعية تهيمن على دولة الخليفة، ولذلك تعمقت أزمة العلاقات بين الطرفين.

ويبدو أن مشاعر الكراهية والخوف ذهبت برجال السلطة في بغداد حد بعيد فأخذوا يحرضون مختلف القوى ضد علاء الدين خوارزم شاه أملاً في إلهائه في حروب جانبية في الشرق. فخرج الرسل من بغداد باسم الخليفة الناصر وتوجهوا إلى بلاد ما وراء النهر ليعرضوا على الأمراء القره خطائيين استعداد خلافة بغداد للتحالف معهم، ودعم جهودهم لاستعادة سلطانهم على الأقاليم التي انتزعها منهم علاء الدين خوارزم شاه. ويروى بأن الخليفة الناصر اخذ يشجع أتابكة فارس وأذربيجان ويحرضهم على مهاجمة إقليم عراق العجم لانتزاعه من يد علاء الدين خوارزم شاه. وفي تلك الأثناء تحسنت العلاقات بين الخلافة العباسية ودولة الشيعة الإسماعيلية في قهستان (بلاد الجبل) جنوب غرب بحر قزوين. وبهذا الصدد يذكر بأن الخليفة الناصر استخدم عددا من فدائيي الإسماعيلية في عمليات اغتيال قادة الخوارزميين. فقد أثيرت الشبهات حول دور حكومة الناصر في اغتيال "أغلمش" نائب خوارزم شاه في عراق العجم[1].

ويذكر بأن ديوان الخليفة الناصر، كان يتعمد الإساءة إلى علاء الدين خوارزم شاه باحتقار بعثاته ورسله بالمناسبات التقليدية. ففي مناسبة الحج، جرى تقديم

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص٧٠

بعثة جلال الدين حسن إمام دولة الشيعة الإسماعيلية، التي وفدت على ديوان الخلافة، والتي كانت تحمل الهدايا والرايات، على بعثة خوارزم شاه بالرغم من أن دولة خوارزم شاه كانت تعد، في تلك الأيام، القوة العظمى في العالم الإسلامي. ثم إن علاء الدين خوارزم شاه كان من أهل السنة، كما كان والده السلطان تكش مؤسس الدولة الخوارزمية المتوفى سنة ٥٩٦هـ الذي قيل عنه:

وكان عادلاً حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم. ويعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة ويعرف الأصول [١]**.**

ويبدو أن صبر علاء الدين خوارزم شاه نفذ مع خليفة بغداد وأمراء مماليكه، فقرر أن يفرض إرادته عليهم بقوة السلاح. ولتحقيق ذلك جهز جيشاً كثيفاً وزحف نحو بغداد. ومن أجل أن يبرر تحركه ضد الخليفة العباسي أعلن علاء الدين خوارزم شاه، كما تشير بعض الأخبار، اعتناقه المذهب الشيعي الإمامي، وجمع الفقهاء وأئمة الدين في الدولة، وحصل منهم على فتوى صريحة فحواها إن بني العباس اغتصبوا الخلافة من آل بيت النبي أصحابها الشرعيين، وهم ولد علي بن أبى طالب من فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص)، وعليه اصبح من الواجب إرجاع الحق إلى أهله. واستناداً إلى تلك الفتوى أصدر السلطان علاء الدين أمراً بإسقاط اسم الخليفة الناصر من خطبة الجمعة في دولته ومن مسكوكات العملة. ثم أتى برجل علوي يدعى "علاء الملك" من سلالة الحسين بن علي بن أبي طالب ونادى به خليفة للمسلمين، وخطب له على المنابر وضرب النقود باسمه[٢].

وحينما تحرك السلطان علاء الدين نحو العراق في سنة ٦١٤هـ، ساد الرعب والهلع في نفوس أهل بغداد وخاف الخليفة الناصر على نفسه فبعث إلى

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٩ ص٢٥٠

(٢)فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص٧١

السلطان علاء الدين رسولاً هو شهاب الدين السهروردي ليثنيه عن عزمه ويعرض عليه الصلح.

يقول السهروردي عن مقابلته مع السلطان علاء الدين:

... فسلمت علية فلم يرد ولا امرني بالجلوس. فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بني العباس ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين، والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغت قال للترجمان قل له: هذا الذي وصفته ما هو في بغداد؟ قلت نعم. قال: أنا أجيء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف. ثم ردنا بغير جواب...[1].

وبعد ذلك واصل علاء الدين خوارزم شاه زحفه نحو بغداد. وبينما كان يجتاز منطقة الجبال بعد همدان، ضربت عاصفة ثلجية عنيفة جيشه، فقضت على نسبة كبيرة من عساكره ودوابهم ودمرت مؤنهم ولوازمهم. ويقال بأن خوارزم شاه تشاءم من تلك الحادثة، فأحجم عن اقتحام دار الخلافة، وقرر العودة إلى بلاده.

وتشير الروايات بأن نفوس رجال الحكم في بغداد اهتزت رعباً من ذلك الحدث وبات الخليفة الناصر وأمراء المماليك يعيشون وضعاً مشحوناً بالخوف. ولما كانت القوى التي كانوا يحرضونها ويأملون منها أن تتحرك ضد عدوهم، لم تكن تجرؤ أن تعادي خوارزم شاه أو تقف في وجهه. ولذا لجأ الناصر، أو من كان يقف خلف سياسته، إلى جنكيزخان الذي كانت أخبار جيوشه وفتوحاته قد ملأت الآفاق. فخرج الرسل من بغداد، يحملون كتباً تشرح أمورا كثيرة عن أوضاع الخلافة العباسية، وعن أوضاع العالم الإسلامي، كان من شأنها تحفيز جنكيز خان على مهاجمة دولة خوارزم شاه. وبكلمة أخرى مهاجمة الجناح الشرقي للعالم الإسلامي. ومن المعتقد أن معرفة المغول عن بلاد الإسلام كانت محدودة ولا تتجاوز أقاليم الترك في إمبراطورية خوارزم شاه. أما معلوماتهم عن أوضاع الخلافة العباسية في العراق وأوضاع بلاد الشام ومصر فكانت شبه معدومة. والمرجح أن كتب

---

(١)ن.م. ص٧٣

الخليفة الناصر وبعثاته هي التي حملت تلك المعلومات إلى المغول. فإذا صحت مثل هذه الأخبار، فلابد أن جنكيز خان اهتم بها، ولابد أنها نبهته إلى أمور كان يجهلها. وبناءً على تلك المعلومات أعاد جنكيز خان النظر في خطط فتوحاته.

أشار الباحث برتولد شبولر إلى هذه المسألة فقال:

إن خليفة بغداد النشيط الناصر لدين الله ، اتصل عندما تأزمت الأمور بينه وبين محمد الثاني (علاء الدين خوارزم شاه) بالحاكم المغولي (يعني جنكيز خان) وحرضه على الهجوم على خوارزم شاه من المؤخرة .

وتشير هذه الرواية على إن الخليفة نفسه، الذي كان لا يزال -اسميا على الأقل- هو الرئيس الأعلى للمسلمين، هو الذي جلب عليهم اعظم كارثة حلت بهم في التاريخ[١].

ومن الغريب أن العديد من الباحثين توصلوا إلى مثل هذه النتيجة، لأنهم لم يأخذوا بنظر الاعتبار تسلط أمراء المماليك على الخلافة العباسية، ودورهم في توجيه سياستها في تلك الفترة.

---

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٣٠

الباب الثاني

المغول والعالم الإسلامي

تقديم

في شمال الصين وإلى الغرب منها حيث منابع أنهار سيبريا، تمتد مناطق شاسعة تختلط فيها السهوب الرعوية والوديان والهضاب العالية، بالصحارى المترامية الأطراف. ولبعد تلك المناطق الواسعة عن البحار، فإن مناخها متطرف ويتميز بتغيرات كبيرة في درجات الحرارة بين الليل والنهار وبين الشتاء والصيف.

وفي حدود العام ٢٠٠ ق.م. اجتمعت في تلك المناطق قوى بشرية متنافرة أدى اجتماعها إلى تحديد الشخصية الأساسية لأقوام آسيا الوسطى. إذ تطور فيها مجتمعان، أحدهما يمثل مجموعة الأقوام المغولية، والآخر يمثل مجموعة الأقوام التركية. وبالرغم من انفصال لغات هاتين المجموعتين وتطور كل منهما في محيطها الخاص، فإن علماء اللغات يشيرون إلى أن هاتين اللغتين المغولية والتركية، انبثقتا من أصل لغوي مشترك واحد، كان يجمعهما في عصور سالفة.

إن الكتابات الصينية القديمة كثيراً ما تشير إلى تعرض الأقاليم الصينية إلى غارات متكررة من قبل تلك الجماعات التي كانت تغير على القرى والمدن الصينية، لتسلب وتنهب وتعود أدراجها لتختفي في القفار الشاسعة. ومن أجل أن يضع أباطرة الصين حداً لغارات أولئك "البرابرة المتوحشين" كما كانوا يدعوهم، اضطروا إلى بناء سور الصين العظيم، الذي لازالت أقسام كبيرة منه قائمة إلى يومنا هذا.

وكان الصينيون يصنفون المغول إلى ثلاثة مجموعات هي:

- التتار البيض الذين كانوا يعيشون بمحاذاة الحدود الصينية الشمالية ويعدوهم أكثر المغول تحضراً.
- ويليهم في التحضر التتار السود الذين يعيشون فيما يلي التتار البيض إلى الشمال.

- ثم التتار المتوحشون سكان الغابات، الذين اعتنقوا الديانة الشامانية، التي نادى بها كاهن من سيبريه يدعى "شامان" وكانت تشمل مجموعة من المفاهيم البدائية التي يدخل السحر فيها.

وفي حدود القرنين السادس والسابع للميلاد، تكونت في تلك السهوب والبوادي، البنية الأساسية للأقوام التركية. الذين هاجروا باتجاه الغرب، وانتشروا في المنطقة التي أطلق عليها اسم "تركستان" . وأقام الترك في مواطنهم تلك، كيانات سياسية مثل دولة كوك ترك وآغور(١).

وفي السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادي (أواخر القرن الثالث الهجري)، هزم المغول قبائل القرغيز التركية، واجبروها على الجلاء من منغولية إلى نهر ينسي، وطردوا قبائل الخطا إلى الحدود الشمالية للصين. وكانت بلاد المغول تكتنفها الفوضى جراء الصراعات القبلية حول المراعي وقطعان الماشية، والسلطة تتنقل بين اتحادات قبلية متنافرة. وفي غمرة تلك النزاعات وفي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي (منتصف القرن السادس الهجري)، ظهر في منغولية شاب يدعى تيموجين ينتمي إلى عائلة نبيلة قديمة من قبيلة مانخول "مغول". وقد تمكن تيموجين هذا، من أن يجمع حوله مجموعات مقاتلة تدين له بالولاء التام. فأخذ نفوذه يزداد حتى استطاع في حدود عام ١١٩٦م (٥٩٣هـ) أن يفرض زعامته على قبيلته المانخول. وقد تعزز ذلك المركز واتسعت سلطته، بعد أن قضى على قبيلة التتار، الأمر الذي أكسبه هيبة ونفوذاً عظيماً. ومضى تيموجين في طريق بسط نفوذه وسلطته، بإتباع سياسة قهر كل قبيلة من أعدائه على انفراد، وهكذا تمكن عبر سلسلة من الانتصارات، من قهر وإخضاع جميع القبائل المعادية، وخصوصاً قبيلتي مركيت ونيمان. وبذلك أصبح تموجين في ظرف عقد من الزمن،

---

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٢٠

الحاكم المطلق بدون منازع لمنغوليا، وأمسك بيده سلطة، لم ينلها أي زعيم قبله في تلك الأصقاع منذ أجيال.

وهكذا أصبح تموجين يرى نفسه المعبر عن إرادة وطموح الشعب المغولي. وفي سنة ١٢٠٦م (٦٠٣ هـ) جسد ذلك النجاح الشخصي الذي لم ينله أحد من قبله، فدعا لعقد اجتماع عام للمغول (قوريلطاي) جرى فيه تنصيبه سيداً لجميع المغول ولقب جنكيزخان، وهو لقب مغولي لا يزال معناه غير واضح لغوياً، وربما يعني ملك الملوك أو ملك الدنيا. وبظهور جنكيزخان الذي وحد قوى المغول، لم يعد رجال القبائل المغولية يهتموا بحملات السلب والنهب فيما بينهم، فقد أثار فيهم وضعهم الجديد، طموحات جديدة في إقامة إمبراطورية عالمية، يتحكمون بسهوبها ومراعيها. وفي تلك الفترة دخل الأويغوريون، الذين كانوا يعدون أكثر الأقوام التركية تحضراً، في طاعة جنكيزخان.

إن مؤهلات جنكيزخان لم تقتصر على عبقريته العسكرية بل تعدت ذلك، إذ برز كمشرع ومنظم للأمة المغولية، فقد جمع ما كان سائداً من نظم وتقاليد قبلية مبنية على تجارب تلك المجتمعات، فرتبها ووسعها ووضعها في إطار قانوني هدفه تنظيم الحياة العامة في المجتمع المغولي. وقد سمي ذلك القانون الأساسي للدولة المغولية "الياسا"، التي احتوت بالإضافة إلى القوانين العسكرية، مواد وفقرات تنظم حياة المغول المدنية. وهكذا انتشرت سمعة جنكيزخان وسادت أنظمته وتعاليمه في جميع أصقاع منغوليا، وأصبح المغول يشعرون بأنهم قوة متفوقة طاغية، وأصحاب رسالة خالدة ستقودهم نحو السيطرة على العالم.

ثم بدأ جنكيزخان بالتحرك في حملات حربية لإرساء دعائم إمبراطوريته العالمية فتوجه نحو الصين ذات الحضارة العريقة، وبعد حملتين متواليتين انهارت في سنة ١٢١٥م الإمبراطورية الصينية الشمالية، التي اكتسحتها جيوش جنكيزخان واستولت على العاصمة بكين. وقد حصل المغول وباستيلائهم على الإمبراطورية الصينية على ممتلكات هائلة، وكنوز ونفائس

لا تقدر. حتى أصبحوا يصنعون خيامهم من الحرير، ويرصعون سيوفهم وأسلحتهم بالجواهر. ولم تقتصر مكاسب المغول على ذلك، بل وجدوا أنفسهم وقد انغمروا في الحضارة الصينية التي تعلموا منها الكثير. فقد وجد الفكر الصيني طريقه إلى "الياسا" التي كانت لب الحياة المغولية، واستوعب المغول المفاهيم الصينية في فنون الحرب، وبدءوا يستعملون في حملاتهم مختلف الأسلحة الصينية وكان أهمها استعمال البارود.

الفصل الأول

حملة جنكيزخان على بلاد الإسلام

لقد أحدثت أنباء انتصارات جنكيز خان واستيلائه على أراضي الإمبراطورية الصينية، دوياً هائلاً في البلاد الإسلامية. ومن المعتقد أن أخبار جنكيز خان، كانت ترد إلى بغداد، في تلك الفترة التي كان فيها أمراء عسكر المماليك يعيشون حالة الخوف الشديد من جبروت القوة العسكرية لدولة خوارزم شاه، التي أصبحت تهدد وجودهم وسلطتهم كمؤسسة عسكرية حاكمة في بغداد. وفي ذلك الجو المفعم بالخوف والقلق وخيبة الأمل، قرر أمراء عسكر المماليك التوجه إلى جنكيز خان وتحريضه على التحرش بدولة خوارزم شاه. ولذا خرج الرسل في تلك الفترة، باسم الخليفة الناصر، من بغداد إلى منغوليا لتحقيق ذلك الهدف.

وفي سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) بدأت جحافل جنكيزخان زحفها باتجاه الغرب واخترقت الحدود الشرقية للعالم الإسلامي. وأخذت تشتبك مع جيوش خوارزم شاه ولم تكد تمر مدة طويلة، حتى سقطت المدن الإسلامية العظيمة في بلاد ما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند. وعلى نهر جيحون حشد علاء الدين خوارزم شاه جيوشاً عظيمة للتصدي لجحافل جنكيزخان، وبادر بشن هجوم واسع على العدو، شارك فيه عشرات الألوف من فرسان الترك المتمرسين في مثل تلك الحروب. ولكن فيالق جنكيزخان نجحت في امتصاص هجمات فرسان خوارزم شاه، ثم تحول المغول إلى الهجوم المعاكس. وسرعان ما

تمكن فرسان المغول من اختراق صفوف جيش علاء الدين وتمزيقه وبعثرة قواه.

ثم اندفعت جحافل المغول بعد ذلك باتجاه خراسان، وساقت أمامها عساكر الخوارزمية بصورة أذهلت المسلمين. إذ كانت الفكرة السائدة في العالم الإسلامي أن جيوش خوارزم شاه لا تقهر. ومما زاد في حيرة البعض مشاهدتهم أعدادا كبيرة من فرسان الترك يتحولون إلى جانب أعداء الإسلام، وينضمون إلى صفوف جيش جنكيزخان ويشاركون معه في الزحف باتجاه الغرب.

وأمام ذلك الانهيار العسكري الغير المتوقع انهارت معنويات علاء الدين خوارزم شاه فتوارى من ميادين المعارك، وأخذ يهرب من مكان إلى آخر مع قلة من أعوانه. وكان جنكيزخان قد أوعز إلى أحد قادة المغول بتعقب علاء الدين، فظل المغول يتعقبونه حتى بلغ شواطئ بحر قزوين. وحينما حاصره المغول استقل أحد المراكب واختبأ في إحدى الجزر النائية، وهناك مرض علاء الدين خوارزم شاه ومات مقهوراً سنة ٦١٧هـ. وقبل وفاته جمع أولاده وأوصى أن يخلفه في قيادة الخوارزميين ولده جلال الدين.

لقد كتب ابن الأثير، الذي عاصر تلك النكبة، في أحداث سنة ٦١٧هـ فقال في خروج التتار إلى بلاد الإسلام:

لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلا وأخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت إن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل أن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها[١] .

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٩ ص٣٢٩

وقد عاش الخليفة الناصر خمسة أعوام بعد تلك الكارثة التاريخية التي هزت مشاعر المسلمين وأدمت قلوبهم، من غير أن يحدث في بغداد أثناء تلك المدة ما يدل على أي اكتراث لما كان يحدث في بلاد الإسلام. إذ استمرت في العراق سياسة الاستحواذ على أملاك الناس وسلبهم أموالهم وأراضيهم. ففي سنة ٦١٦هـ وبينما كانت جحافل المغول تتوغل في بلاد الإسلام، جهزت سلطة بغداد حملة عسكرية ضد بني معروف. كتب ابن الأثير:

في هذه السنة في ذي القعدة أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معدا متولي بلاد واسط أن يسير إلى قتال بني معروف فتجهز وجمع معه من الرجالة من تكريت وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقاً كثيراً وسار إليهم ومقدمهم حينئذ معلى ابن معروف وهم قوم من ربيعة وكانت بيوتهم غرب الفرات تحت سوراء وما يتصل بذلك من البطائح وكثر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى وقطعوا الطريق وأفسدوا في النواحي المقاربة لبطيحة الغراف فشكا أهل تلك البلاد الديوان منهم فأمر معداً أن يسير إليهم في الجموع فسار إليهم فاستعد بنو معروف لقتاله فاقتتلوا بموضع يعرف بالمقبر وهو تل كبير بالبطيحة يقرب الغراف وكثر القتل بينهم ثم انهزم بنو معروف وكثر القتل فيهم والأسر والغرق وأخذت أموالهم وحملت رؤوس كثيرة من القتلى إلى بغداد في ذي الحجة من السنة.

يبدو مما كان يحدث في العراق، أن أمر البلاد كان بيد أمراء المماليك، خاصة في السنوات الأخيرة لخلافة الناصر الذي فقد بصرة وأنشل عن الحركة حتى وفاته في سنة ٦٢٢هـ. وهذا ما تشير إليه كتابات المؤرخين الذين عاصروه كابن الأثير الذي تناول سيرته بعد وفاته في سنة ٦٢٢هـ فقال:

... وكانت خلافته ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوماً وكان عمره نحو سبعين سنة... وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة بالكلية وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً وفي آخر الأمر أصابه دوسنطارية عشرين يوماً ومات... ولم يطلق في طول مرضه شيئا كان أحدثه من الرسوم الجائرة. وكان قبيح السيرة في رعيته ظالما. فخرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشيء وضده... وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[(١)].

وأيد رواية بن الأثير عدد من الكتاب ومنهم المقريزي الذي قال عن الناصر:

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج٩ ص٣٦١

وفي خلافته خرب التتار بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همدان، وكان هو السبب في ذلك، فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفا من السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه لما هم بالاستيلاء على بغداد وان يجعلها دار ملكه كما كانت السلجوقية[(١)] .

وبعد وفاة الناصر سنة ٦٢٢هـ تولى الخلافة ابنه الظاهر بأمر الله. وقد حاول الظاهر إصلاح بعض ما فسد من الأمور فرد إلى الناس بعض ما اغتصب منهم وخفف عن كواهلهم بعض الضرائب، غير أن خلافته لم تدم سوى بضعة أشهر إذ توفي سنة ٦٢٣هـ، ثم تولى بعده المستنصر بالله الذي دامت خلافته سبعة عشر عاماً. ويقال بأن المستنصر كان عادلاً وله مقدرة على تصريف الأمور غير انه لم يتمكن طيلة سنين خلافته اتخاذ أي إجراء يمكن أ ن يساعد الشعوب الإسلامية على الخروج من محنتها، بينما استمر في عهده التوسع في الإقطاع العسكري. فقد أقطع الخليفة المستنصر بالله الأمير علاء الدين الطبرسي، المعروف بالدويدار الكبير منطقة قوسان، وكانت تشمل نهراً عليه مدناً وقرىً بين النعمانية وواسط وكانت قبل ذلك بيد غيره.

جلال الدين خوارزم شاه

أما السلطان الشاب جلال الدين خوارزم شاه، فقد سار بعد وفاة والده علاء الدين إلى غزنة. وهناك انضمت إليه جماعات كبيرة من العساكر الخوارزمية المشتتين بين كابل وبيشاور وانظم إليه مقاتلون مسلمون من مختلف الأجناس بلغت أعدادهم السبعين ألف فارس وما يماثلهم من المشاة. وفي ربيع سنة ٦١٨هـ اشتبك جلال الدين في السهول شمال شرق غزنة، بجيش مغولي وبعد معركة طاحنة تمكن جلال الدين من إنزال هزيمة منكرة بذلك الجيش الذي تكبد خسائر كبيرة بالأرواح. أما من نجا من المغول فقد فر باتجاه الشرق، وظل فرسان جلال الدين خوارزم شاه يطاردونهم حتى اجتازوا نهر

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ، ص٧٢

جيحون. وبعد ذلك الانتصار، باشر جلال الدين في التحضير والاستعداد للمعارك القادمة.

وبالقرب من بروان هاجم جلال الدين جيشاً مغولياً آخر ودارت هناك رحى معركة عنيفة تواصلت ليومين تمكن أثنائها رجال جلال الدين من القضاء على أعداد كبيرة من المغول. وبعد ذلك توالت انتصارات جلال الدين وانتشرت أخبارها في البلاد الإسلامية، فأنعشت الآمال وحفزت همم الرجال، فثار أهل هراة وقتلوا الحاكم المغولي. وعلى إثر ذلك هاجم المغول المدينة ودمروها وذبحوا سكانها. أما جلال الدين فقد واصل التصدي للمغول والاشتباك بهم. وبينما كان الصراع على أشده حدث انقسام قبلي خطير في جيش جلال الدين جراء حادثة جانبية انشق على إثرها أمير قبيلة تركية وعاد إلى بلاده فتبعه آلاف من المقاتلين، فكان ذلك الانشقاق، بمثابة ضربة قصمت ظهر المقاومة، عجز جلال الدين بعدها عن الوقوف بوجه جيوش جنكيزخان، فأخذ يتقهقر أمامها حتى وصل شواطئ نهر السند، وهناك أحاطت به جموع المغول. وتشير الروايات بأن جلال الدين وقف للمغول وقفته الأخيرة وقاتلهم ببسالة من الفجر حتى منتصف النهار، وفي أثناء ذلك أسر المغول ابنه، وكان في السابعة من عمره، فقتل بين يدي جنكيزخان الذي كان يشرف على إدارة المعركة.

وحينما شعر جلال الدين باقتراب النهاية وخاف على عياله من الأسر، أتى بوالدته وأم ابنه وباقي النساء وأمر رجاله بإغراقهن في مياه نهر السند، ثم اندفع نحو الشاطئ ونزع درعه ورماه جانباً وامتطى صهوة جواده واقتحم مياه النهر يتبعه رجاله، وجنكيز خان ومن حوله أولاده يتابعون المشهد بذهول(١).

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص١٣٥

عودة جلال الدين

بعد أن اجتاز جلال الدين خوارزم شاه نهر السند وتوغل داخل الأراضي الهندية، قرر جنكيزخان العودة إلى منغوليا، بعد أن علم باندلاع ثورات ضده في شمال الصين والتبت. وبعد تحرك جنكيزخان باتجاه الشرق بدأ المغول انسحابهم من العديد من المناطق التي استولوا عليها، وبعد ذلك انشغلوا في مشاكلهم الداخلية.

أما جلال الدين خوارزم شاه فقد أعاد في تلك الأثناء بناء جيشه. وفي سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) وهو العام الذي توفي فيه الخليفة الناصر، اجتاز جلال الدين مياه السند مرة أخرى وعاد ليواصل الكفاح لاستعادة ملكه. فأخذ يقتحم البلدان ويركب المخاطر وخاض أثناء ذلك سلسلة من المعارك أبدى أثناءها ضروباً من الشجاعة والإقدام. غير أن سياسته بعد عودته، خلت من الحكمة وبعد النظر، وغلبت عليها روح الانتقام. فبدل أن يستغل ضعف قبضة المغول في البلاد، وابتعاد كابوسهم المرعب عن نفوس المسلمين، ويعمل على جمع الكلمة وتوحيد الصفوف، نراه يعلن الحرب على الجميع و يهاجم وينكل بأمراء الأقاليم الذين استغلوا الفراغ العسكري بعد انسحاب المغول فاستقلوا بأقاليمهم. فاقتحم بجيشه الحديث التكوين بلاد فارس وكرمان ويزد، وأخضع عدداً من أتابكة تلك الأقاليم. وبعد ذلك خضعت له إصفهان، ثم سار نحو خوزستان واشتبك مع جيش الخليفة العباسي وهزمه. وبينما كان جلال الدين خوارزم شاه منشغلا في حروبه وتوطيد نفوذه، توفي جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ. ومر عامان والمغول بدون قيادة مركزية، مما سهل على جلال الدين خوارزم شاه بسط سيطرته على أقاليم دولة خوارزم وبدا وكأنه نجح في بعث تلك الدولة القوية من جديد. ثم سار نحو أذربيجان واستولى على العاصمة تبريز، وبعد ذلك استولى على بلاد الكرج ودخل عاصمتهم تفليس.

في سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) هاجم جلال الدين بلاد قهستان جنوب بحر قزوين، وألزم الإسماعيلية قلاعهم. غير أنه لم يقف عند ذلك الحد، ففي سنة

٦٢٧هـ (١٢٣٠م) توغل في إقليم أعالي دجلة، واستولى على مدينة خلاط، التي كانت من أملاك السلطان الأشرف موسى صاحب دمشق. وعلى إثر ذلك أقام الأشرف حلفا عسكريا ضد جلال الدين، انضم إليه عدد من حكام المماليك ومنهم أمراء الموصل، وانضم إليه كذلك سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباد. وخاضت جيوش ذلك الحلف الحرب ضد جلال الدين خوارزم شاه وتمكنت من دحره واستخلاص مدينة خلاط من يديه.

وبينما كانت نيران الحروب تستعر بين سلاطين المسلمين انشغل المغول في ترتيب أمورهم الداخلية وحل مشاكلهم التي أعقبت وفاة جنكيزخان. وفي سنة ٦٢٦هـ اجتمع أولاد جنكيزخان وانتخبوا من بينهم (اوكتاي) ونصبوه خاناً أعظم لجميع المغول. وقد حدث ذلك في عهد المستنصر بالله الذي تولى الخلافة سنة ٦٢٣هـ.

نهاية جلال الدين خوارزم شاه

وقد حرص اوكتاي على إتباع وصية والده جنكيزخان في الاستمرار في إنجاز مخططاته في الاستيلاء على العالم. فعهد إلى قائد مغولي بارز يدعى "جرماغون" بقيادة حملة مغولية جديدة تتجه نحو الغرب للقضاء على جلال الدين.

ويبدو أن بعض الكتاب الذين عاصروا تلك الأحداث ربطوا بين تلك الحملة المغولية وما كان يحدث على الساحة الإسلامية من حروب ونزاعات. فابن الأثير يشير إلى أن مقدم الإسماعيلية هو الذي كاتب المغول هذه المرة وحثهم على قتال جلال الدين خوارزم شاه، إذ يقول بهذا الصدد:

... فلما كان الآن وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ ومن الأشرف... أرسل مقدم الإسماعيلية الملاحدة إلى التتار يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه ويحثهم على قصده..."

ثم **يعقب ابن الأثير بقوله:**

"وكان جلال الدين سيئ السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته. فمن ذلك أنه أول ما ظهر في إصفهان وجمع العساكر قصد

خوزستان فحصر مدينة ششتر وهي للخليفة وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر وهي للخليفة أيضا. ثم ملك أذربيجان وهي لأزبك، وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم. ثم عادى الملك الأشرف صاحب خلاط، ثم عادى علاء الدين صاحب الروم وعادى الإسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة. فكل من الملوك تخلى عنه...[1].

حينما اقتربت جيوش المغول وشعر جلال الدين خوارزم شاه بالخطر يطبق عليه، وأحس بضعفه أمامهم، أخذ يكاتب سلاطين المسلمين وحكامهم، يستنجدهم ويدعوهم لنجدته والوقوف في وجه أعداء الإسلام. ومما كان يقوله لهم في كتبه حسب رواية المؤرخ والوزير عطا ملك الجويني:

إن جيشاً جراراً من عساكر التتار كأنه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا. فإذا ترك وشأنه فسوف لا تصمد أمامه القلاع والأمصار. وقد تمكن الرعب من قلوب الناس في هذه المنطقة. فإذا هزمت وخلا مكاني من بينكم، فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو. وإذن فأنا لكم بمثابة سد الإسكندر. فليسارع كل منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود، حتى إذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم وفت في عضدهم فيتشجع جنودنا ونقوى عليهم .

بالرغم من خطورة ذلك الوضع، لم يستجب أحد لاستغاثات جلال الدين خوارزم شاه، لا خليفة بغداد، ولا سلاطين المسلمين وحكامهم، بل تركوه وحده يواجه مصيره المحتوم. وفي تلك الأثناء كان المغول يستهدفون جلال الدين ويركزون جهودهم للقضاء عليه. فهاجم جرماغون أقاليم جلال الدين واستولى على الري ثم همدان وواصل الزحف حتى حدود أذربيجان. وكان جلال الدين خوارزم شاه، يناوش عسكر المغول وينسحب من موضع لآخر، وهم يلاحقونه حتى انتهى به المطاف في موضع من أعالي دجلة.

هناك وقف جلال الدين للمغول وقفته الأخيرة، واشتبك معهم في معركة قاسية انتهت بتمزيق جيشه بعد أن تكبد خسائر فادحة بالأرواح. غير أن جلال الدين نجا وتمكن من الفرار من ساحة المعركة، وظل يتنقل مختفياً من مكان إلى آخر، حتى دخل جبال الأكراد حيث لقي مصرعه على يد أحد رجال الأكراد، وكان ذلك في سنة ٦٢٨هـ. وبعد أن سحق المغول جيش

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٩ ص٣٨٣

الخوارزميين وقتلوا جلال الدين، هنأ جماعة من الأعيان الملك الأشرف صاحب دمشق فأجابهم قائلاً:

تهنؤنني بهذا سوف ترون غب هذا،والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين ياجوج وماجوج[١] .

الخان الأعظم أوكتاي

وبعد أن قضى المغول على جلال الدين خوارزم شاه قسموا قواتهم إلى ثلاثة جيوش. سار أحدها واستولى على ديار بكر وارزن الروم وماردين وسنجار وتقدم حتى شواطئ الفرات. أما الجيش الثاني فقد سار نحو مدينة بدليس واستولى عليها وأحرقها ثم استولى على عدد من القلاع حول خلاط. وتقدمت أرتال من المغول وهاجمت نصيبين والخابور وتقدم رتل آخر حتى أربيل ودقوقا، غير أن زحف المغول توقف عند ذلك الحد. أما الجيش الثالث فقد سار نحو أذربيجان واستولى على العاصمة تبريز في سنة ٦٢٩هـ. لقد كتب تاجر من أهل الري كان مع المغول في أذربيجان إلى أصحاب له في الموصل:

إن الكافر لعنه الله ما نقدر نصفه وكثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين. إن الأمر عظم ولا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور والطائفة الأخرى التي وصلت إلى أربيل ودقوقا كان قصدهم النهب إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وإن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم[٢] .

في سنة ٦٣٤هـ عاود المغول هجماتهم على العراق. إذ تقدمت قوة مغولية نحو دجلة وواصلت زحفها حتى بلغت مدينة سامراء، وفي هذه المرة خرج من بغداد جيش المماليك وكان على رأسه الدويدار، أكبر قادتهم فتصدى لتلك القوة في موقع ما بين نهر دجلة وجبل حمرين وتمكن من ردها. وبالرغم من

---

(١)د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص١٥

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٩ ص٣٨٦

أن المغول انسحبوا بعد ذلك الاشتباك، فإنهم أعادوا الكرة في سنة ٦٣٥هـ. وتقدموا في هذه المرة حتى خانقين واشتبكوا هناك مع جيش المماليك وأنزلوا به هزيمة منكرة. أما الدويدار فقد فر مع من نجا من عساكره إلى بغداد. ولكن المغول لم يتقدموا نحو بغداد مركز الخلافة العباسية.

باتو والقبائل الذهبية

اتجهت أنظار المغول وجهودهم في تلك المرحلة نحو أوربا، التي كانت حسب وصية جنكيزخان من نصيب ولده (جوجي). ولذا فقد تقدمت في تلك المرحلة جموع مغولية كبيرة بقيادة (باتو) ابن جوجي، وبدأت استيلائها على مملكة بلغار الفولجا، الواقعة في وسط حوض نهر الفولجا الذي يصب في بحر قزوين. وبذلك مهد باتو السبيل للاستيلاء على ممالك الروس. وفي السنة التالية اكتسحت جيوش باتو الدويلات الروسية في أعالي منطقة الفولجا. أصيب أمراء الروس بالذهول من تفوق المغول العسكري الذي أفقدهم القدرة على الصمود فأخذت المواقع الروسية تسقط تباعاً. وهكذا سقطت بيد المغول دويلات موسكو، وموروم، وباروسلاف، وغيرها من الإمارات الصغيرة في منطقة الفولجا[١]... غير أن الظروف المناخية حالت دون مواصلة المغول تقدمهم شمالاً نحو أقاليم بحر البلطيق فتحول هجومهم نحو الجنوب.

وفي سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) استولى المغول على مدينة كييف مركز دولة (روس) آنذاك. ثم تقدم الجيش المغولي واستولى على الأقاليم البولندية الألمانية، بعد أن سحق في سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) الجيش الألماني البولندي المشترك. وفي أثناء ذلك اكتسحت قوات مغولية أخرى الأراضي الهنغارية. وبعد أن هيمن المغول على تلك الأقاليم الشاسعة قرر باتو أن يتخذ من

(١) برتولد شبولر - العالم الاسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٣٦

السهول الممتدة من الدانوب حتى سهوب نهر الفولجا العليا والوسطى مستقراً للقبائل المغولية التابعة له والتي أصبحت تعرف باسم "القبائل الذهبية".

وحينما اشتدت النزاعات الدائرة بين سلاجقة الروم حكام آسيا الصغرى، وحكام المماليك في الشام ومصر، استغل المغول تلك النزاعات الإسلامية، فتحرك في سنة ٦٣٩هـ جيش مغولي كبير نحو مدينة أرزن الروم، وهاجم جيش غياث الدين كيخسرو ابن علاء الدين كيقباذ سلطان دولة سلاجقة الروم، وأنزل به هزيمة سقطت على إثرها المدينة التي تعرض سكانها للقتل والأسر. غير أن غياث الدين جهد في إعادة بناء جيش قوي حشد فيه فرقاً أجنبية ومرتزقة، وعاد في السنة التالية لمحاربة المغول. لكن المغول انتصروا على جيشه مرة ثانية، مما اضطره للهرب والتحصن بمدينة (انقورة). وكنتيجة لتلك الانتصارات، وقعت أقاليم الأناضول في قبضة المغول، مما اضطر السلطان غياث الدين إلى الاستسلام وإعلان خضوعه لسلطان المغول. وبذلك تحولت دولة سلاجقة الروم إلى إقليم تابع إلى الإمبراطورية المغولية، وأصبح سلاطين السلاجقة وأمراؤهم يتولون الحكم بمرسوم مغولي[١].

في تلك الفترة توفي في قرة قورم الخاقان الأعظم (اوكتاي). وعلى إثر ذلك اضطربت أحوال المغول بسبب اختلاف أولاد جنكيزخان حول من يتسنم منصب الخاقان الأعظم. وبدأت جموع المغول تنسحب باتجاه الشرق. فقرر باتو الانسحاب من مواقعه المتقدمة في أوربا والتمركز في المنطقة الممتدة من السواحل الشمالية للبحر الأسود وعلى طول ضفاف نهر الفولجا. انتظاراً لما سيحدث حول مسألة اختيار الخان الأعظم. وحينما استقر رأي أكثرية الأمراء على ترشيح حفيد جنكيزخان (كيوك)، لم يلق ذلك قبولا عند أمير القبائل الذهبية (باتو). ولذلك لم يحضر الاجتماع العام الذي عقد في سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) والذي تم فيه انتخاب (كيوك) خاقاناً أعظم للمغول.

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص١٨٣

الخان الأعظم كيوك

تسلم (كيوك) مقاليد السلطة العليا في الدولة ولم يكن قد مضى على وفاة مؤسسها جنكيزخان أكثر من عشرين عاماً. وقد أظهرت مراسيم تنصيبه ما حققه المغول في تلك الفترة القصيرة نسبياً. إذ تحولوا أثنائها من أقوام معزولين في أقصى براري وسهوب آسيا، إلى قوة جبارة عظمى امتدت سطوتها عبر قارة آسيا، حتى آسيا الصغرى وعبر سهوب روسيا حتى نهر الدانوب. وقد ظهرت تلك الحقيقة في طبيعة وحجم الحضور العالمي في تلك المناسبة، إذ حضرها سلاطين وأمراء وحكام ومندوبون جاءوا محملين بالهدايا من جميع أنحاء الدنيا. ولم يقتصر ذلك الحضور على حكام البلاد التي استولى عليها المغول بل على آخرين غيرهم. فقد حضر مراسيم انتخاب الخاقان الأعظم، أمراء الخطا وحاكم التركستان وبلاد ما وراء النهر وحاكم خراسان، ورسل عن أتابكة كرمان وفارس والموصل وعن مملكة الكرج، وحضر كذلك سلطان سلاجقة الروم. ومن بغداد جاءت بعثة نيابة عن الخليفة العباسي، وجاءت بعثة أخرى من بلاد الجبل نيابة عن علاء الدين، إمام دولة الإسماعيلية صاحب قلعة الموت.

ومما يذكر أن الخاقان الأعظم الجديد، عامل رسول خليفة بغداد المستعصم بالله معاملة حسنة، ولكنه صب جام غضبه على مبعوث إمام الإسماعيلية ورده رداً مهيناً[١]. أما رسول البابا فقد حضي باستقبال ودي لأن كيوك كان يميل إلى المسيحية بتأثير من أمه التي اعتنقت المسيحية على المذهب النسطوري. ولكنه حينما اطلع على رسالة البابا التي دعاه فيها إلى المسيحية، رد عليها بأن طلب من البابا، أن يحضر بنفسه إلى قرة قورم ويصحب معه سائر أمراء الغرب ليقسموا أمامه يمين الولاء والتبعية. وبالرغم من ذلك فقد

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص١٩٧

تميز عهد كيوك بازدياد نفوذ المسيحيين في البلاط، خاصة بعد تنصر اثنين من الوزراء. فصار يقصد بلاطه القساوسة والرهبان من مختلف الأصقاع.

وفي تلك الأثناء كان أمير القبائل الذهبية (باتو) يتصرف بإمبراطوريته بصورة مستقلة ولذا قرر كيوك، الذي عرف عنه ميله للحرب أن يخضعه بالقوة. فجهز جيشاً كبيراً وسار على رأسه باتجاه الغرب، ولكنه توفي بالقرب من سمرقند وكان ذلك في سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) وبوفاته خلا مرة أخرى منصب الخاقان الأعظم. في تلك الفترة كان (باتو) قد اتخذ لنفسه مقراً في منطقة نهر الفولجا قرب مدينة أستراخان جنوب روسيا، وبنى لنفسه هناك عدداً من القصور. ولم يمض وقت طويل حتى اخذ ذلك الموقع مظهر المدينة الناشئة التي يؤمها التجار من مختلف الأصقاع، وقد سميت تلك المدينة (ساراي القديمة).

وبذلك شيد "باتو" أول مركز حضري للمغول خارج حدود بلادهم، واصبح ذلك المركز بمثابة العاصمة لإمبراطورية مغولية جديدة خاصة بالقبائل الذهبية، التي سيطرت على أفضل السهوب الرعوية، التي تمتد عبر روسيا وحتى ضفاف الدانوب في قلب أوربا.

وبمرور الزمن تحولت عاصمة باتو إلى مركز رئيسي للتجارة العالمية، فأخذ يقصده بصورة متزايدة التجار المسلمون، خاصة من شبة القارة الإيرانية. وبذلك اتسعت وتعمقت علاقات العالم الإسلامي بمغول القبائل الذهبية. وعبر تلك العلاقات الإنسانية المباشرة تسنى للمغول التعرف على أحوال المسلمين وعقائدهم وعلى مفاهيم الإسلام، فأخذت أعداد كبيرة منهم تنبذ العقائد المغولية البدائية وتتحول إلى الإسلام. وهكذا شهدت عاصمة باتو، أول تقارب حميم على المستوى الشعبي بين المغول الذين استقروا في سهوب روسيا والحضارة الإسلامية. وقد حدث ذلك قبل حملة هولاكو على العالم الإسلامي.

الفصل الثاني

حملة هولاكو على بلاد الإسلام

وفي سنة ٦٤٩هـ (١٢٥١م) تولى "منكو" السلطة وباشر في تنفيذ وصايا جده جنكيزخان التي كانت تستهدف الاستيلاء على العالم. وتمشياً مع تلك السياسة أكملت الجيوش المغولية احتلالها لأقاليم الصين، ثم بدأت الاستعدادات لحملة جديدة تسير باتجاه الغرب نحو العالم الإسلامي. وقد أوكل الخان الأعظم أمر الحملة الغربية إلى أخيه هولاكو. ولأهمية تلك الحملة حرص الخان الأعظم على أن تجرى الاستعدادات لها على أدق وأعلى المستويات العسكرية. فضم إلى جيش أخيه هولاكو، خيرة الفرق العسكرية المتمرسة في مختلف أنواع الحروب. وكون له حرساً خاصاً تم انتقاء رجاله من بين خيرة المقاتلين المغول. وألحق بذلك الجيش فرقاً خاصة مدربة من القره خطائيين من صناع المنجنيقات وقاذفات اللهب ورماة السهام والمتخصصين بإصلاح آلات الحرب.

وقبل تحرك تلك الحملة بعث بالرسل والمرشدين لمسح الطرق وتحضير كل ما يلزم الجيش أثناء زحفه، فأقيمت الجسور على مجاري الأنهار السريعة، وهيئوا القوارب والسفن في المواقع التي يحتاج إليها الجيش من أجل العبور. ووضعوا أيديهم على المزارع والمراعي التي كان من المتوقع مرور الجيش بها، ونظموا بعناية تموين ذلك الجيش من مختلف أصقاع الإمبراطورية.

ثم رسم الخان الأعظم لأخيه هولاكو الخطوط الرئيسية للسياسة التي عليه إتباعها فقال له:

انك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها فازحف بها من توران إلى إيران. وعليك أن تحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه، وخص بعطفك ولطفك من يطيع أمرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من نهر جيحون حتى أقاصي بلاد مصر. وأما من يعصيك فأغرقه في الذل والمهانة هو ونسائه وأبنائه ومن يتعلق به. وابدأ بإقليم قهستان (بلاد الجبل) في خراسان فخرب القلاع والحصون. وإذا فرغت من هذه المهمة فعليك أن تتوجه إلى العراق. وأزل من طريقك الأكراد واللر، الذين يقطعون الطرق على سالكيها.

وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين. وينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد وان تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً وان تخفف على الرعية التكاليف والمؤن وان ترفه عنهم. وثق انك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة [(١)].

وفي سنة ٦٥١هـ (١٢٥٣م) تحرك هولاكو على رأس جيشه متجهاً نحو الغرب، وكان بمعيته أولاده الكبار "يشموت" و "أباقا" وأخذت الفيالق تتحرك من مختلف المواقع التي كانت ترابط فيها.

يشير عطا ملك جويني عن وقع أخبار جيوش هولاكو في العالم الإسلامي فيقول:

"أخذت الجبال تهتز وقلوب الملوك ترتجف..."[(٢)].

وفي أثناء زحفه أسرع الوزير الأعظم مسعود بك، مع أمراء ما وراء النهر وخراسان إلى لقاء هولاكو، وبعد أن قدموا له فروض الطاعة التحقوا بركبه. ولما اقترب هولاكو من سمرقند في سنة ٦٥٣هـ اقبل عليه الأمير أرغون وغالبية عظماء خراسان وقدموا له الهدايا. وبعد ذلك وجه هولاكو رسائل إلى مختلف حكام وملوك وسلاطين المسلمين يقول لهم فيها، حسبما ذكر المؤرخ رشيد الدين في كتابه "جامع التواريخ":

لقد أتينا هنا بأمر الخان الأعظم وعزمنا على تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء على تلك الطائفة[(١)]. فإذا ساهمتم معنا في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات، فسوف تبقى لكم ولاياتكم

---

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص٢٣٣. كذلك د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص٤٧

(٢) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص٤٧

وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم موافقكم، أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر، فإننا حين نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الملاحدة، فسوف لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم... (٢).

وما أن استلم أولئك الأمراء والسلاطين رسائل هولاكو حتى سارعوا في إعلان خضوعهم واستعدادهم للامتثال لأوامره، وكان أول من رحبوا بهولاكو وأعلنوا خضوعهم له، شمس الدين كرت ملك هراة، وأبو بكر سعد بن زنكي أتابك فارس ومن سلاجقة الروم السلطان كيكاوس الثاني والسلطان قلج أرسلان الرابع.

القضاء على دولة الشيعة الإسماعيلية

وهكذا واصلت جيوش هولاكو زحفها في بلاد الإسلام دون أي مقاومة تذكر حتى دخلت إقليم قهستان الجبلي حيث دولة الشيعة الإسماعيلية. وكان رجال الإسماعيلية يتحصنون فيه في قلاع منيعة يبلغ تعدادها الخمسين قلعة، كان أشهرها وأمنعها ثلاثة قلاع هي، "ميمون دز" و "لنبه سر" و "قلعة الموت" التي كانت أكبر تلك القلاع وأمنعها، ولذا اتخذها أئمة الإسماعيلية مقراً وعاصمة لهم. وحينما بدأت الجيوش المغولية تضرب حصارها حول قلاع الإسماعيلية، بادر هولاكو وبعث رسولاً إلى خليفة بغداد المستعصم بالله العباسي يطلب منه إرسال قوات عسكرية لتساهم في القتال ضد الإسماعيلية. وتشير بعض الروايات أن الخليفة المستعصم بالله أراد أن يسير قوات إلى هولاكو، ولكن أمراء العسكر المماليك رفضوا الانصياع لأمر الخليفة، ولم يمكنوه من ذلك وقالوا: إن هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجاً إلى نجدتنا

---

(١) الاسماعيلية: الطائفة الشيعية التي تقول بإمامة اسماعيل الابن البكر للإمام جعفر الصادق والذي توفي في حياة والده وبذلك تحجب الإمامة عن موسى بن جعفر. وقد أقام رجال تلك الطائفة دولة لهم في اقليم قهستان الجبلي جنوب بحر قزوين وذلك بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص٢٣٧.

وإنما غرضه إخلاء بغداد من الرجال ليملكها بسهولة فتقاعد الخليفة عن إرسال الجنود.

وفي تلك الأثناء كان إمام الإسماعيلية ركن الدين محمود، يقيم في قلعة ميمون دز مع رئيس حكومته الذي كان يدعى رئيس الدولة والطبيب موفق الدولة وعدد آخر من أركان حكومته. وكان ينزل معهم كذلك، نصير الدين الطوسي العالم الكبير في العلوم الإسلامية والفلسفة والرياضيات، وكان الشيخ الطوسي قد لجأ إلى قلاع الإسماعيلية في أواخر سنة ٦٢٥هـ أي قبل حملة هولاكو بـ ٢٨ عاماً، ليبتعد عن أجواء الرعب والقلق التي سادت أقاليم خراسان منذ حملة جنكيزخان[١].

بعد أن استولت جيوش هولاكو على عدد من قلاع الإسماعيلية أحكمت حصارها على قلعة ميمون دز حيث ينزل إمام الإسماعيلية، وأخذت تهاجم القلعة بكل ما لديها من آلات دمار بقصد اقتحامها، غير أن محاولات المغول باءت بالفشل، وهكذا طال أمد الحصار. ومع مرور الزمن دب اليأس في نفوس المدافعين وزادت قناعة رجال الدولة وأهل الرأي بعدم جدوى تحدي ذلك العدو الجبار، مما اضطر ركن الدين محمود أن يبعث إلى هولاكو وفداً عالي المقام محملاً بالهدايا ليعرض عليه رغبة حكومته في الركون إلى السلم. وبعد يومين نزل ركن الدين محمود، وسلم نفسه إلى هولاكو. وبعد استسلام إمام الإسماعيلية وسقوط قلعة ميمون دز، تحولت جهود المغول وتركزت هجماتهم على قلعة الموت. وبالرغم من النداءات التي بعث بها المغول وإمام الإسماعيلية إلى القائد العسكري لقلعة الموت، فان القائد رفض الرضوخ وتسليم القلعة واستمر في الدفاع والتصدي لهجمات المغول الشديدة. واستمرت المعارك العنيفة بين الطرفين لثلاثة أيام متواصلة، وفي اليوم الرابع بادر

(١) د. عبد الأمير الأعسم - الفيلسوف نصير الدين الطوسي مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامى ص٣١

هولاكو فبعث إلى المحاصرين بمنشور أمنهم فيه على حياتهم بشرط أن يستسلموا فوراً. وعلى إثر ذلك أعلن القائد العسكري للقلعة استسلامه ونزل وسلم القلعة إلى القائد المغولي.

ويروى أن هولاكو كان قد قطع على نفسه عهداً، أن يؤمن حياة إمام الإسماعيلية في حالة استسلامه. ولذا فقد عامله معاملة حسنة واختار له مدينة قزوين لتكون مقراً لإقامته مع أتباعه، وبعد ذلك سفّره إلى عاصمة المغول قرة قرم. غير أن الخان الأعظم بعث من قتله قبل وصوله العاصمة.

وبعد أن تسلم المغول قلعة الموت صعدت إليها عساكرهم وأمهلوا السكان ثلاثة أيام لنقل أمتعتهم، وفي اليوم الرابع اقتحم العساكر القلعة، وبدأت عمليات الحرق والتدمير ونهب الأموال والكنوز. ومما يذكر بهذا الصدد، أن عطا ملك الجويني التمس من هولاكو أن يسمح له أن يطلع على محتويات مكتبة الإسماعيليين التي كانت شهرتها قد طبقت الآفاق. وبعد أن أذن له هولاكو ذهب الجويني وأخرج منها مجموعة قيمة من المصاحف والمخطوطات والكتب النفيسة، ومختلف آلات الرصد والإسطرلابات وغيرها. ومن بين الكتب التي أخرجها الجويني، كتاب يشرح أحوال وتاريخ مؤسس دولة الإسماعيلية في قهستان الحسن ابن الصباح، الذي جاء من مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية، وتاريخ خلفائه من بعده وعنوانه "سركزيشت سيدنا" أي سيرة سيدنا، والذي حوى معلومات تاريخية مهمة عن تلك الطائفة الشيعية. وقد استعرض الجويني خلاصة ذلك الكتاب في الجزء الثالث من كتابه "تاريخ جهانكشاي". وبذلك حفظ الجويني من الضياع جانباً من التاريخ الإسلامي، وبعد ذلك تم حرق تلك المكتبة بما فيها من كتب ومخطوطات ووثائق[1].

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص٢٤٣ وكذلك المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ ص١٥٤

هولاكو والمستعصم بالله العباسي

تولى المستعصم بالله الخلافة في سنة ٦٤٠هـ أي بعد حملة جنكيزخان على بلاد الإسلام بحدود ربع قرن هجري، ودامت خلافته قرابة ستة عشر عاماً انتهت بالقضاء عليه وعلى الدولة العباسية. وفي سنين خلافته استمر تدهور أوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية وازدادت الفتن وانتشرت الفوضى.

إن تلك الأوضاع السيئة لم تكن في حقيقة الأمر من صنع الخليفة المستعصم بالله، بل كانت نتيجة طبيعية للإرث التاريخي الذي آل إليه، وإلى الجيل الذي عاصره من أهل العراق. ذلك الإرث الذي تمثل في ظاهرة تسلط عسكر المماليك الترك على مؤسسة الخلافة العباسية، والذي أخذ طوراً جديداً بعد الغزو المغولي لبلاد الإسلام. فبعد أن سيطر المغول على الأقاليم الإسلامية إلى الشرق من العراق، وعلى آسيا الصغرى وسهوب روسيا وشرق أوربا، تحولت خطوط التجارة العالمية بين الشرق والغرب بعيداً عن العراق. فقد انتعشت خطوط التجارة المارة شمال بحر قزوين، عبر إمبراطورية القبائل الذهبية نحو الغرب. وقد ضاعفت تلك التحولات العزلة السياسية التي حاقت بالعراق، إذ تقلصت النشاطات التجارية والاجتماعية بين دار الخلافة والشرق الإسلامي، وكان من إفرازات ذلك الوضع انكماش تجارة الرقيق القادم من بلاد الترك عبر خراسان إلى العراق وبلاد الشام. ولما كانت تلك التجارة المصدر الأساسي لتزويد المؤسسة العسكرية في العراق بأجيال جديدة من المجندين المماليك، فإن نضوب ذلك المصدر بسبب انقطاع العلاقات كان له آثار سلبية على قدرة وفعالية وحجم فرق المماليك العسكرية في العراق.

ومما زاد في تفاقم تلك الظاهرة تدهور أوضاع البلاد الاقتصادية وشحة موارد الدولة. مما انعكس سلباً على أعطيات الجنود وأرزاقهم، وهذا بدوره أدى إلى انخفاض معنويات أولئك الجنود وأوجد حالة من عدم الاستقرار والتذمر فيما بينهم. فبعد قليل من تولي المستعصم بالله الخلافة سنة ٦٤٠هـ، تمردت طائفة من عساكر المماليك الترك مطالبين بزيادة أعطياتهم، ولما رفض مقدم

العسكر الشرابي مطالبهم، حاولوا الإخلال بالأمن ثم خرجوا إلى ظاهر بغداد على نية الرحيل من البلاد. لكنهم عادوا وسألوا الصفح عنهم بعد ما اجتمع بهم أحد الشيوخ الزاهدين وعرفهم ما في عملهم من مخالفة للشرع الحنيف[١].

غير أن حالة عدم الاستقرار والتذمر لم تقتصر على المجندين من المماليك، بل كانت ظاهرة عامة شملت مختلف قطاعات المجتمع. وكنتيجة لذلك انتشرت في مختلف أنحاء بغداد الفتن والمنازعات بين الطبقات الشعبية من السكان. حدث ذلك في ظل ضعف إمكانيات الدولة وعدم قدرتها على حفظ الأمن والنظام، مما شجع اللصوص والسفلة على التمادي في أعمال السلب والنهب والاعتداء على الناس. ويبدو أن ضعف السلطة المركزية أدى إلى ظهور قوى محلية في مختلف محلات العاصمة ساهمت في عدم الاستقرار فأعطت تلك المنازعات وأعمال الشغب طابعاً محلياً وفي بعض الحالات طابعاً طائفياً.

في السنة الأولى لتولي المستعصم بالله ثارت منازعات وفتن بين سكان محلتي المأمونية وباب الأزج نهبت فيها الدور والدكاكين واعتدى المشاغبون على ضابط الأمن وضربوه بالحجارة وأخذوا عمامته. لم يتمكن حتى شحنة بغداد السيطرة على أعمال الشغب، فامتدت الفتن إلى محلات أخر، وازدادت أعمال النهب والقتل ولم تسكن الفتنة إلا بعد أن أرسل الديوان فرقاً عسكرية مدججة بالسلاح قاتلت أهل الفتنة ومنعتهم من الخروج[٢].

وفي سنة ٦٤٤هـ ازدادت الفتن وأعمال الشغب في بغداد مرة أخرى، فنهبت أموال الناس وتعرض مخزن المدرسة المستنصرية للسرقة، في تلك السنة والسنة التي تلتها. ثم اضطرب حبل الأمن مرة أخرى في سنة ٦٤٨هـ وتوسعت أعمال النهب، وأخذت في بعض الحالات، طابع التحدي والعداء

(١) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص٢١

(٢)ن.م. ص٢٢

لرجال السلطة، فقد طاولت أعمال النهب بيوت أمراء المماليك، إذ دخلت جماعات من الرجال المسلحين دار قطب الدين سنجر البكلكي ونهبوها وذلك بعد أن أشيع بأنه سيرتب شحنة لبغداد. وفي سنة ٦٥٠هـ استولت جماعات على المدرسة التاجية في بغداد واستعملوها كمكان للمبايعات، وأسكنوها النساء "حتى كانت تجرى فيها أمور"[١]

في ظل تلك الفوضى التي كانت تهز المجتمع، أخذت أعداد متزايدة من الجنود الذين انقطعت أعطياتهم تغادر العراق إلى بلاد الشام بحثاً عن الرزق وحياة أفضل.

لكن الأمر كان مختلفاً مع أمراء عسكر المماليك الذين كانوا يتمتعون بموارد مالية ضخمة، مصدرها الإقطاعيات الواسعة التي كانت بأيديهم والتي كانت تشمل خيرة الأراضي الزراعية في العراق. ففي عهد المستعصم آخر خلفاء بني العباس، ازداد نفوذ أمير المماليك مجاهد الدين أيبك المستنصري، الملقب بالدويدار الصغير، والذي تولى قيادة الجيش فكان يعرف بـ "أمير الأمراء". قال عنه صاحب العسجد المسبوك:

مجاهد الدين أبو الميامين الدويدار المستنصري، وكان ممن رزق السعادة في دنياه وملك جزيل الأموال من العين والرقيق والدواب والعقار والبساتين والضياع مما يتعذر ضبطه على حساب وبلغ من الجاه العريض والحرمة الوافرة حتى انه كان يترفع على وزير الدولة الذي هو نائب الخليفة وكان يصل إليه من إقطاعه وأملاكه ومزارعاته زيادة على خمسمائة ألف دينار[٢].

ويتبين من هذا أن أمراء العسكر الإقطاعيين لم يكونوا يعيشون كالملوك المحليين فحسب، بل كانوا يتصرفون وكأنهم دولة فوق الدولة. وكان أمثال أولئك الأمراء، يترفعون على أصحاب المناصب المدنية ويفرضون سياستهم على مختلف الأصعدة.

---

(١) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين.ص١٧

(٢)ن.م.ص١٧

لكن بالرغم من ذلك الثراء والنفوذ، فأن الدويدار كان يمثل مؤسسة عسكرية تعيش حياة قلق وخوف من مستقبل مجهول. ولابد أن ذلك الخوف كان أساسه تجارب المماليك التاريخية. فبعد أن بسط البويهيون ومن بعدهم السلاجقة سلطتهم على الخلافة العباسية، لم يفقد أمراء المماليك هيمنتهم العسكرية في العراق فحسب، بل فقدوا كذلك امتيازاتهم و إقطاعياتهم التي كانت أساس ثرواتهم الطائلة. وكانت تلك التجارب التاريخية، الأساس للفكر السياسي الذي اتبعه المماليك، وتعاملوا ضمن أطره خارجياً، مع القوى الإسلامية المجاورة للعراق، وداخلياً مع مؤسسة الخلافة ورجال المؤسسات المدنية المرتبطة بالديوان.

وإن أحداث التاريخ تفيد بأن الخليفة وكبار رجال المؤسسات المدنية، كانت لهم مفاهيمهم السياسية واجتهاداتهم الخاصة في معالجة الأمور ومواجهة الأخطار التي كانت تحدق بالبلاد. غير أن قدرتهم على التحرك، كانت تحددها هيمنة أمراء المماليك وتسلطهم على مؤسسة الخلافة.

الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي

وكان من أبرز رجالات العراق الذين عرفوا بسياساتهم المستقلة في معالجة المشاكل الإدارية، وفي مواجهة الأخطار الخارجية، وزير الخليفة المستعصم مؤيد الدين محمد بن احمد بن العلقمي. الذي كان منصبه يجمع بين الوظيفة الإدارية والسياسية باعتباره نائب الخليفة. وكان مؤيد الدين بن العلقمي من أعيان بني أسد، القبيلة العربية التي قضى عسكر مماليك بغداد على إمارتها في الفرات الأوسط في سنة ٥٥٨هـ. وكان فرع عشيرته يقيم في منطقة النيل قرب مدينة الحلة. وقد أخذ مؤيد الدين لقبه من جده الذي حفر النهر المعروف بالعلقمي، والذي كان يخرج من الفرات ويجري نحو كربلاء.

وكان خاله عضد الدين نصر المبارك ناظراً بديوان الجوالي. ولما توفي الخليفة الظاهر بأمر الله في سنة ٦٢٣هـ، كان هو المتولي لأخذ البيعة

للخليفة الجديد المستنصر بالله، وظل في عهده أستاذاً للدار حتى وفاته في سنة ٦٢٧هـ. وحينما تولى المستعصم بالله الخلافة في سنة ٦٤٠هـ، كان منصب الوزارة بيد أبي الأزهر احمد بن الناقد الذي توفي في سنة ٦٤٢هـ. وبعد وفاة ابن الناقد عين المستعصم بالله لمنصب الوزارة، مؤيد الدين محمد بن العلقمي الذي ظل يشغل ذلك المنصب مدة أربعة عشر عاماً.

وكان الوزير مؤيد الدين كما تشير المصادر، رجلاً فاضلاً خبيراً في شؤون الإدارة والسياسة. واسع الإطلاع يملك مكتبة كبيرة كانت تحوي نفائس الكتب، وكان يحب أهل العلم والأدب ويقربهم. وقد صنفت له كتب عديدة، وممن صنف له، العالم اللغوي الصاغاني الذي صنف له كتاباً عظيماً في لغة العرب. وصنف له كذلك عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني صاحب كتاب شرح نهج البلاغة الذي جمع فيه رسائل وخطب الإمام علي بن أبي طالب.

وكان الخليفة المستعصم يعتمد على وزيره مؤيد الدين العلقمي في إدارة أمور الخلافة ويثق به وبكفاءته ويشاوره في اخطر المسائل السياسية. غير إن أمراء المماليك ومن كان يتبعهم من الخواص كانوا يعادونه وينالون منه أمام الخليفة، ويعدون الحملات السياسية ضده تحت ستار الطائفية، باعتبار أن الوزير كان شيعياً.

وفي سنة ٦٥٣هـ أي قبل سقوط بغداد بثلاثة أعوام، انفجرت أزمة سياسية في بغداد بين قائد العسكر والوزير ابن العلقمي، إذ تشير الأخبار بأن أمير المماليك الدويدار الصغير، دبر مؤامرة كانت تستهدف خلع الخليفة، وتنصيب ولده الأكبر أبي العباس احمد مكانه. ويروى بأن الوزير مؤيد الدين، عرض الأمر على المستعصم فور علمه بتلك المؤامرة، وطلب منه أن يقضي على تلك الفتنة مادامت في مهدها[1]. وبعد أن شاع الخبر، أنكر أمير المماليك

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص٢٥٣.

الدويدار تلك التهمة، وجمع عساكره في حركة تشبه العصيان، وحشد أثناء ذلك جمعاً من المشاغبين والرعاع الذين أخذوا يخلون بالأمن وينالون من الوزير. وبالمقابل التفت حول الوزير ابن العلقمي، جموع من سكان بغداد وأيده فلك الدين محمد الطبرسي المعروف بالدويدار الكبير. وقعت بسبب ذلك فتن ومواجهات جرح فيها الكثيرون وانتشر الرعب وساد الخوف في بغداد. ولم تهدأ الأوضاع إلا بعد أن أصدر الخليفة أماناً بحق الدويدار الصغير، قرئ في جمع من الناس. ويقال بأن الدويدار الصغير لم يكتف بذلك بل فرض أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة(١). وفي خضم تلك الصراعات شن أمراء المماليك حملة واسعة ضد الوزير ابن العلقمي، بسبب وقوفه ضد أمير العسكر الدويدار الصغير، وازدادت الضغوط على الخليفة المستعصم بالله لعزل وزيره. ولكن يبدو أن الخليفة، لم يشأ أن يتخلى عن رجل مثل وزيره ابن العلقمي. فأصر على التمسك به، ربما لأنه كان يدرك بان ذهاب الوزير، كان سيزيد من عزلته ويضعف مركزه أمام تسلط أمراء المماليك في مثل تلك الظروف العصيبة التي كانت تحيق بالبلاد. ولعل ذلك الموقف من الخليفة كان أحد الأسباب لتعرضه لجانب من حملات التشهير تلك. فقد ازدادت الروايات التي تشهر بالخليفة وتقول بأنه منهمك باللهو ومجالس الطرب، وغافل عما يحيق بالبلاد من مشاكل وأخطار، وانه يبغض العسكريين وأمراء الجيش(٢). ومهما كان الأمر فان تلك الأزمة هزت كيان الدولة، ودفعت الأوضاع نحو الأسوأ. فالاضطرابات لم تخمد في بغداد بل اشتدت، إذ كثر فساد العيارين الذين كانوا ينهبون الدكاكين ويسلبون الناس. ويقال بأن جماعات من عسكر المماليك، كانت تشارك في تلك الأعمال التي كانت تأخذ في بعض الحالات طابعاً طائفياً بين السنة والشيعة من سكان بغداد.

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص٢٥٣.

(٢) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ ص١٦١.

لعل أسوأ ما وقع من فتن بعد تلك الأزمة، حدث في سنة ٦٥٤هـ أي قبل سقوط بغداد بيد المغول بسنتين. وقد عرفت تلك الفتنة في التاريخ بواقعة الكرخ، إذ يروى بأن أهل الكرخ قتلوا رجلاً من محلة قطفتا، فدخل جماعة من الخدم إلى الخليفة وعرفوه بالأمر وعظموه أمامه، ورموا أهل الكرخ بكل سوء. وتشير الرواية بأن الخليفة أمر بردعهم، فركب الجند وتبعهم العوام الذين هاجموا الكرخ، ونهبوا وأحرقوا عدة مواضع منها، وأخذوا النساء سبايا، وكان بينهن علويات من بنات الأشراف. وسفكوا الدماء واقترفوا المنكرات إلى أن خوطب الخليفة فأمر بالكف، فنودي بالأمان ثم تقدم جماعة من أهل الكرخ إلى دورهم وقتلوا كل من وجدوا فيها من العوام وغيرهم. ثم أمر الخليفة بإحضار ما نهب فكان شيئاً كثيراً، وحملت النساء الأسيرات إلى دار الرقيق ثم أعدن إلى أربابهن وقتل الذين كانوا سبب الفتنة.[١]

عندما نمعن النظر في هذه الرواية نجد إنها تفترض بأن العسكر خرج بأمر الخليفة المستعصم وهذا أمر يناقض المعلومات التاريخية التي تؤكد على إن المستعصم بالله، عاش سنين خلافته مكفوف اليد مغلوباً على أمره. مما يرجح أن العسكر لم يخرج بأمر منه. ثم لو افترضنا بأن العسكر كانوا قد خرجوا بأمر الخليفة لإعادة الأمن والسكينة ولردع المعتدين، فكيف نفسر مساهمتهم بأعمال النهب والحرق والاعتداء على بيوت الأشراف وأخذ العلويات سبايا. فمن المستبعد أن تصدر مثل تلك الأعمال من جنود يأتمرون بأمر الخليفة المستعصم، الذي تجمع المصادر التاريخية على انه "كان رجلاً خيراً متديناً لين الجانب عفيف اللسان سهل الأخلاق حمل كتاب الله تعالى..."[٢]. ولذا نرى من المستبعد أن يكون رجل له مثل هذه الصفات، وراء تلك الأحداث اللاإنسانية التي هزت كيان المجتمع. ولابد إن سلطة أخرى ذات نفوذ على

(١) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص٢٣.

(٢)محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقى - الفخري في الاداب السلطانية ص٣٣٣.

العسكر كان لها يد في ذلك الأمر. وهذا ما أشار إليه المؤرخ قطب الدين البعلبكي (ت. سنة ٧٢٦هـ) الذي كتب بعد مرور أكثر من نصف قرن من الزمن، عن الأحداث التي صاحبت سقوط الدولة العباسية فقال:

إن هولاكو تهيأ في سنة أربع وخمسين وستمائة لقصد العراق وسبب ذلك إن مؤيد الدين ابن العلقمي وزير الخليفة كان رافضياً وأهل الكرخ روافض وفيه جماعة من الأشراف والفتن لا تزال بينهم وبين أهل باب البصرة. فاتفق انه وقع بين الفريقين محاربة فشكا أهل باب البصرة وهم سنية إلى ركن الدين الدويدار والأمير أبي بكر ابن الخليفة فتقدما إلى الجند بنهب الكرخ فهجموا ونهبوا وقتلوا وارتكبوا العظائم فشكا أهل الكرخ ذلك إلى الوزير فأمرهم بالكف والتغاضي وأضمر هذا الأمر في نفسه وحصل بسبب ذلك الضغن على الخليفة... وكاتب الوزير ابن العلقمي التتار وأطمعهم في البلاد وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهل عليهم ملك العراق (١).

ولسنا هنا بصدد مناقشة مفهوم قطب الدين البعلبكي للتأريخ والعوامل التي تتحكم في توجيه أحداثه، ولا لتفسيره لأسباب حملة هولاكو على العراق. ولكننا نود أن نقف عند إشارته إلى المحرك الحقيقي لتلك الأحداث. فهو يخبرنا بأن أهل باب البصرة السنّة، لم يتقدموا بشكواهم إلى الخليفة، بل شكوا إلى ركن الدين الدويدار أمير أمراء المماليك، الذي تقدم إلى الجند بنهب أهل الكرخ الشيعة، فحدث ما حدث. فإذا كانت هذه هي الحقيقة، فمن المرجح أن ينصب ضغن الوزير بن العلقمي على المسبب الحقيقي لتلك الفتنة. وهو أمير العسكر الدويدار الصغير، وليس على الخليفة المعروف بطيبته والذي تشهد المصادر الإسلامية له بأنه "لم يعلم عنه انه عصى الله... ولم ينكشف ذيله على حرام..."(٢). ويبدو من هذا، إن معرفة الوزير بالحقائق، وإطلاعه على بواطن الأمور، كان السبب في انه أمر أهل الكرخ بالكف والتغاضي، ليسد الطريق على الدويدار وحلفائه، الذين سلكوا سبيل إثارة الفتن الطائفية، في تلك الأيام العصيبة، لأسباب تخص مصالحهم الذاتية. وان استمرار تمسك الخليفة

(١)د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص٢٨.

(٢) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ ص١٨٥.

بالوزير، وإصرار الوزير على الاستمرار في خدمة الخليفة ووقوفه بجانبه، يؤكد صحة هذا الرأي.

ولكن مهما كان رأي الخليفة أو الوزير في تطور الأحداث، فان حقائق التاريخ تشير بان الخليفة المستعصم بالله، لم يكن قادراً على تحدي إرادة أمراء المماليك، واتخاذ أي موقف يمس مصالحهم الذاتية. ولذا عندما ساءت الأحوال وتواترت الأخبار باقتراب جيوش هولاكو من العراق، بدا الخليفة المستعصم وكأنه مشلول غير قادر على التحرك السياسي لمعالجة الأمر كما ينبغي. ويبدو أن ذلك الوضع أظهر الخليفة المستعصم أمام الناس بمظهر الغافل، الذي لا يرى ما كان يحيق بالخلافة العباسية من أخطار. ومما عزز مثل هذه الآراء في الخليفة، ميله للانطواء والعزلة داخل قصوره وقضاءه اكثر أوقاته بين حريمه وخدمه. ولذا قال ابن الطقطقى عن المستعصم :

وفي آخر أيامه قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاكو، فلم يحرك ذلك منه عزماً ولا نبه منه همتاً ولا احدث عنده هماً... وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمي يعرف حقيقة الحال في ذلك ويكاتبه بالتحذير والتنبيه... وهو لا يزداد إلا غفولاً وكان خواصه يوهمونه انه ليس في هذا كبير خطر ولا هناك محذور، وان الوزير إنما يعظم هذا لينفّق سوقه ولتبرز إليه الأموال ليجند بها العساكر فيقتطع منها لنفسه... ومازالت غفلة الخليفة تنمو ويقظة الجانب الآخر تتضاعف حتى وصل العسكر السلطاني إلى همدان(١) .

يكشف لنا صاحب الفخري بقوله هذا، عن وجود صراعات سياسية، كانت تدور في أعلى المستويات، حول ما يجب اتخاذه لمواجهة الأخطار التي كانت تحدق بالبلاد. ويشير إلى أن الوزير ابن العلقمي كان من بين رجال العراق، الذين كانوا يطالبون الخليفة بإعداد الجيوش، وحشد إمكانات البلاد وثرواتها وكنوزها، لدعم الجهود الرامية لتجنيب البلاد خطر الغزو المغولي الذي بات وشيكاً.

---

(١) الفخري في الاداب السلطانية ص٣٣٤-٣٣٥.

ولكن بالمقابل كان هناك تيار متنفذ يسلط على الخليفة الضغوط، لمنعه من الإقدام على تبني مثل تلك السياسة، التي كانت ستؤدي بالنتيجة، إلى كسر احتكار المماليك للسلاح. إذ لو اتجهت الدولة إلى تشكيل فرق عسكرية جديدة، فإن تلك الفرق، ستكون خارج دائرة نفوذهم. وفي غالب الظن إن أمراء المماليك كانوا يخشون أن ينتهز الوزير الأسدي تلك الفرصة، فيغرق صفوف القوات المسلحة، بمقاتلين عراقيين موالين له، فيتعزز بذلك مركز الخلافة ويضعف قبضة المماليك عليها. وأن ما كان ينقل على لسان خواص الخليفة، لا يخرج عن نطاق تلك المخاوف.

وبينما كان هولاكو يستعد للزحف على بغداد أرسل جيشاً إلى آسيا الصغرى فاستولى على مملكة سلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو وبذلك أمن ميمنة جيشه الزاحف نحو العراق.

هولاكو يراسل المستعصم

وفي رمضان من سنة ٦٥٥ هـ، فتح هولاكو مرة ثانية باب المفاوضات. فبعث إلى بغداد رسولاً يحمل كتاباً إلى الخليفة المستعصم جاء فيه:

كلما استنجدت بك اعتذرت ولم تبعث لنا مدداً مع انك من عائلة قديمة وسلالة نبيلة. أما سمعت بأننا من ظهور جنكيزخان، أصبنا إلى يومنا هذا ما أصبناه بجيشنا المغولي وألحقنا ما ألحقنا بالأسرة الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم مع ما كانوا عليه من الكبرياء والعظمة والمقدرة... أما رأيتم ما نالهم الآن من الذل والهوان ولم تكن بغداد في يوم مسدودة على هؤلاء الأمراء وإنما كانت مفتحة الأبواب لهم فكيف تكون مغلقة في وجوهنا وموصدة عنا مع ما لنا من الحول والسلطة والعظمة.... وجاء في الرسالة: وقد نصحناك قبل هذا والآن نقول لك تجنب الحقد والخصام ولا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنك ستتعب نفسك عبثاً. ومع هذا فقد مضى ما مضى فعليك أن تهدم الحصون وتردم الخنادق وتسلم ابنك المملكة، ثم تتوجه لمقابلتنا وإذا كنت لا تريد ذلك فابعث إلينا الوزير وسليمان شاه والدويدار ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان. وإذا أطعت امرنا فلا حقد وضغينة. ونبقي لك ولايتك وجيشك ورعيتك. وأما إذا لم تنتصح وسلكت طريق الخلاف فإننا مستعدون لمحاربتك واعلم إنني إذا غضبت عليك وجهزت العساكر فسوف لا تنجو مني ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في باطن

الأرض... فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء وإلا فسترى كيف تكون إرادة الله[١].

ولابد إن تلك الرسالة التي أشارت إليها مصادر متعددة كانت أهم وأخطر رسالة بعث بها هولاكو إلى الخليفة المستعصم. فبالرغم من شدتها فان ذلك الفاتح الجبار فتح باب المساومة مع الخليفة، إذ تعهد له في رسالته أن يبقي على حياته وأسرته وعلى الخلافة ودولتها بحدودها وسكانها وجيشها مقابل اعتراف الخليفة بسلطان المغول. ويجدر بنا أن نتذكر أن تعامل هولاكو مع الخليفة العباسي كان يجري ضمن إطار التوجيهات التي سبق أن أصدرها الخاقان الأعظم إليه قبيل مسير تلك الحملة.

ولكن هذا ما كان يرفضه أمراء المماليك لان تجارب التاريخ علمتهم إن توصل الخليفة العباسي لأي صيغة تفاهم مع المغول، ستكون على حساب امتيازاتهم. أو ربما وجودهم كمؤسسة عسكرية إقطاعية تهيمن على السلطة في العراق.

حينما وصل رسول هولاكو بغداد وبلغ رسالته، شاور الخليفة المستعصم الوزير مؤيد الدين في ما يجب أن يفعله، فقال الوزير للخليفة: لا وجه لإرضاء هذا الملك الجبار إلا ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه. فوافق الخليفة على رأي الوزير وأمر بالتنفيذ. ولكن لما أخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة، والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، ذهب أمراء المماليك إلى الخليفة فخاطبه الدويدار وقال له: إن الوزير إنما يدبر شأن نفسه مع التتار وهو يروم تسليمنا إليهم فلا تمكنه من ذلك. فتراجع المستعصم مرة أخرى وأبطل تنفيذ ما اتفق عليه مع الوزير.

---

(١) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص٤٩
كذلك المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ ص١٥٦
كذلك فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ ص٢٥٦

ويروى بأن رسل هولاكو، بعدما خرجوا من بغداد في طريق عودتهم، شاهدوا الصحراء مملوءة من عوام الناس الذين اخذوا يشتمون الرسل ويظهرون السفه. وكانوا يأخذون بأثوابهم ويتفوهون بما يؤذونهم به. ولما علم الوزير مؤيد الدين، أرسل رجالاً أبعدوا أولئك السفهاء عنهم وقد عرض أولئك الرسل على هولاكو ما شاهدوه وما نالهم، فغضب هولاكو وقال: تبين أن الخليفة ليس له كفاءة فإذا ساعدني الله فسأقوم معوجه[1].

وبعد ذلك التراجع صدر من ديوان الخليفة كتاب شديد اللهجة، إلى هولاكو حمله إليه محيي الدين يوسف ابن الجوزي مع هدايا لا قيمة لها. ومما جاء في كتاب الخليفة إلى هولاكو:

أيها الولد الغر الذي لم يبلغ الحلم أظن انك تريد أن تذهب بحياتك وتطلب قصر الأجل، أما تعلم إن أهل المشرق والمغرب من غني وفقير وشيخ وشاب ممن يدينون بدين الله يذعنون لي بالطاعة. وإذا أشرت عليهم أن يجمعوا شملهم فعلوا واستولوا على إيران وتوجهوا من هناك إلى توران فاكتسحوا ممالككم... والحاصل أدعوك أن ترجع إلى خراسان وإلا فإن جيشنا كبير يحجب غبار خيله نور الشمس.

وقد غضب هولاكو من فحوى تلك الرسالة فقال: يظهر إن الله يريد السوء بهؤلاء القوم. ثم صرف ابن الجوزي بعد أن زوده بكتاب إلى المستعصم قال له فيه:

لم تسمع نصائح المصلحين ومريدي الخير ولم تعد تسمع أذناك كلام المشفقين فانحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، فعليك أن تستعد إلى القتال فإنني سائر عليكم نحو بغداد بجيوش عدد النمل والجراد، وإذا تبدلت الأحوال فذاك الله [2].

وبعد عودة ابن الجوزي تأكد الخليفة المستعصم من تصميم هولاكو على الزحف نحو بغداد، فاهتم بالأمر فعاد واستطلع رأي وزيره مؤيد الدين فقال له الوزير:

إن ساعدي الخصم لا تغلآن إلا ببذل المال. والمال إنما يدخر لوقاية العز والشرف، فعلينا أن نرسل إليهم ألف جمل من الأموال النفيسة محمولة على ألف من كرائم الإبل وألف حصان عربي نجيب

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ ص١٥٨

(٢) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين. ج١ ص١٥٩

وان نقدمها مع موسيقى تعزف أمامها، وان نبعث للأمراء لكل منهم تحفاً وهدايا تليق بمقامهم. وهذه تقدم مع رسل دهاة كفاة. وان نعتذر عما بدر، وان تقرأ الخطب وتضرب النقود باسمه.

ويروى بان الخليفة المستعصم وافق على ما أشار به الوزير، واقتنع بأن لا سبيل غير ذلك لتلافي خطر الغزو المغولي الذي لاح في الأفق، إذ لم يكن خافياً على أحد بأن جيش المماليك لم يكن مؤهلاً للتصدي لجيوش المغول. فأمر بتنفيذ ما أشار به الوزير.

غير أن الدويدار ومعه أمراء المماليك كان لهم موقف آخر، فقد ذهبوا مرة أخرى إلى الخليفة المستعصم وأعلنوا رفضهم لتدبير الوزير. وقال الدويدار للخليفة: إن رأي الوزير وتدبيره ناشئ عن مصلحة شخصية ويريد بذلك أن يحبب نفسه إلى هولاكو، ليفتك بنا وبجيشنا فيوقعنا بمحن فيجب أن نرسل الجيش ونستعد للنضال . فعاد الخليفة وتراجع عن موقفه.

ويروى بأن الوزير تألم وتشاءم حينما علم بما دار بين الخليفة وأمراء المماليك، لأنه يعلم بأن تراجع الخليفة جاء نتيجة تعرضه لضغوط جديدة منهم. وقد أشار رشيد الدين صاحب "جامع التواريخ" إلى محنة الوزير ابن العلقمي فقال:

فاضطرب الوزير وأيقن بالوبال عليهم وعلى الخلافة. وكان يرى انقراض الخلافة وسقوط العباسيين في وزارته صعباً عليه وهو يراه مجسماً في ذهنه ومخيلته، وكان يتألم جداً من هذه الأحوال فهو كالملدوغ. فلم يدخر وسعاً من السير الحثيث والتدبير الصائب لسلامة هذه العائلة[(١)].

وفي أواخر محرم من سنة ٦٥٥هـ كانت جيوش المغول تزحف على طريق كرمان شاه حلوان، وأثناء تقدمها واجهت إحدى فرق استطلاع المغول فرقة استطلاع لجيش المماليك بقيادة أيبك الحلبي وسيف الدين قلج. فقبض المغول على أفرادها وأحضروا قائديها أمام هولاكو. وبعد أن استنطقهما هولاكو، انهار أيبك الحلبي ورفيقه وقصا على هولاكو حقيقة الوضع في بغداد. ودخلوا في خدمته وصارا أدلاء لعسكره. ثم أخذا يكتبان إلى رفاقهم من أمراء عسكر

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين. ج١ ص١٦٠

المماليك يحثونهم على الاستسلام والدخول في خدمة هولاكو. وفي هذه المرحلة عاد هولاكو وبعث من جديد رسولاً إلى الخليفة المستعصم، يطلب حضور الوزير، ورأسي قادة المماليك سليمان شاه بن برجم والدويدار ليسمع أقوالهم، وكرر طلبه على الخليفة لكي يبادر بتقديم الطاعة للنجاة بنفسه وإنقاذ الخلافة، وبينما كان هولاكو في دينور(١) جاءه من بغداد ابن الجوزي حاملاً كتاباً من الخليفة كان خليطاً بين الوعيد والالتماس وفيه طلب من هولاكو الانصراف وعدم التقدم نحو بغداد مقابل خضوع الخليفة لما يقرره هولاكو وما يطلبه من المال يحمل إليه في كل سنة(٢). ويذكر بأن هولاكو تجاوب مع طلب الخليفة وأبدى استعداده إلى الانصراف وعدم مهاجمة بغداد ولكنه اشترط أن يحضر الخليفة بنفسه لعقد مثل هذا الاتفاق. إذ يروى بأن هولاكو قال لرسول الخليفة: ثم بعد الحضور والمشافهة نعود بإجازته (٣). وكانت تلك آخر بعثة لابن الجوزي، إذ لم يحضر الخليفة أمام هولاكو، ولم يبعث بأي رسول بعد ذلك.

وأثناء تطور الأحداث اصدر هولاكو أوامره إلى قائديه جرماغون و بايجونويان في آسيا الصغرى (تركيا حاليا) بالتحرك جنوبا نحو الموصل وعبور دجلة إلى الجانب الغربي للزحف على بغداد. بينما كانت جيوش هولاكو الرئيسية تواصل زحفها نحو بغداد من الشرق.

---

(١) دينور: من أعمال الجبل بينها وبين همدان نيف وعشرون فرسخاً ، ومن الدينور إلى شهرزور اربع مراحل.

ياقوت الحموي الرومي البغدادي - معجم البلدان

(٢)المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ص١٦٨

(٣) ن.م.

جيش المماليك

فخرج من بغداد جيش المماليك بقيادة الدويدار وفتح الدين ابن كر وعسكر بالقرب من بعقوبة. وكان الجيش في غاية القلة إذ قدرته بعض المصادر بما لا يزيد على عشرة آلاف رجل[١]، أو في أعلى التقديرات في حدود الخمسة عشر ألف رجل. وقد يبدو غريباً أن يخرج من بغداد وهي دار الخلافة العباسية، مثل هذا الجيش الصغير المكون من مماليك الترك والشركس فقط، لمواجهة جحافل هولاكو التي سحقت أقوى الجيوش، واستولت على أمنع القلاع والحصون. والتي كانت الجبال كما قيل، تهتز أثناء تقدمها. ولكن تلك الحقيقة فرضتها الظروف التاريخية التي صاحبت تسلط عسكر المماليك على الخلافة العباسية. فبعد أن تمكن أمراء المماليك من القضاء على دولة بني أسد في الفرات الأوسط، وتشتيت عشائر بني أسد انتهجوا سياسة ثابتة أساسها تجريد سكان العراق من السلاح، واقتصار عملية التجنيد على المماليك، الذين كان يتم جلبهم من بلاد الترك. غير أن تجارة الرقيق الأبيض واستقدام المماليك من أسواق خراسان وآسيا الوسطى، واجهت مشاكل عسيرة في فترة تسلط المغول على تلك البلاد الإسلامية. ومما زاد في عمق المشكلة انعزال العراق وتدهور أوضاعه الاقتصادية طيلة تلك الفترة. ولذلك كان لتلك الأوضاع آثار سلبية على جيش الخليفة العباسي. فمن جهة تقلصت أو نضبت الموارد البشرية، التي كانت تزود جيش المماليك بعناصر جديدة شابة، ومن الجهة الأخرى فإن سوء الأحوال الاقتصادية كان يدفع بالعديد من الجنود المدربين، إلى ترك العراق والهجرة إلى بلاد الشام بحثاً عن مصادر أفضل للرزق. وهكذا تقلص حجم الجيش، وضعفت قدرته القتالية بتقدم رجاله بالسن. فقائد جيش المماليك الدويدار الصغير، الذي خرج على رأس جيش الخليفة للتصدي لجحافل هولاكو، كان قد بلغ الثمانين من العمر.

---

(١) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين، ص٥١

وفي معسكرهم في بعقوبة، جاءت إليهم الأخبار بوجود جيش مغولي يزحف على بغداد من الجانب الغربي، فقرر الدويدار ترك قاعدته قرب بعقوبة وعبر دجلة بجيشه لملاقاة ذلك الجيش المغولي. وبذلك ترك السبيل مفتوحاً أمام عسكر هولاكو للتقدم نحو بغداد. ولما علم الخليفة بما حدث أمر مملوكه الخصي مرشد الهندي بالخروج بمن تبقى من عساكر بغداد للتصدي لعسكر هولاكو. ولكن أمراء العسكر المماليك الترك، رفضوا الخروج والمسير تحت لواء مرشد الهندي.

وفي يوم الأربعاء تاسع المحرم واجه الدويدار جيش المغول، الذي قدرت أعداده بما يزيد على الثلاثين ألف فارس[1]. ولما اشتبك الجيشان أخذ عساكر المغول يتراجعون، وعسكر الدويدار يطاردهم حتى بلغوا مشارف نهر بشير، وهو فرع يخرج من الدجيل. وفي تلك الأثناء كان الدويدار يبعث برؤوس قتلى المغول إلى بغداد، ليدلل على انتصاراته. ويقال بأن فتح الدين بن كر، القائد الثاني، أشار على الدويدار أن يثبت في مواقعه عند نهر بشير. ولكن الدويدار رفض ذلك الرأي، واجتاز النهر وظل يطارد المغول حتى حل الظلام. ويبدو أن تقهقر المغول كان خديعة عسكرية، نصبوا فيها كميناً لجيش الدويدار. إذ بعد أن حل الظلام، أحدث عسكر المغول عدة ثغرات في سدود نهر بشير فغمرت المياه الأرض الممتدة خلف جيش المماليك المتقدم. ومع طلوع الفجر من يوم عاشورا، شنت القوات المغولية هجوماً معاكساً عنيفاً، تمكنت من أن تنزل فيه هزيمة منكرة بجيش الدويدار، ولما حاول فرسان المماليك التراجع وجدوا أن الأرض والمسالك مغمورة بالمياه والأوحال، فعجزت الخيول عن اجتيازها، وحينئذ أحاط بهم فرسان المغول وأبادوهم عن آخرهم. ولم ينج من المذبحة، إلا بعض الجنود الذين القوا بأنفسهم في دجلة وعبروا إلى الشاطئ الآخر، والبعض الآخر هرب باتجاه الغرب فدخل

(١) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص٥١

البرية، ومضى على وجهه إلى الشام، وسار آخرون نحو الفرات الأوسط إلى الكوفة والحلة. وقتل في تلك المعركة فتح الدين بن كر وقره سنقور وعدد كبير من كبار قادة المماليك. وقتل معهم اكثر من عشرة آلاف عسكري غير الذين ماتوا في الأوحال أو غرقوا في دجلة[1].

أما الدويدار قائد العسكر فقد أفلت من أيدي المغول وهرب إلى بغداد مع نفر من رجاله وكانوا في أسوأ حال. وهكذا تم القضاء على جيش المماليك أي جيش الخلافة العباسية، في أول معركة خاضها ضد جناح صغير نسبياً من جيش هولاكو الذي ظل يواصل زحفه نحو بغداد من غير أن يعترضه أحد.

هولاكو يحاصر بغداد

وحينما اقتربت جيوش هولاكو، صعد أهل بغداد على السطوح والمنائر يتشوفون، وثار من جهة بعقوبة الغبار ولاحت من تحته عساكر المغول وقد طبقت وجه الأرض، وأخذت تحيط ببغداد من جميع الجهات، إذ فاقت أعدادهم المائتي ألف فارس[2]. وفي تلك الأثناء كان أهل السواد من سكان القرى والأرياف ا اورة، قد التجئوا إلى داخل أسوار بغداد بينما هرب الآخرون إلى مناطق الفرات الأوسط.

وفور وصولهم باشر عسكر المغول عمليات الحصار، إذ أمر هولاكو بعمل تعليات ترابية حول سور بغداد، نصبت فوقها المنجنيقات وقاذفات اللهب وغيرها من آلات الحصار. ومن الجدير بالملاحظة أن أقساماً من سور بغداد كانت ضعيفة، ينقصها الترميم في عدة مواضع، وكانت وسائل الدفاع غير كاملة، حتى الحجارة اللازمة للمنجنيقات لم تكن متوفرة. أما المغول فقد كانوا

---

(١)د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص٥١

(٢)د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين.ص٥٢

ينقلون الأحجار لمنجنيقاتهم من منطقة جبل حمرين، وفي بعض الحالات استعملوا جذوع النخيل.

وفي يوم الثلاثاء ٢٢ محرم من سنة ٦٥٦هـ بدأ المغول الحرب وتركز ضرب منجنيقاتهم على الطرف الجنوبي الشرقي من سور بغداد مقابل برج العجمي[١] الذي كان قليل الارتفاع. وفي تلك الأثناء بعث الخليفة وزيره مؤيد الدين يصحبه الجاثيليق[٢]. ولكن هولاكو رفض مقابلتهم، وطلب أن يحضر أمامه مع الوزير رأسا عسكر المماليك. الدويدار وسليمان شاه، غير أن أمراء المماليك لم يستجيبوا لطلبه. وفي اليوم التالي خرج الوزير مرة أخرى وصاحب الديوان، وبصحبتهم جمع من الأعيان ومشاهير الرجال ولكن عسكر المغول اعترض سبيلهم وأعادهم من حيث جاءوا.

وفي يوم الجمعة ٢٥ المحرم تمكن المغول من هدم جانب من برج العجمي والاستيلاء عليه. ثم اشتدت هجمات المغول من جهة السوق السلطاني، وتواصلت هجماتهم طيلة ليلة الاثنين. وبينما كانت جهود المدافعين تتضافر لصد هجمات المغول، انسل الدويدار وحاول الهروب من بغداد. إذ ركب هو ونفر من أعوانه سفناً انحدرت بهم جنوباً، غير انهم وجدوا أن المغول كانوا لهم بالمرصاد، إذ سبق وان أقاموا جسراً في جنوب بغداد وكانت فرق مغولية قوية قد سيطرت على طريق المدائن والبصرة. وقبل أن تستطيع سفن الدويدار الذهاب بعيداً، أحاط بها عسكر المغول وأخذوا يرشقونها بالسهام وأحجار المنجنيقات وكرات النار، وفي تلك الأثناء تمكنوا من الاستيلاء على ثلاثة منها فقتل من كان بها، فاضطر الدويدار العودة إلى بغداد.

---

(١) يقع هذا البرج على مسافة قريبة من مرقد الشيخ الصوفي الزاهد عبد القادر الكيلاني (توفي سنة ٥٦١هـ) وقد نسب البرج اليه شعبياً إذ كان الشيخ يعتكف فيه طلباً للعزلة والتعبد.

(٢) الجاثيليق هو رأس الكنيسة المسيحية وكان يقيم في بغداد.

وبينما كانت المعارك تدور على أسوار بغداد ظل هولاكو متمسكاً بطلب حضور رؤوس المماليك، الدويدار وسليمان شاه بن برجم ولكن بدون جدوى. وفي أواخر المحرم خرج الابن الثاني للخليفة أبو الفضل عبد الرحمن، ومعه صاحب الديوان وجمع من الأعيان، يحملون أموالا كثيرة فلم تقبل منهم. وفي اليوم التالي خرج الابن الأكبر للخليفة ومعه الوزير مؤيد الدين وجمع من المقربين وطلبوا الشفاعة فلم يحققوا شيئاً لأن هولاكو كان مصراً على خروج أمراء المماليك.

وفي غرة صفر، بعث هولاكو هذه المرة إلى الخليفة الشيخ نصير الدين الطوسي، وأيتمور ومعهم فخر الدين الدامغاني صاحب الديوان وابن الجوزي لإحضار أمراء المماليك الدويدار وسليمان شاه، وحمل مبعوث هولاكو معه "فرمان" يتعهد هولاكو فيه بإرجاعهما سالمين، وترك هولاكو للخليفة الخيار إذا كان يرغب في الخروج معهم. وفي تلك الساعات الحاسمة أوقف هولاكو العمليات العسكرية ريثما يعود الوفد، وبعد مباحثات مطولة وافق الدويدار وسليمان شاه على الخروج. ولكن بعد أن وصلوا معسكر هولاكو صدر إليهم الأمر بالعودة إلى بغداد لجلب متعلقاتهم.

وفي عودتهم هذه المرة خرج معهم من تبقى من عساكرهم وأتباعهم. ويبدو انهم كانوا يعدون بالآلاف إذ تشير الروايات بأن عسكر المغول أحاط بهم وقسمهم إلى مجموعات بالآلاف والمئات والعشرات، ثم قتلهم عن آخرهم. وفي اليوم التالي قطع هولاكو رأس قائد المماليك الدويدار. أما سليمان شاه بن مرجم فكان قد خرج مع نحو سبعمائة من عساكره وأتباعه، ويروى أن هولاكو عاتبه قائلاً:

إن لك علماً في التنجيم وسير الكواكب، أما كنت ترى هذا اليوم الأسود ! فلماذا لم تنصح مولاك ليبادر لخدمتنا عن طريق الصلح؟ فأجابه سليمان شاه: إن الخليفة مستبد... ولم يكن يسمع نصائح المصلحين الذين يريدون له الخير، فلم يعبأ هولاكو بقوله، وأمر بقتله وجميع رجاله. ثم قتل ابن الدويدار الكبير

تاج الدين الطبرسي. ثم أمر هولاكو بتعليق رؤوسهم. ويبدو أن هولاكو، بعد سقوط بغداد قضى على ما تبقى من رجال المؤسسة العسكرية للمماليك. وبعد فترة أمر هولاكو بإرسال رؤوس قادة المماليك ليتم تعليقها في الموصل، ويقال بأن بدر الدين لؤلؤ، حاكم الموصل، بكى حينما رأى رأس صديقه سليمان شاه ولكنه لم يجد بداً من تعليق الرؤوس خوفاً من غضب هولاكو.

نهاية المستعصم بالله العباسي

وبعد أن سحق هولاكو عسكر المماليك وقضى على أمرائهم، استأذن الخليفة منه، بالخروج إليه فأذن له. خرج الخليفة بصحبة أبنائه الثلاثة مع جمع كبير من السادات والأشراف ورجال الدين، وكان هولاكو قد أصدر فرامين بالأمان شملت العلماء والقضاة والشيوخ والسادة العلويين والأعيان الذين لم يشاركوا في الحرب.

ويروى بأن هولاكو استقبل الخليفة ومن معه بكلمات طيبة وأمر أن تنصب خيام خاصة له ولأولاده في معسكر كتبوغانويان إزاء بوابة كلواذي. وبعد ذلك دخل هولاكو بغداد وذهب ليشاهد قصور الخليفة، ثم أمر بإحضار الخليفة، فحضر مع جمع من العلماء والأعيان. ويقال بأن الخليفة هم أن يقدم الهدايا إلى هولاكو، ولكن من شدة ارتباكه لم يهتد إلى مفاتيح الخزائن، فأمر بكسر الأقفال وأخرج لهولاكو مجموعة كبيرة من الجواهر والدرر والنفائس، فلم يهتم بها هولاكو، وأمر الخليفة أن يخرج ما كان مدفوناً تحت الأرض. فزاد ارتباك الخليفة الذي كان يرتعد من الخوف، واعترف بوجود كنز مدفون في حوض وسط ساحة القصر. وبعد أن حفروا المكان الذي أشار إليه، عثروا على كنز مملوء بقطع الذهب الخالص كانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال.

وبعد ذلك أمر هولاكو بعزل النساء اللواتي باشرهن الخليفة وأبناؤه فكن سبعمائة امرأة، أخرجن مع ألف وصيف وخادمة. وفي الخامس من صفر سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) انتشر عسكر المغول في مختلف أنحاء بغداد ووضعوا

السيف في أهلها، وكانوا يشعلون الحرائق في البيوت والقصور والمقامات المقدسة بعد نهب ما كان فيها من أموال وتحف ونفائس. وقد نالت الحرائق جامع الخليفة، ومراقد الخلفاء العباسيين، ومشهد الإمام موسى الكاظم. ولم يسلم من مذابح المغول إلا من اختفى في الحفر والآبار. وسلمت كذلك جماعات معينة ممن سبق أن حصل أصحابها على الأمان من هولاكو أو بعض أمرائه، إذ وضع هولاكو جنوداً لحراسة بيوتهم. وكان ممن سلم في بغداد:

- طائفة النصارى ومن آووهم من معارفهم وجيرانهم من المسلمين.
- جماعة من التجار ممن حصلوا على الأمان من بعض أمراء المغول، وسلم معهم العديد من جيرانهم ومعارفهم الذين التجئوا إليهم.
- ومن رجال الدولة من العراقيين سلمت دار الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، ودار صاحب الديوان ابن الدامغاني، ودار صاحب الباب ابن الدوامي. وكان قد التجأ إلى تلك الدور خلق كثير من سكان بغداد.

وفي الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ قتل هولاكو الخليفة وأولاده. وفي اليوم التالي جرى قتل من خرج مع الخليفة وأقام في المخيم الخاص إزاء باب كلواذي، وكان بينهم عدد من العلماء والأشراف. ثم قضى المغول على من وجدوه من العباسيين، وقتلوا كذلك عدداً من السادة العلويين، كان بينهم السيد شرف الدين ابن الصدر العلوي وكان ذا منزلة محترمة في الدولة العباسية. وقتل كذلك نقيب العلويين علي بن النقيب الحسن بن المختار، وكذلك عمر بن عبد الله بن المختار العلوي حاجب باب المراتب. وقتل كذلك نقيب مشهد الإمام الكاظم موسى بن جعفر.

وقد اختلفت الروايات في كيفية القضاء على الخليفة المستعصم. ولكن غالب الروايات تتفق على أن هولاكو لم يرق دم الخليفة، لأن المغول كانوا يتشاءمون من إراقة الدماء الملكية النبيلة. ويبدو أن هولاكو التزم بتلك التقاليد في قتل الخليفة المستعصم.

وبعد بضعة أيام أوقف هولاكو أعمال القتل والنهب وأمر بدفن الجثث التي تراكمت في الأسواق والدروب وقد سقطت عليها الأمطار وداستها الخيول فشوهتها وأخذت روائح الجثث المتفسخة تنتشر حتى أفسدت الهواء في بغداد. وبعد أن كف عسكر المغول عن أعمال القتل، خرج الناس من مخابئهم وعادوا إلى ممارسة حياتهم اليومية وبدءوا يشاركون في إصلاح ما خربته الحرب.

وبعد سقوط بغداد أنعم هولاكو على الجاثليق بدار علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير الواقعة على شاطئ دجلة فسكنها ودق ناقوساً في أعلاها وعمر بيعة جديدة. واستولى على دار الفلك التي كانت رباطاً للنساء والتي كانت تقع مقابل دار الطبرسي، واستولى كذلك على الرباط البشري المجاور لها وأزال الكتابة المرقومة على البابين وكتب عوضاً عنها بالسريانية. أما بقية أنحاء العراق فقد خضعت للمغول بدون مقاومة تذكر. إذ حضر إلى بغداد أكابر أهل الحلة والكوفة وسألوا هولاكو حقن دمائهم فأجابهم إلى ذلك. وكانوا قد نزحوا بعوائلهم وأموالهم إلى البطائح المجاورة فرجع الناس إلى بيوتهم وحملوا إلى هولاكو أموالاً كثيرة. ولكنه تصدق عليهم بنفوسهم.

وأما الموصل فان أميرها بدر الدين لؤلؤ، كان يخدم هولاكو منذ سنوات عديدة، بعد أن دخل في طاعته وقدم له كل المساعدات اللازمة أثناء حربه ضد الإسماعيلية، إذ أمده بآلات الحصار وبالعدد التي ساهمت في اقتحام قلاعهم المنيعة. وبعد سقوط بغداد جاء بدر الدين لؤلؤ ومثل أمام هولاكو، فأحسن استقباله وأقره على إمارة الموصل جزاء خدماته السابقة. غير أن بدر الدين لؤلؤ توفي بعد عودته إلى الموصل بفترة قصيرة وكان قد بلغ الثمانين من العمر.

لم يمكث هولاكو طويلاً في بغداد بل رحل عنها متجهاً نحو همدان، وترك في العراق القائدين "كوكا الكا" و "قره بوغا" ومعهم بضعة آلاف من عساكرهم.

أما الإدارة المدنية فقد فوض هولاكو أمرها إلى الإداريين العراقيين الذين كانوا يديرون شؤون الدولة في عهد الخليفة المستعصم.

الباب الثالث

حكومات المغول في العراق

الفصل الأول

الحكومة الأيلخانية

زحف هولاكو بجيوشه نحو الغرب بتفويض من أخيه الخان الأعظم، للاستيلاء على البلاد الممتدة من نهر جيحون في آسيا الوسطى حتى أقاصي بلاد مصر، على أن يؤسس في تلك الأقاليم المفتوحة إمبراطورية تكون له ولذريته من بعده. وحينما قامت تلك الإمبراطورية التي شملت شبه القارة الإيرانية وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى، أصبح هولاكو حاكمها بالنيابة عن الخان الأعظم. وهكذا أصبح يلقب "الأيلخان" أي نائب الخان الأعظم، وبهذا الاسم عرفت الدولة التي أسسها.

وبعد سقوط بغداد باشر هولاكو بتدعيم سلطته في العراق وتنظيم الإدارة فيه، فأرسل قوات عسكرية نحو الفرات الأوسط، استقبلهم السكان في الحلة والكوفة ونصبوا لهم جسراً للعبور. ومن هناك انحدرت تلك الفرقة العسكرية نحو واسط وكان فيها جمع من بقايا عسكر المماليك، فاشتبكوا معهم في قتال شديد انتهى بتصفية عساكر المماليك وقتل عدد كبير من سكان المدينة. وبعد ذلك سار عسكر المغول نحو خوزستان، وهم يتعقبون فلول المماليك الهاربين وانتهت تلك العمليات بالقضاء على أكثرية المماليك بينما استسلم الباقون.

في تلك الأثناء أقر هولاكو أسس إدارة العراق التي تركها بيد العراقيين. إذ لم يدخل تعديلات كبيرة على إدارة البلاد عدا الإدارة العسكرية وواجبات الشرطة، التي سلم أمرها إلى علي بهادر الخراساني الذي عينه بمنصب الشحنة (ما يقابل الحاكم العسكري).

وقد أبقى هولاكو على مؤسسة الديوان، وأقر فخر الدين ابن الدامغاني في منصب صاحب الديوان، وأبقى كذلك على منصب الوزارة ، وأقر وزير المستعصم مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي في ذلك المنصب، غير أن أيام هذا الوزير لم تطل بعد تلك النكبة، إذ اعتلت صحته وغلب عليه الحزن والكآبة حتى توفي في مستهل جمادى الثانية من تلك السنة، أي بعد سقوط بغداد بثلاثة أشهر تقريباً. فخلفه في منصب الوزارة ولده عز الدين أبو الفضل.

جرى تقسيم العراق إلى خمسة مناطق إدارية بدلاً من سبعة. كان يدير كل منطقة منها مسئول بمنصب "الصدر" كان يرتبط به عدد من النواب والنظار. وكانت المناطق كما يلي:

- الأعمال الشرقية وكانت تشمل الخالص والبندنيجين وطريق خراسان.
- الأعمال الفراتية.
- الأعمال الكوفية والحلية.
- الأعمال البصرية والواسطية.
- أعمال دجيل والمستنصرية.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن ذلك التقسيم كان يتلاءم مع التقسيم الجغرافي للمناطق الزراعية في العراق.

وعين هولاكو نجم الدين أحمد بن عمران صدراً للأعمال الشرقية، وكان من أهل باجسرى[١].

ونسب تاج الدين علي بن الدوامي صدراً للأعمال الفراتية، وكان يشغل في عهد المستعصم منصب صاحب الباب. ونسب عز الدين بن أبي الحديد لمنصب كاتب السلة، غير إن أيامه هو الآخر لم تطل فقد توفي بعد فترة قصيرة. وكان كاتب السلة يرتبط بصاحب الديوان، وبحكم وظيفته يطلع على

---

(١) باجسرى بليدة تقع شرقي بغداد وتبعد عنها عشرة فراسخ باتجاه حلوان. كانت عامرة نزهة كثيرة النخل والأهل. - ياقوت الحموي الرومي البغدادي - معجم البلدان

أسرار إدارة الدولة. وقد اكتسبت كتابة السلة أهمية كبيرة في العهد الأيلخاني، حتى صار يطلق على صاحبها (كاتب العراق) الذي كان يشغل أحياناً منصب صاحب الديوان.

أما الوظائف الدينية فكان على رأسها منصب قاضي القضاة، الذي قال عنه القلقشندي: القيام بالأوامر الشرعية والفصل بين الخصوم ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه، وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدراً وأجلها رتبة[١]. وبعد سقوط بغداد حضر أقضى القضاة عبد المنعم البندنيجي عند هولاكو، فأقره على منصب قاضي القضاة. أما الأوقاف فإن جميع الأوقاف الإسلامية في الدولة الأيلخانية وضعت تحت إشراف نصير الدين الطوسي. وفي بغداد جرى تعيين شهاب الدين ابن عبد الله صدراً للوقوف، فأشرف على ترميم جامع الخليفة الذي تعرض للحريق، وترميم مشهد الإمام الكاظم موسى بن جعفر، وعلى فتح المدارس والربط، وإثبات الفقهاء والصوفية وإدرار المشاهرات والأخباز عليهم.

وبعد أن أقر أسس إدارة العراق، عاد هولاكو إلى إيران. إذ أصبحت خراسان في تلك الأيام قاعدة النفوذ المغولي، ومركز دولة هولاكو الأيلخانية التي حكمت ٨٠ عاماً. بينما أصبح العراق إقليماً تابعاً لتلك الدولة. وقد أصبحت خراسان قاعدة الوجود المغولي في إيران، بسبب انتشار القبائل التركو مغولية في تلك الأنحاء وخاصة في إقليم أذربيجان. من الجدير بالملاحظة، إن وجود تلك القبائل يعود إلى فترة زمنية سابقة، إذ سبق وأن أشرنا إلى أن أعداداً كبيرة من القبائل التركية انضمت إلى جيوش جنكيزخان وساهمت في القضاء على دولة خوارزم شاه. ومنذ تلك الأيام استمر تدفق تلك القبائل التركو مغولية، التي كانت تنتشر وتستقر في تلك الأنحاء.

---

(١) د.جعفر خصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين، ص٧٠

وأثناء حملة هولاكو توسعت تلك الهجرات، وازدادت أعداد القبائل التركو مغولية التي انتشرت واستقرت في سهوب موغان شمال تبريز. وبذلك تحولت مدينتا تبريز ومراغة إلى مركزين رئيسيين للتجارة والأعمال. فكان طبيعياً أن يتخذ منهما هولاكو عاصمتي دولته الجديدة.

لقد قسم هولاكو دولته بين أبنائه، والمخلصين من أمرائه، فولى ابنه "آباقا" على العراق وخراسان ومازندران، وولى ابنه "يشموت" على أران وأذربيجان. وعين معين الدين بروانة والياً على بلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وكان معين الدين يشغل منصب الوزارة في دولة سلاجقة الروم. وعين شمس الدين محمد الجويني في منصب صاحب الديوان لجميع البلاد، وبذلك فوض إليه إدارة الأمور في جميع أنحاء الدولة الأيلخانية.

إدارة العراق في عهد الجويني

في ذي الحجة سنة ٦٥٧هـ أي بعد سقوط بغداد بسنة واحدة، توفي الوزير عز الدين أبو الفضل ابن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي، فتولى بعده أمر الديوان في بغداد المؤرخ علاء الدين عطا ملك الجويني. وكان من أسرة إيرانية عريقة في الآداب والإدارة، ولها مكانة مرموقة في إيران، وبتعيينه خرج أمر الوزارة من يد عرب العراق، إذ ارتبطت إدارته بصورة أوثق بالإدارة المركزية في إيران.

ولد علاء الدين عطا ملك الجويني في سنة ٦٢٣هـ والتحق منذ شبابه في خدمة المغول، إذ كان من عمال الديوان للأمير المغولي أرغون حاكم إيران. وقد قام الجويني بعدة أسفار في بلاد المغول، واطلع بصورة مباشرة على أحوالهم وأحوال بلادهم، ودرس أحوال الأقوام التركو مغولية، وتمكن من أن يجمع مادة تاريخية وفيرة كتب على أساسها بالفارسية تاريخ تلك الأقوام. وسمى ذلك الكتاب "تاريخ جهانكشاي" أي تاريخ فاتح العالم ويعني به جنكيزخان. وقد أصبح كتابه هذا المرجع الرئيسي لتاريخ المغول. غير أن

أحداث ذلك الكتاب، تقف بعد ذكر وقائع حروب هولاكو مع الإسماعيلية في بلاد الجبل، إذ كان الجويني مصاحباً له في تلك الحروب. وهو الذي التمس من هولاكو المحافظة على مكتبة الإسماعيلية الشهيرة في قلعة الموت، واستأذنه أن يطلع على محتوياتها، وبذلك تمكن الجويني أن ينقذ عدداً كبيراً من المصاحف والكتب النفيسة وآلات الرصد والإسطرلابات وغيرها. وبعد استخراج تلك الكتب وأجهزة الرصد، أحرقت تلك المكتبة بما فيها من كتب ووثائق تخص الشيعة الإسماعيلية. وكان الجويني ممن صاحب هولاكو في زحفه نحو بغداد.

حروب هولاكو

وفي السنوات التي أعقبت سقوط الدولة العباسية، واجه هولاكو سلسلة من المشاكل الداخلية والخارجية كان لها الأثر البالغ في رسم حدود دولته. ففي منغوليا توفي الخان الأعظم منكو وتولى بعده أريق بوقا، ولكن قوبيلاي الأخ الآخر للخان والذي كان في الصين، رفض ما حدث في قره قرم. وفي سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) عقد مجلساً خاصاً في شمال الصين وأعلن خلع أخيه ونصب نفسه إمبراطورا على الصين وبلاد المغول، واتخذ من مدينة بكين الصينية عاصمة له. ثم حشد جيوشه وزحف نحو منغوليا، فثارت بين المغول حرب أهلية تعرض أثنائها مجتمعهم لهزات سياسية واقتصادية شديدة. وانتهى ذلك الصراع بانتصار قوبيلاي واختفاء أريق بوقا من الميدان السياسي. ونتيجة لتلك الصراعات والتحولات أصبحت الصين قاعدة الإمبراطورية الجديدة التي أقامها قوبيلاي وبذلك فقدت منغوليا أهميتها ودورها البارز في تاريخ الأقوام المغولية.

وقد وقف هولاكو أثناء ذلك الصراع بجانب أخيه قوبيلاي بينما وقف ابن عمه أمير القبائل الذهبية ضد الإمبراطور وضد نائبه الأيلخان هولاكو. وفي سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) تفجرت العلاقات المتوترة بين هولاكو، وخان دولة القبائل

الذهبية بركة. وتحولت إلى حرب مكشوفة شن فيها بركة هجوماً على قوات هولاكو في القوقاز. غير أن تلك الحرب لم تأتي بنتيجة حاسمة لأي من الطرفين ولكنها كانت السبب في دفع بركة إلى تطوير علاقاته مع حكام المماليك في مصر. وبذلك أخذت التجارة تزداد وتنمو بين مصر وموانئ البحر الأسود، التي كانت تحت سلطة القبائل الذهبية. وقد انتعشت بصورة خاصة تجارة الرقيق الأبيض بين مصر والأقاليم التي سيطرت عليها القبائل الذهبية، حيث كانت البواخر تنقل من شواطئ البحر الأسود، أعداداً كبيرة من العبيد الذين كانوا يجلبون إلى مصر من بلاد القوقاز وما وراءها، وكانت تلك التجارة المصدر الأساسي الذي يزود جيوش المماليك في مصر بالرجال.

وقد ذهب بركة أبعد من ذلك إذ أقدم على قطع صلاته بالإمبراطورية المغولية التي أصبحت الصين قاعدتها. إذ أمر بإزالة اسم الخان الأعظم من العملة المتداولة في أقاليم القبائل الذهبية. وكان هذا بمفهوم تلك الأيام بمثابة إعلان الانفصال عن الدولة الأم.

ويقال أنه أعلن اعترافه بالخليفة العباسي الذي نصبه المماليك في القاهرة. فبعد معركة عين جالوت الشهيرة، التي انتصرت فيها جيوش المماليك بقيادة سلطان المماليك البحرية قطز على جيش المغول. وبعد عودة قطز المنتصر إلى القاهرة، اغتاله غدراً الأمير بيبرس البندقداري واعتلى هو عرش المماليك في مصر سنة ٦٥٨هـ وتلقب بالملك الظاهر. وبعد أن تولى بيبرس عرش مصر، جاء برجل قيل أنه من بني العباس، ونصبه خليفة في القاهرة في سنة ٦٥٩هـ أي بعد سقوط الدولة العباسية في بغداد بثلاثة أعوام. وكان السلطان المملوكي بيبرس يرمي من وراء إحياء الخلافة العباسية في مصر أن يمنح سلطته صفة شرعية، تساعده في تثبيت مركزه وتوسيع رقعة دولته باسم الخلافة الإسلامية. فإذا صح أن بركة إمبراطور القبائل الذهبية كان قد اعترف بتلك الخلافة بالقاهرة، فلابد أن ذلك الاعتراف عزز مركز السلطان المملوكي بيبرس ودعم جهوده في التصدي لجيوش هولاكو.

أما بالنسبة لهولاكو فقد ظل يتمتع بدعم الإمبراطور الذي أكد سلطة الأيلخان على الأقاليم الممتدة من نهر جيحون حتى مصر. ولدعم جهوده العسكرية ضد القبائل الذهبية، أمده بقوات جديدة قوامها ثلاثون ألف من خيرة المقاتلين المغول، فكان لهذا الدعم أثره في تجميد نشاطات بركة العسكرية، التي كانت تستهدف إزاحة هولاكو من القوقاز.

وفي تلك الأثناء كان الإسلام ينتشر في أقاليم بركة، الذي كان أول أمير مغولي من سلالة جنكيزخان يعتنق الديانة الإسلامية. وتشير الأخبار بأن انتشار العقيدة الإسلامية شمل جميع أفراد العائلة المالكة هناك، لحد أن كان لكل زوجة من زوجات بركة مؤذنها الخاص. ومما يذكر بهذا الصدد إن بركة لم يكن راضياً عن حملة هولاكو على العراق، وقد أغضبته نتائجها، خاصة القضاء على الخليفة المستعصم وإلغاء الخلافة العباسية.

وبينما كان الإسلام ينتشر بصورة واسعة بين المغول في أقاليم القبائل الذهبية، ظل الأمر يختلف قليلاً في الدولة الأيلاخانية. فمن المعروف أن هولاكو لم يكن يتقيد بأي دين من الأديان السماوية، بل كان يميل إلى البوذية. ولكن زوجته دقوز خاتون كانت مسيحية على العقيدة النسطورية. وكان لها تأثير كبير على هولاكو إذ كانت زوجة والده من قبله، وبتأثير منها أجاز بناء كنيسة صغيرة في البلاط وأوقف للكنائس، وكان يحضر أحياناً القداس ويشارك في الأعياد المسيحية. وبصورة عامة كان يفضل المسيحيين على المسلمين في المعاملة.

وفاة هولاكو

في شتاء سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) توفي هولاكو أثناء رحلة صيد جنوب بحيرة أورومية وكان في الثامنة والأربعين من عمره، فتولى بعده ابنه آباقا. وبالرغم مما يقال عن قسوة هولاكو وبطشه وتاريخه الدموي، فإن أغلب المصادر التاريخية تشير إلى أن هولاكو كان من أعظم حكام المغول. كان شجاعاً

حازماً ذا همة عالية وخبرة بالحروب، وكان يميل إلى العلوم العقلية، ويشجع العلماء على مواصلة البحث والدرس ويغدق في سبيل ذلك الكثير من الأموال.

وكان من أهم أعمال هولاكو، إنشاء مرصد فلكي كبير في مدينة مراغة بإقليم أذربيجان. فقد عهد إلى العالم الرياضي الفلكي "نصير الدين الطوسي" الذي كان يعد من أعظم علماء المسلمين المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سيناء. ويقال أن هولاكو بذل أموالاً طائلة في سبيل تجهيز المرصد بأدق وأفضل الأجهزة المعروفة في تلك الأيام.

وفي سنة ٦٥٧هـ شرع الشيخ الطوسي في إقامة ذلك المرصد. ويرى عدد من المؤرخين أن الشيخ الطوسي استغل شغف هولاكو بالعلوم العقلية وإيمانه بعلم النجوم والاختيارات وقراءة المستقبل للأحداث، فأقنعه بتشييد ذلك المرصد والاستعانة بأكبر عدد ممكن من العلماء والباحثين ليساهموا في تحقيق ذلك المشروع العلمي الكبير. وبعد حصوله على موافقة هولاكو، باشر الطوسي في مراسلة مختلف علماء المسلمين، وبعث بالرسل للاتصال بهم وحثهم على القدوم إلى مراغة للاستفادة من ذلك المشروع في مواصلة البحث والدرس، بدلاً من حياة الضياع التي كانت تواجه بعضهم في تلك الأيام العصيبة. وبجهوده جاء إلى مراغة علماء من بغداد والموصل ودمشق والجزيرة وبقية بلاد الشام، ومن قزوين وتفليس وحتى من بلاد المغرب. وباشروا بالعمل مع الشيخ الطوسي، في إنشاء أكبر معهد علمي عرفه العالم الإسلامي في تلك الأيام. وكان الطوسي قد نقل إلى ذلك المرصد في مراغة، كتب النجوم وآلات الرصد والإسطرلابات التي تم إنقاذها بجهود الجويني، من مكتبة الإسماعيلية التي أحرقها هولاكو في قلعة الموت. فكانت تلك نواة لمكتبة عظيمة جلبت إليها الكتب من بغداد ومن البلاد الأخرى، حتى أصبحت تحوي ما يزيد على نصف مليون مجلد. وقد عهد الشيخ الطوسي بالإشراف

على تلك المكتبة، إلى تلميذه عبد الرزاق بن احمد المعروف بابن الفوطي، الذي واصل العمل والدرس فيها طيلة ثلاثة عشر عاماً.

يقول الدكتور مصطفى جواد:

التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك وليأتي بمعجزة القرن السابع (الهجري) وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس أول أكاديمية علمية فيه بالمعنى العلمي الحديث الذي تدل عليه كلمة Academie . وإقامة أعظم مرصد عرف في الشرق، وإنشاء أول جامعة حقيقية من النوع المعروف اليوم بالـ University " (١) . ومن المفارقات أن المنية عاجلت هولاكو قبل افتتاح مرصده العظيم في مراغة .

السلطان آبقا خان

بعد وفاة هولاكو تولى حكم الدولة الأيلخانية ابنه آباقا وكان حاكماً في مازندران. وقد واجه الأيلخان الجديد منذ الأيام الأولى لحكمه، سلسلة من المشاكل الخارجية والداخلية. إذ تعرضت حدوده الشمالية إلى هجوم عسكري شنه بركة أمير القبائل الذهبية. وقد جاء تحركه ذلك بالتنسيق مع ملوك ما وراء نهر جيحون، وهم من سلالة جغتاي. غير أن بركة مات بينما كان جيشه يتقدم جنوباً عبر جبال القوقاز، وبالرغم من توقف القتال على تلك الجبهة، فإن الحدود الشرقية للدولة تعرضت إلى هجوم مماثل، فقد هاجمته جيوش براق ابن جغتاي، وكان من ملوك المغول في ما وراء نهر جيحون، والذي كان يتعاون مع بركة ضد الدولة الأيلخانية(٢).

---

(١)حسن الأمين - الغزو المغولي، ص١٥٨

(٢) ذكر العزاوي نقلاً عن شجرة الترك: ان السلطان براق اعتنق الإسلام بعد توليه الحكم بسنتين وسمى نفسه (السلطان غياث الدين) فكان أول من أسلم من ملوك ما وراء نهر جيحون وتركستان من سلالة جغتاي وبعد إسلامه تحول إلى الإسلام كبار أمراء المغول في تلك الأصقاع.

المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ص٢٦٣.

ولكن السلطان آباقا الذي كان قد فرغ من حرب القوقاز، تمكن من التصدي للجيوش القادمة من الشرق، وبعد معارك شديدة هزمها وظل يلاحق فلولها حتى اجتازت نهر جيحون.

وبعد هزيمة جيوش ملوك ما وراء النهر أصبح بإمكان آباقا أن يركز جهوده ضد قوى المماليك الذين ازدادت ضغوطهم على حدوده الغربية، بسبب سيطرتهم على دمشق وحلب. غير أن تلك المجابهات العسكرية التي استمرت لأكثر من عشر سنوات وحتى وفاة السلطان بيبرز ظلت بدون نتائج حاسمة.

علاقات آباقا الخارجية

كان من نتائج الصراعات المستمرة بين آباقا ومماليك مصر، قيام علاقات ودية بين حكومته والدويلات الصليبية في عكا وطرابلس. فقد كانت تلك الدويلات بمثابة شوكة في جنب السلطان المملوكي بيبرس، وهذا بدوره أدى إلى تطور علاقات ودية بين آباقا وبعض الدول الغربية المسيحية التي كانت تقف وراء تلك الدويلات الصليبية، ومنها دولة البابا وملك فرنسا. ويقال بأن زوجة آباقا المسيحية وهي ابنة إمبراطور بيزنطية، كان لها دور في ذلك التقارب بين الأيلخان والغرب المسيحي المخاصم لمماليك مصر وبلاد الشام.

وفاة آباقا

في سنة ٦٨٠هـ (١٢٨٢م) توفي السلطان آباقا بعد أن حكم ثمانية عشر سنة، ازداد أثنائها التباعد بين الدولة الأيلخانية وإمبراطورية الخان الأعظم في الشرق. ففي أثناء حكمه اتخذ آباقا عدداً من الإجراءات أعطت دولته إطاراً مستقلاً، فقد سك النقود باسمه وأدخل بعض الإصلاحات على الضرائب، وأبطل التقليد السابق الذي كان يذكر فيه اسم الخان الأعظم أولاً في عناوين الأحكام. فأصبح اسمه يذكر في تلك العناوين أصالة.

السلطان أحمد

بعد وفاة آباقا اجتمع عدد من أمراء المغول مع شمس الدين الجويني صاحب الديوان، وقرروا تولية تكودار الابن السابع لهولاكو. وكان تكودار يهتم بالروحانيات، وقد وجد طريقه إلى الإسلام. وبعد أن اعتلى العرش، أعلن اعتناقه الديانة الإسلامية وسمى نفسه السلطان أحمد. فكان أول من أسلم من أولاد هولاكو. غير أن السلطان أحمد واجه منذ البداية مشكلة طموح ابن آباقا أرغون ومطالبته بالعرش لنفسه. وكان أرغون يتمتع بدعم وتأييد الجماعات العسكرية البوذية، ولذا ظل حكم السلطان أحمد قلقاً، تعصف به المشاكل الداخلية طيلة الفترة التي تربع فيها على العرش.

فقد توجه أرغون إلى بغداد، وأثناء وجوده ارتبكت الإدارة في العراق، لأنه كان رجلاً ذا نزعة شديدة في جمع الأموال بدون الالتفات إلى ظروف البلاد الاقتصادية وإمكانياتها المالية. فقد أحضر قاضي القضاة عز الدين الزنجاني وقرر عليه وعلى العدول عشرة آلاف دينار، واستوفي ذلك منهم بالعسف. وألزم نواب الأعمال الحلية والواسطية والبصرية وغيرهم بمثل ذلك، مما اضطر الكثيرين من السكان إلى الهروب والاختفاء. فنهبت دار كل من اختفى من الناس وبيع ما فيها. ثم طالب أهل بغداد بأجرة أملاكهم عن ثلاثة أشهر. وبعد أن جمع أموالاً كثيرة عاد أرغون إلى خراسان.

وفي خراسان واصل أرغون سياسة ابتزاز الناس والاستحواذ على أموالهم، فقد قبض على والي خراسان واستصفى أمواله. فلما بلغ ذلك السلطان أحمد جهز جيشاً بقيادة (علي ناق) ليضع حداً لتصرفات أرغون، فالتقى به بظاهر مدينة قزوين ونشبت بين الفريقين معركة دامية استمرت طوال اليوم، ولكنها انتهت بتراجع جيش السلطان، أما أرغون فقد عاد إلى خراسان. وبعد تلك المعركة حشد السلطان أحمد عساكره وسار على رأسهم إلى خراسان، وهناك انحازت غالبية العسكر المغولي إلى جانب السلطان أحمد، غير أن أحمد لم يتخذ إجراءاً حاسماً ضد أرغون بل دعاه إلى الطاعة. وبينما كانت

المفاوضات جارية، أقدمت بعض العناصر العسكرية المغولية على قتل قائد جيش السلطان علي ناق، ومواجهة العسكر صباحاً بإعلان أرغون سلطاناً على الدولة. ويقال بأن السلطان أحمد حاول الهروب إلى القبائل الذهبية، ولكن أنصار أرغون أحاطوا به وقبضوا عليه ثم قصفوا ظهره فمات من جراء ذلك. وكان ذلك في صيف سنة ٦٨٣هـ.

السلطان أرغون

اعتلى أرغون العرش بتضافر جهود العناصر البوذية التي كانت تقاوم انتشار الإسلام بين المغول، ولذا فإن عهده كان عهد محنة للمسلمين الذين لاقوا الأمرين من المغول المتعصبين للبوذية، والذين سلطهم أرغون عليهم. فقد تعرضوا طيلة سنين حكمه إلى ظلم وابتزاز وتعسف لم يشهده المسلمون حتى في عهد السلطان آباقا[١].

وبعد أن ارتقى أرغون العرش، ولّى ابنه غازان على خراسان، ثم عين الأمير تاج الدين علي جكيبان مشرفاً بالعراق. لقد كانت نزعة السلطان أرغون الشديدة في جمع الأموال، السبب في أن يقرب إليه طبيباً يهودياً اشتهر ببراعته في الاستحواذ على أموال الناس بمختلف أساليب الابتزاز. فعهد إليه شؤون الجباية والضرائب في العراق، وأنعم عليه بلقب "سعد الدولة" وهذا بدوره عين اخوته ولاة في بغداد والموصل وبذلك أخذ اليهود يتسلطون على رقاب الناس في البلاد.

وبمرور الأيام أدت سياسات أرغون المالية إلى سلسلة من المشاكل جرت البلاد إلى أزمات خانقة. وبالرغم من تلك الأزمات، ظل اليهودي سعد الدولة يتمادى في إجراءاته المالية التعسفية. ففي سنة ٦٨٦هـ بعث به السلطان أرغون مع الأمير أردوقيا لتفحص أحوال العراق ولجمع المزيد من الأموال،

---

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٧٠.

فجرت هناك مطالبة ولاة الأعمال والضمناء بما عليهم وضيقوا عليهم فأدوا أموالاً كثيرة. وبلغ تعسفهم في المطالبة أنهم ضربوا ناظر الكوفة فباع أملاكه، غير أنه لم يتمكن من دفع جميع ما عليه، فظل تحت التعذيب حتى مات. وضربوا كذلك عميد بغداد وبيعت أملاكه وأمتعته لدفع ما تخلف عليه من ضمان الحلة. وبعد أن جمعوا الأموال نقلوها إلى العاصمة، وعلى أثر ذلك رفع السلطان أرغون من مقام سعد الدولة، فوضعه مشرفاً على صاحب الديوان.

وكان من إجراءات الحكومة لمعالجة سوء الأوضاع الاقتصادية والمالية تخفيض سعر العملة فأدى ذلك إلى تضخم مالي غلت على إثره الأسعار واجتاحت العراق موجة من الغلاء والقحط. وبعد حكم دام ثمان سنوات مرض السلطان أرغون وتوفي في سنة ٦٩٠هـ بتأثير جرعة من الدواء السام وصفه له أحد الكهنة البوذيين. وبينما كان أرغون على فراش الموت، انفجرت سورة الغضب في شيراز ضد اليهود فأخذ الناس يقتلونهم وينهبون أموالهم، وعلى إثر ذلك جرى اعتقال الوزير اليهودي سعد الدولة وتم إعدامه.

علاء الدين الجويني

في سنة ٦٨١هـ أقصى السلطان آباقا علاء الدين عطى ملك الجويني صاحب ديوان العراق من منصبه، وسلم إدارة العراق إلى مجد الملك اليزدي، الذي ألقى الجويني في السجن وصادر أملاكه وأمواله بتهمة سرقة أموال الدولة وموالاة حكومات المماليك في مصر والشام. ولكن حالما تسلم السلطان أحمد مقاليد الحكم، أطلق سراح علاء الدين الجويني وأعاد إليه منصبه في إدارة العراق. وبقي الجويني في الإدارة حتى اعتلى العرش السلطان أرغون إذ اختفى علاء الدين الجويني وتوفي بعد اختفائه بفترة قصيرة.

تكاد أن تجمع المصادر على أن إدارة علاء الدين الجويني للعراق طيلة عقدين من الزمن، كانت سديدة، قدم أثنائها للبلاد خدمات جليلة. قال الذهبي عنه:

إن علاء الدين في ولايته على بغداد عمر ما خربه المغول، وأزال عن الناس ما نالهم وأعاد إلى بغداد عمارتها وراحتها... وسعى سعياً بليغاً لذلك[١]. وجاء في تاريخ وصاف:

إن علاء الدين الجويني أجرى نهراً من قصبة الأنبار إلى النجف الأشرف صرف له مبالغ وافرة قدرها بمائة ألف دينار ذهباً فتأسست عمارات وقرى على جانبيه وعددها مائة وخمسون قرية، فانقلبت تلك الأراضي القاحلة إلى مزارع متصلة، ويذكر بأن الجويني أمر ببناء رباط بمشهد الأمام علي بن أبي طالب في النجف ليسكنها المقيمون المجاورون ووقف عليه وقوفاً كثيرة وأدر لمن يسكنه ما يحتاج إليه[٢].

ويقدم لنا صاحب ماضي النجف وحاضرها تفاصيل إضافية عن النهر الذي أجراه علاء الدين الجويني إلى النجف فقال:

فحفر نهراً من الفرات وهو يبعد يومئذ عدة فراسخ عن الكوفة فضلاً عن النجف، فأوصل حفره إلى الكوفة وما كانت يوم ذاك إلا حفائر وتلولاً وآكاماً وأنقاض جدران لا يطرقها زائر ولا ينبت بها زرع، فأمر ببناء قناة من الكوفة إلى النجف تبتدئ من حيث انتهى حفر النهر المنشق من الفرات وأجرى الماء منه بتلك القناة تحت الأرض لأن أرض النجف تعلو عن أرض الكوفة نحو ٣٥ متراً ومن ذلك الحين غرست الأشجار والضياع على حافتي النهر وكان القائم على حفر النهر والمتولي له أحد فضلاء ذلك العصر وهو تاج الدين ابن الأمير علي الدلقندي فاشتهر النهر باسمه إذ سمي بنهر التاجية[٣].

ومن الجدير بالملاحظة إن ما تقدم يلقي الضوء على حقيقة أن مجرى الفرات في تلك الأيام كان يبعد عن الكوفة عدة كيلومترات لأن مياه الفرات كانت قد تحولت في أواخر العهد العباسي إلى فرات الحلة، مما تسبب في اضمحلال الكوفة وبالتالي اندثارها. ومن هذا يمكن تقدير أهمية مشروع الجويني الذي أحيى الكوفة من جديد فضلاً عن إيصال الماء إلى النجف الأشرف.

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ص٢٦٣.

(٢) ن.م.

(٣) الشيخ جعفر محبوبة - ماضي النجف وحاضرها ج١ص١٨٨

السلطان كيخاتو

بعد وفاة أرغون اختار الأمراء بعد تردد، أخاه كيخاتو الذي كان حاكماً في آسيا الصغرى. وبعد توليه عين السلطان كيخاتو في سنة ٦٩١هـ، جمال الدين الدستجرداني على ولاية العراق. وبعد مرور سنتين، عين مكانه شمس الدين محمد التركستاني المعروف بالسكورجي.

تولّى كيخاتو الحكم وكانت البلاد تعاني من أزمة اقتصادية ومالية خانقة. وفي محاولة لإنقاذ الوضع اتبع الطريقة الصينية في الإصلاح، فأمر بإصدار عملة ورقية مكتوبة باللغة والأحرف الصينية والمغولية والفارسية، وشرع قانوناً يفرض استعمال تلك العملة الورقية بدلاً من الذهب والفضة وباقي العملات المعدنية المتداولة آنذاك. وحينما طرحت تلك العملة الورقية في أسواق تبريز، رفض الناس تداولها إذ لم يكونوا قد اعتادوا تداول العملات الورقية. وحينما حاولت الحكومة إجبارهم على ذلك، توقفت أعمال البيع والشراء، واختفت السلع من الأسواق، وخلت عدة مدن من المؤن وانتشرت عصابات اللصوص تنهب الأرياف والمزارع وما تجده من المنتجات. وما حدث في تبريز انتشر في باقي أنحاء أذربيجان. أما في خراسان فإن حاكمها العام الأمير غازان ابن أرغون، لم يقدم على إجبار الناس على تداول تلك العملة الورقية، وهكذا سلمت خراسان من الاضطرابات. وبعد تفاقم المشاكل اضطرت حكومة كيخاتو إلى إلغاء تلك العملة الورقية، ولم يكن قد مضى على إصدارها سوى ستة أشهر. أما في العراق فلم تطرح تلك الأوراق بالرغم من أن أخبار ما حدث في إيران، شنج الأوضاع في أسواق بغداد.

وفي أثناء تلك الأزمات جاءت أخبار تشير إلى أن رجال العشائر العراقية في واسط قد تمردوا على الحكومة. فأمر كيخاتو، بايدو ابن طرغاي بالمسير

إليهم. فسار بايدو وكان يتمركز في سياه كوه[1] إلى بغداد، ومنها انحدر إلى واسط. ولكن عسكره لم يتمكن من أن ينال من رجال العشائر، الذين اعتصموا بالأهوار والبطائح، فاضطر بايدو إلى العودة بجيشه، وأثناء عودته أخذ يهاجم القرى والبلدات وينهب المنتجات الزراعية وأموال الناس وما عندهم من غنم وبقر وجواميس وسبى النساء وأخذ الأسرى. ثم صادف سفن محملة بالبضائع قادمة من البحر فنهبها وسلب ما كان لدى التجار. وبعد رحيل عسكر المغول خرج الأعراب من البطائح وأخذوا ما بقي لدى التجار، حتى إن التجار أصبحوا حفاة عراة لا يقدرون على شيء[2]. ولم يكتف بايدو بذلك بل أخذ يشن الغارات في غرب الفرات فنهب عساكره عين التمر والكبيسات، ثم توجهوا إلى بغداد ومعهم أكثر من ثلاثين ألف أسير.

كان وقع ما فعله عسكر بايدو بأهل العراق شديداً، إلى حد اضطر فيه شمس الدين السكورجي إلى أن يتوجه إلى تبريز ليعرض الأمر على السلطان. وبعد أن اطلع كيخاتو على تلك الفضائع التي نزلت بأهل العراق، أمر بحبس بايدو وتحرير الأسرى وتسليمهم إلى شمس الدين، الذي كساهم وعاد بهم إلى العراق. ولكن سجن بايدو لم يطل نظراً لما كان يتمتع به من نفوذ في الأوساط البوذية، فقد تم إطلاق سراحه بعد ثلاثة أيام.

مقتل السلطان كيخاتو

ظلت المشاكل التي ورثها كيخاتو من حكم أخيه أرغون تتفاقم وتزداد، وأخذت آثارها السلبية ترتد عليه، ربما بسبب ضعفه، فقرر عدد من أمراء المغول التخلص منه، فقرروا قتله بالإتفاق مع بايدو الذي تسلم الأمر بعده، بالرغم من

---

(١) سياه كوه: كلمة فارسية معناها الجبل الأسود وهو جبل طويل بين الري وإصبهان يمتد حتى يصل ببلاد الجبل وهو جبل وعر يأوى إليه اللصوص بين الري وإصبهان.

ياقوت الحموي الرومي البغدادي - معجم البلدان

(٢) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ص٣٥٧

انه لم يكن من سلالة هولاكو. ولكن حكومة بايدو لم تدم سوى بضعة اشهر، إذ وقف ضدها في خراسان غازان ابن أرغون، وكادت أن تندلع حرب شعواء بين المغول، لولا أن عساكر بايدو تخلوا عنه وانحازوا إلى جانب غازان. وحينما حاول بايدو الهروب أحاطوا به وقتلوه. وفي آخر ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ اعتلى غازان ابن أرغون العرش.

السلطان محمود غازان

بعد مرور أربعة عقود من الزمن على قيام الدولة الأيلخانية التي أسسها هولاكو في إيران والعراق، وقبل نهاية القرن السابع الهجري، دخلت ظاهرة تحول المغول إلى الدين الإسلامي مرحلة فاصلة. فبعد اعتلاء السلطان غازان العرش أعلن رسمياً اعتناقه الدين الإسلامي، ودخل تبريز وصلى في جامعها. وقد مثل ذلك الحدث في حقيقة الأمر الذروة، لانعطاف جماهيري واسع بين المغول الذين أخذوا يدخلون في دين الإسلام أفواجاً. وقد شملت تلك الحركة أعداد كبيرة من أمراء المغول وأفراد الأسرة المالكة. وبالرغم من أن السلطان الجديد احتفظ باسمه، ولكنه اتبع القاعدة الإسلامية القائلة "خير الأسماء ما عبد وحمد" فحمد اسمه وأصبح يدعى محمود غازان، الذي كان أول سلطان من ذرية هولاكو، يأخذ على عاتقه دعوة المغول إلى الإسلام. قال عنه صاحب شجرة الترك:

وقد بذل جهوداً كبرى لنشر الدين الإسلامي وبسعيه واهتمامه أسلم كل المغول الذين في إيران[١].

ففي أول أمر سلطاني (برليغ) أصدره غازان بعد اعتلائه العرش دعا فيه المغول إلى قبول الإسلام، وأمرهم أن يحكموا بالعدل بين الناس وأمر أن

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج١ص٣٩٧

تقوض دور الأصنام والكنائس ومعابد المجوس. وأن تحول البيع إلى مساجد[1].

ومن الجدير بالملاحظة أن اعتناق غازان للديانة الإسلامية تزامن مع موت الخان الأعظم الإمبراطور قوبيلاي، الذي كان حليف هولاكو وسنده في تأسيس الدولة الأيلخانية. ولذا كان الأيلخانات يدينون له بالطاعة بصفته رأس الإمبراطورية المغولية العالمية. ولكن بعد وفاة قوبيلاي انفصمت عرى الوحدة بين دولة الأيلخانات في تبريز، وإمبراطورية الشرق التي أخذت طابعاً صينياً. فلم يعد هناك مفوض سامي للخان الأعظم في تبريز كما كان سابقاً. ونبذ خلفاء هولاكو لقب الأيلخان، وأصبحوا يعرفون باسم "الخان". ومنذ عهد غازان، لم تعد السياسة الدينية للدولة ترسم حسب رغبات الكهنة البوذيين. فقد جردوا من امتيازاتهم السابقة، وجرى تحويل معابدهم البوذية إلى مساجد. وأعيدت الأملاك الإسلامية إلى أصحابها. فقد استرجعت دار علاء الدين الطبرسي (الدويدار الكبير) في بغداد التي كان هولاكو قد منحها لجاثليق النصارى إبان استيلاء المغول على بغداد، فأزيل ما بها من التماثيل والخطوط السريانية، واستعيد منهم كذلك الرباط اتجاه تلك الدار الذي حوله النصارى مدفناً لأكابرهم، فأزيلت القبور وصار مجلساً للوعظ. وبذلك انتهى نفوذ البطريرك النسطوري وتضائلت أهمية الكنيسة النسطورية بعد أن أخذ أفراد تلك الطائفة يتحولون إلى الإسلام، بينما انسحب من بقي متمسكاً بتلك العقيدة إلى الجبال الجرداء شمال الفرات الأعلى[2].

ولذا يمكن القول بأن كان لتلك التحولات التي أطلقها إسلام السلطان غازان، أبعاد تاريخية واجتماعية وسياسية. وقد أثارت تلك التحولات، اهتمام العديد من الباحثين. فقد كتب عنها برتولد شبولر:

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج١ص٣٦٨

(٢) برتولد شبولر - العالم الاسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٧٠.

لقد كان اعتلاء غازان العرش نقطة فاصلة في تاريخ دولة المغول في إيران لأنه حالما اعتلى العرش أعلن عن اعتناقه للديانة الإسلامية رسمياً وقد بقي جميع حكام إيران الذين تلوه مخلصين لهذا الدين... هذا وقد تحول معظم المغول إلى الديانة الإسلامية بعد عقدين من الزمان، وعندما اعتنقوا الإسلام أصبحوا يشاركون الأتراك في إيران دينهم، وكان هؤلاء كثيري العدد وقد اعتنقوا الإسلام منذ عهد طويل. فعندما أصبح هذان الشعبان على دين واحد انصهروا في بوتقة واحدة، وأصبحت اللغة التركية لغتهم المشتركة ولسانهم اليومي. وفي بداية القرن الرابع عشر الميلادي (بداية القرن الثامن الهجري) بدأت القبائل التركية في بلاد إيران تتخذ شكلها المحدد الحالي. وأصبحت مقاطعة أذربيجان المركز الرئيسي للاستيطان التركي المغولي وذلك بصفتها مقر قوة (الأيلخانات) وبقيت تتكلم التركية منذ ذلك العهد فاختفى الكلام باللغة المغولية وحلت محله اللغة التركية. ولهذا فإن أي ذكر للدولة المغولية في إيران من الآن فصاعداً يجب أن يعالج بحذر وتحفظ...(١).

إن إشارة المؤرخ شبولر إلى تلك التحولات الاجتماعية واللغوية التي حدثت في شمال إيران، في تلك الحقبة التاريخية والتي انتهت بولادة شعب جديد في أذربيجان، لم تنل إلى يومنا هذا ما تستحقه من الاهتمام والبحث. فمن المعروف إن شمال إيران تعرض منذ الفتح الإسلامي إلى هجرات القبائل التركية. فبعد أن فتح المسلمون أقاليم آسيا الوسطى، أو ما كان يعرف ببلاد ما وراء النهر، ألحقت تلك الأقاليم بولاية خراسان في عهدها الإسلامي، والتي كانت مدينة مرو عاصمتها وقاعدة جيوش الفتح الرئيسية. ومنذ ذلك الحين أخذت هجرات القبائل التركية التي دخلت في الإسلام تتدفق وتنتشر في أقاليم خراسان. غير أن غالبية تلك القبائل التركية التي امتزجت بالسكان المحليين من أهل البلاد تأثرت بحضارتهم الفارسية، وانصهرت في بوتقة ذلك المجتمع. وقد ساعد ذلك التقارب والامتزاج بين الترك والفرس على انتشار الإسلام باتجاه الشرق في أعماق بلاد ما وراء النهر، حيث قامت حضارة إسلامية قوامها اللغات الثلاث التركية والفارسية والعربية التي هي لغة القرآن. وقد ظهر في تلك الأصقاع جيل من علماء المسلمين الترك، الذين كانوا يتخاطبون ويكتبون بتلك اللغات الثلاث.

---

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٧٢-٧٣.

ولكن إيران بعد الغزو المغولي، تعرضت إلى هجرات تركية كبيرة، كان لها خصوصيات ترتبط بطبيعة الغزو المغولي أيام جنكيزخان، فقد سبق أن أشرنا إلى التحاق القبائل التركية بجيوش جنكيزخان الزاحفة نحو الغرب، ومساهمتها في القضاء على الدولة الخوارزمية. وفي تلك الفترة انتشرت تلك القبائل التركية في مراعي وسهول شمال إيران، واستمر تدفق تلك الهجرات الرعوية لعدة عقود. وبالرغم من تأثر تلك الجماعات بحضارة المجتمع الفارسي، فإنها لكثرة أعدادها في الأقاليم التي استقرت بها، حافظت على لغتها التركية التي سادت في تلك المناطق الرعوية.

وفي الحقب التالية، خاصة بعد حملة هولاكو وقيام الدولة الأيلخانية، تعرضت تلك الأقاليم الرعوية التركية في شمال إيران إلى هجرات قبائل المغول الرعوية، التي جاءت أثناء وبعد استيلاء هولاكو على المنطقة. وقد امتزجت تلك القبائل المغولية الرعوية بالسكان المحليين، وبتأثير تلك المجتمعات التركية، تحول أولئك المغول إلى الإسلام. وبمرور الزمن انصهرت تلك الجماعات المغولية اجتماعياً ولغوياً، في بوتقة تلك المجتمعات الرعوية التركية. وقد ساعد تشابه أساليب المعيشة الرعوية، وتقارب العادات والتقاليد بين القبائل التركية والقبائل المغولية، وتقارب لغاتهم ولهجاتهم التي تعود إلى أصول لغوية واحدة، كل هذا ساعد في عملية الانصهار تلك. وبعد بضعة عقود ظهر شعب إسلامي، ذو خصوصيات تركومغولية، يتكلم أفراده اللغة التركية بلهجة متميزة أصبحت تعرف باللهجة الأذرية، ثم عرفت بلادهم باسم أذربيجان. إن ولادة ذلك الشعب الأذري، مثلت تلك الظاهرة الاجتماعية الإسلامية، التي أشار إليها المؤرخ شبولر، والتي برزت معالمها بعد أربعة عقود من قيام الدولة الأيلخانية في عهد السلطان غازان.

أعمال السلطان غازان وإصلاحاته

لقد اعتمد رخاء العراق عبر التأريخ، على الزراعة التي كان ازدهارها يعتمد على تنظيم مشاريع الري وإدامتها. ولم يكن للأيلخانيين سياسة واضحة بهذا الشأن، وإن أول مشروع للري نسمع عنه في ذاك العهد، ارتبط باسم صاحب ديوان العراق علاء الدين الجويني، الذي شق في عهده ذلك النهر الذي يخرج من الفرات إلى النجف. ثم مرت أربعة عقود من الزمن لم تقم أثنائها مشاريع للري تستحق الذكر، حتى جاء عهد غازان السلطان الشاب الذي اعتلى العرش وهو في العشرينات من عمره، والذي اعتبر غالبية الباحثين إصلاحاته وأعماله الخيرية باعتبارها نموذجاً متميزاً من بين أعمال سلاطين المغول.

فبعد اعتلائه العرش توجه السلطان غازان في سنة ٦٩٦هـ بعسكر كثيف نحو العراق. وتقول المصادر بأن سلوك عسكره أدهش الناس، إذ لم يتعرضوا للفلاحين من أهل السواد كما كان مألوفاً في تلك الأيام، إذ كان المزارعون يمرون بالعسكر بمنتجاتهم إلى الأسواق، فلا يتعرض لهم أحد ولا يؤخذ منهم شيء إلا ابتياعاً[١]. ثم سار السلطان غازان من بغداد إلى الحلة ومنها إلى النجف فزار مشهد الإمام علي بن أبي طالب وأمر بشيء كثير من الأموال للأشراف العلويين وللفقراء. ثم قصد كربلاء فزار مشهد الحسين بن علي وفعل مثل ذلك، وفي طريق عودته خرج من الحلة متصيداً إلى قوسان ثم قصد زيارة قبر سلمان الفارسي جنوب بغداد وأمر بمال للفقراء والمقيمين، ثم توجه إلى بغداد حيث أقام بها حتى الربيع.

وفي سنة ٦٩٨هـ عاد السلطان غازان لزيارة العراق، وزار مشهد الإمام علي بن أبي طالب في النجف ومشهد الإمام الحسين في كربلاء. وفي هذه الزيارة أمر بشق نهر يخرج من الفرات لتجري مياهه إلى مشهد الإمام

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ص٣٧٤

الحسين في كربلاء. وقد ذكر رشيد الدين فضل الله في كتابه "جامع التواريخ" بعض التفاصيل عن ذلك المشروع الإروائي فقال:

إن غازان أمر بفتح نهر في منطقة الحلة سمي بالنهر الغازاني أوصله إلى مشهد الحسين حتى أخذ يسقي أراضي كربلاء اليابسة فأصبحت الأراضي الممتدة على جانبيه مليئة بالحدائق والبساتين وأصبحت السفن القادمة من بغداد وغيرها من دجلة والفرات تستطيع الوصول إلى المدينة وارتفع إنتاج غلات المنطقة إلى ما يقارب المائة ألف طغار وأصبحت صادراتها من الحبوب والخضروات الفاخرة تصل إلى بغداد وأعمالها... وإن غازان أوصل الماء في فرع من النهر المذكور إلى مشهد سيدي "أبو الوفاء" في نهر سمي بالنهر الغازاني الأسفل وأوقف الكثير من الأراضي الجديدة على خدمة المشهد المذكور[(١)] .

وقد تناولت إصلاحات غازان حقولاً أخرى متعددة من أجل إعادة بناء الاقتصاد، التي تقوضت دعائمه منذ أيام السلطان أرغون. واعتمد في تنفيذ مشاريعه الإصلاحية على رجال أكفاء اختارهم بنفسه، مثل الوزير رشيد الدين فضل الله، والوزير علي شاه، الذين اشتركا معه في وضع الأسس لتنظيمات جديدة تستهدف النهوض بالمجتمع. ولتحقيق ذلك تم وضع نظام خاص، على أساسه يتم إصدار الأوامر السلطانية (برليغ) أو (بابيزة) فأصدر في سنة ٧٠٢هـ قانوناً لإصلاح الضرائب ألغى بموجبه أسلوب "الضمان"، الذي طالما عرض الفلاحين والمزارعين للإجحاف والابتزاز من قبل الملتزمين، والذي في كثير من الأحيان عرض حتى الملتزمين أنفسهم لابتزاز الحكام وظلمهم. وقد راعت قوانين غازان العدالة والتوازن إذ تم تأجيل جباية الضرائب عن المناطق التي أرهقت وتعرضت لظلم الحكومات السابقة. وتحول اعتماد الدولة على الضرائب المباشرة التي أعيد تخمين ما استحق منها على الولايات المختلفة. وشملت الإصلاحات كذلك ملكية العقارات وتوحيد الموازيين والمكاييل في البلاد. أما في مجال القضاء والعدالة فقد طبقت الشريعة الإسلامية في نصوصها التشريعية والقانونية بدلاً من قوانين جنكيز خان المثبتة في "الياسا".

---

(١) د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين، ص٩٣

وفاة السلطان غازان

توفي غازان في سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) ودفن في تبريز في قبر ظاهر على خلاف تقاليد المغول البدوية، وألحقت به دار للقرآن ومدرسة ودار للحديث ومستشفى وخانقاه ودار للأيتام. وكان غازان قد قرر قبل وفاته إنشاء وقف سماه (دار السيادة)، وذلك في كل مدينة كبيرة مثل بغداد والحلة والموصل والعاصمة تبريز إصفهان وشيراز. وجعل لكل واحد منها وقفا يصل إلى الفقراء من السادة العلويين، وتصرف غلته كلها في وظائفهم.

لقد حظيت أعمال وإصلاحات السلطان غازان باهتمام العديد من المؤرخين، فقد قال عنه صاحب كتاب شجرة الترك:

لقد بذل جهوداً كبرى لنشر الدين الإسلامي وبسعيه واهتمامه أسلم كل المغول الذين في إيران.

وقال عباس العزاوي بهذا الصدد:

ولما شرفه الله بالإسلام صارت له من العظمة والسطوة ما لا يوصف، واحبه المسلمون ورأوا منه كل خير مما فاق به مآثر القدماء... وكانت خيراته عميمة وعماراته في العراق والخارج كثيرة... وأشار إلى أن صاحب تاريخ كزيدة سماه (سلطان الإسلام)(١)

أما المؤرخ البريطاني لونكريك فقد عزا إصلاحات غازان وأعماله الخيرية إلى عمق إيمانه بالإسلام وإلى ورعه الشيعي فقال عنه:

فقد كان غازان ممن أفادوا بغداد عن حب وإخلاص. فإن إصلاحاته للقانون والحكومة وورعه الشيعي وتردده الكثير إلى العراق كانت كلها من الأمور التي تبعث الأمل في الإحياء والتجديد.

واعتبر لونكريك وفاة غازان نقطة التحول التي وضعت حكم أسرة هولاكو على طريق الاضمحلال فقال:

فقد سبب موت غازان خان في سنة ١٣٠٤م (٧٠٤هـ) إضعاف أسرة هولاكو بصورة قاضية فدب في تلك السلالة الاضمحلال(٢).

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ص٣٩٧ و ص٣٩٨

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٢٧ ترجمة جعفر الخياط - بغداد

أما المؤرخ برتولد شبولر فقد اعتبر السلطان غازان ألمع أمير مغولي حكم بعد هولاكو، وقال إن حكمه كان مفعماً بالنشاط المتواصل والمتعدد النواحي، وأشار إلى إسلامه وتعامله المتوازن مع رعاياه فقال:

وعندما أصبح غازان مسلماً كان عليه أن يختار إما أن يكون من أهل السنة أو من الشيعة، فاختار أهل السنة وهذا هو المذهب الذي اعتنقه جميع أفراد الشعب تقريباً، ومع ذلك فقد عامل الشيعة بتسامح ولم يظهر أي تعصب أعمى كان يتسم به أهل السنة غالباً في معاملتهم للشيعة في خلال التاريخ الإسلامي، وقد طمأن الشيعة بالتسامح واتبع ذلك الموقف المغولي القديم وهو (عش ودع الآخرين يعيشون) ولكن الحقيقة هي إننا لا نعدو جادة الصواب إذا قلنا، إن غازان كان في داخله يضمر الصداقة والحب للشيعة رغم إعلانه نفسه من أهل السنة، فقد كان يؤيد بنشاط كثير المؤسسات الشيعية ويزور عتبات كربلاء المقدسة(١).

وبالرغم من أن السلطان غازان قمع بحزم الثورات في جورجيا وسير بعض الحملات ضد المماليك في الشام ورفض بشدة التخلي عن القوقاز للقبائل الذهبية وبدأ بالاستعداد للحرب من أجل ذلك فإنه بصورة عامة لم يكن من المهتمين بالشؤون العسكرية إذ كان يعتبرها أقل أهمية من الشؤون الأخرى للبلاد.

السلطان الجايتو محمد خدابندة

أوصى السلطان غازان قبل وفاته بولاية العهد لأخيه الجايتو. ولما اعتلى الجايتو العرش اتخذ لنفسه اسماً إسلامياً، فأصبح يدعى محمد خدابندة، وتعني بالفارسية عبد الله وتلقب بغياث الدين، وأقر قتلغ شاه نائباً عنه. ويذكر أن الجايتو كان مسيحياً في صباه ثم تحول إلى الإسلام مع أخيه غازان. وبالرغم من أن خدابندة لم يكن يفتقر إلى النشاط والحيوية، فإنه ابتعد بعض الشيء عن المنهج الإصلاحي الذي سلكه غازان. ولذا ظلت الكثير من أمور البلاد تراوح مكانها، حتى لم يبق من إصلاحات غازان الداخلية إلا البعض القليل. غير أن

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامى في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٧٢.

خدابندة، فاق غازان في إنجازاته العسكرية فقد تصدى ودحر العديد من الغزوات في القوقاز وفي بلاد الشام. وأخمد بمهارة وبقوة، أخطر ثورة قامت ضده في هرات والتي كان يدعمها حكام ما وراء النهر.

وفي سنة ٧٠٤هـ (١٣٠٤م) ولد للسلطان خدابندة غلام سماه علاء الدين أبا سعيد بهادر فكان أول أمير من ذرية هولاكو حمل اسما إسلامياً فقط منذ ولادته.

وحينما أسلم الجايتو في شبابه أعلن هو وأخوه غازان اعتناقهما مذهب أهل السنة. أما السلطان خدابندة فبعد أن تولى العرش حاول توحيد مذهبين من مذاهب أهل السنة والجماعة في إيران[1]، ولكن محاولاته تلك لم يحالفها النجاح، فتحول في سنة ٧٠٧هـ وأعلن اعتناقه مذهب الشيعة الإثني عشرية، ويقال بأن اعتناقه لمذهب الشيعة، كان بتأثير العالم الشيعي الحسن بن الشيخ يوسف بن علي بن المطهر الحلي الأسدي المعروف بـ"العلامة الحلي". وكان العلامة الحلي يعد كبير علماء الشيعة في زمانه، والمعول عليه في الفقه والكلام، وكان مقيماً في الحلة مركز الحوزة الشيعية آنذاك حيث توفي سنة ٧٢٦هـ.

وبهذا الصدد قال جعفر المهاجر:

لقد افتتح العهد الأيلخاني بملك أعلن تشيعه يوم اعتلى العرش. ذلك هو غازان خان محمود (٦٧٩هـ-٧٠٣هـ/١٢٨٠م-١٣٠٣م) وضرب نقوداً ذهبية كبيرة نقشت عليها آيات قرآنية وأسماء الأئمة الإثنى عشر. وظلت المحاولة محصورة، حتى جاء إلى الحكم أخوه أولجاتيو محمد خدابنده (٧٠٣هـ-٧١٦هـ/١٣٠٣م-١٣١٦م) فأعلن التشيع مذهباً رسمياً للدولة. وذلك على أثر محاورة جرت بين يديه، بين القاضي نظام الدين بن عبد الملك الشافعي وتاج الدين الآوي. ثم استدعى العلامة الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر (٦٣٨هـ-٧٢٨هـ/١٢٥٠م-١٣٢٧م)، الذي كتب باسمه كتابيه "منهاج الكرامة في الإمامة" و "منهاج اليقين في أصول الدين".[2]

وقد أشار ابن بطوطة إلى تشيع السلطان محمد خدابندة فقال:

---

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٧٧.

(٢) جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي ص١٠٨.

كان ملك العراق السلطان محمد خدابندة قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمى جمال الدين ابن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت بإسلامه التتار زاد في تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره، وشرح له حال الصحابة والخلافة، وقرر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله، وأن علياً ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة... فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك إلى العراقين (عراق العرب وعراق العجم) وفارس وأذربيجان وإصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل إلى البلاد... فكان أول بلاد وصل إليها بغداد وشيراز وإصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأزج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الإمام بن حنبل وقالوا: لا سمعاً ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة بالسلاح... وهم اثنا عشر ألفاً في سلاحهم... وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر إلا اسم علي ومن اتبعه كعمار بن ياسر رضي الله عنهم... فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز وإصفهان كفعل أهل بغداد [1].

نستشف من حكايات ابن بطوطة بأن تحول محمد خدابندة إلى المذهب الشيعي، صاحبته بعض المشاكل في البلدان التي كان غالبية سكانها من أهل السنة، مثل محلة باب الأزج في بغداد ومدينة شيراز وإصفهان التي كانت الصراعات الطائفية بين السنة والشيعة فيهما لا تهدأ. ففي زيارته لإصفهان، يحدثنا ابن بطوطة قائلاً:

ووصلنا بعد العصر إلى مدينة إصفهان من عراق العجم ... ومدينة إصفهان من كبار المدن وحسانها إلا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بين أهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا يزالون في قتال...[2].

أما المؤرخ المعاصر شبولر فهو الآخر أشار إلى الاضطرابات التي ثارت في إيران إثر تحول خدابندة إلى مذهب الشيعة فقال:

وسبب اعتناق الحكام المذهب الشيعي، كثيراً من الاضطرابات في إيران لأن ذلك التحول سبب انقلاب موازين القوى بين المجتمعات الدينية". غير أنه علل ذلك بقوله: "لأن في هذا الوقت كان عدد الشيعة قد ازداد في بلاد إيران والعراق وسرعان ما تحسن وضعهم واستقر لهم الأمر نهائياً[3].

(١) عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة - رحلة ابن بطوطة ص٢٠٤ و ص٢٠٥

(٢)ن.م. ص١٩٩

(٣) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٧٧.

ومن المرجح أن إشارة المؤرخ شبولر إلى ازدياد عدد الشيعة في إيران إلى حد أن الأمر استقر لهم نهائياً أي أنهم أصبحوا الأغلبية، كانت تنصب على الأقاليم الشمالية من إيران أي أذربيجان، التي أصبحت موطن القبائل التركومغولية في إيران والتي كانت مقر الأيلخانات وقاعدة دولتهم. إذ سبق وأن أشار إلى هجرات القبائل التركية واستقرارها في تلك الأقاليم، ومن ثم هجرات القبائل المغولية إليها وانصهارها في بوتقة تلك المجتمعات التركية والتي أخذت شكلها التركي الحالي منذ بداية القرن الثامن الهجري أي في أواخر عهد السلطان غازان.

أما أقاليم إيران التي كانت تعرف في تلك الأيام بعراق العجم أو بلاد فارس، بمدنها الرئيسية مثل شيراز وإصفهان التي كانت غالبية سكانها من أهل السنة والجماعة، فإن السكان بقوا متمسكين بمذاهب أهل السنة، ولذا لا يمكن القول بأن إشارة المؤرخ شبولر تنطبق عليهم. وهذا ما شاهده ابن بطوطة الذي زار تلك المدن بعد وفات السلطان محمد خدابنده.

السلطان خدابندة وأشراف مكة

في سنة ٣٥٨هـ أسس في مكة المكرمة أحد الأشراف العلويين وأسمه جعفر ابن الحسن، وهو من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب، ما يشبه الإمارة أصبحت تعرف بشرافة مكة، والتي يمكن أن تشبه بنقابة الأشراف في العراق. وقد تزامن قيام شرافة مكة مع استيلاء الفاطميين على مصر. وبعد أن انتقل الخليفة المعز لدين لله الفاطمي من المغرب إلى مصر، كتب إلى الشريف جعفر ابن الحسن بتعيينه والياً على الحجاز باسم الدولة الفاطمية، التي امتد نفوذها من المغرب الأقصى حتى مصر. ويبدو أن الشريف جعفر رحب بتلك الخطوة بالرغم من أنه كان من الشيعة الزيدية، وهو المذهب السائد في الحجاز، بينما الفاطميون كانوا من الشيعة الإسماعيلية. وبذلك أعلن الشريف جعفر ابن الحسن ضم الحجاز إلى الدولة الفاطمية وقطع الدعاء في مكة

للخليفة العباسي، وصار يدعو للخليفة الفاطمي. كما أدخل في الأذان عبارة "حي على خير العمل" التي يتميز بها أذان الشيعة. ومنذ ذلك الحين قام في الحجاز صراع وتنافس على النفوذ بين الخلافة العباسية في العراق والخلافة الفاطمية في مصر.

وفي تلك الأثناء حاول الخليفة العباسي أن يستعيد نفوذه على الحجاز، فبعث إلى مكة نقيب الأشراف في العراق الحسين بن موسى والد الشريف الرضي بعد أن عينه أميراً للحج العراقي. وقد تمكن نقيب اشرف العراق الموسوي، أن يقنع شريف مكة بقطع الدعاء للفاطميين، غير أن ذلك لم يستمر طويلاً بسبب ضعف الدولة العباسية في تلك الحقبة، يقابله تعاظم نفوذ الدولة الفاطمية في مصر.

ومن الجدير بالملاحظة، إن نقباء الأشراف في العراق، وهم من سلالة الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وقفوا ضد الدولة الفاطمية الشيعية في مصر، لأن الشيعة الإسماعيلية يسوقون الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ولده البكر إسماعيل (الذي توفي في حياة والده)، بدلاً من ولده موسى الكاظم. ويبدو أن نقطة الخلاف تلك، بين التيارات الشيعية حول الإمامة، أقامت الأرضية المناسبة في تلك الحقبة، للتقارب بين الخلافة العباسية والشيعة في العراق الذين يسوقون الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ولده الإمام موسى الكاظم.

وفي العام ٤٠١هـ كتب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، إلى شريف مكة آنذاك الحسن الذي كان يلقب "أبي الفتوح" يأمره بإعلان البراءة من الشيخين (أبو بكر وعمر بن الخطاب) وأن يذكر ذلك في خطبة الجمعة في الكعبة[١]. ولكن الشريف أبو الفتوح استنكر ذلك، لأنه كان كغيره من أشراف مكة شيعياً على مذهب الإمام زيد ابن علي زين العابدين ابن الحسين ابن علي ابن أبي

---

(١) د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ملحق ج٦ ص١٦.

طالب. والإمام زيد بن علي، الذي ثار واستشهد بالكوفة في أواخر العهد الأموي، وهو عم الإمام جعفر الصادق،كان يرفض البراءة من الشيخين. وكان يعتبرهما إمامين عادلين، ويقول انهما حكما بالعدل بين المسلمين، وتمسكا بكتاب الله وسنة رسوله.

وهو صاحب الرأي الذي يجوز خلافة المفضول مع وجود الأفضل، بشرط أن يحكم بالعدل ويتمسك بكتاب الله ورسوله. وعلى هذا الأساس كان الإمام زيد بن علي يقر بخلافة الشيخين مع وجود من كان أفضل منهم في زمانهم، والمقصود به الإمام علي ابن أبي طالب، وهذا ما يراه الشيعة الزيدية.

وعلى إثر ذلك نقض الشريف أبو الفتوح البيعة للخليفة الفاطمي، وأعلن نفسه خليفة على المسلمين ولقب نفسه "الراشد بالله" وحمل سيفاً ادعى أنه سيف ذي الفقار، وهو سيف علي ابن أبي طالب، كما حمل قضيباً ادعى أنه قضيب رسول الله(1). وشرع يتلقى البيعة من أهل مكة والمدينة، وقد بايعته العديد من القبائل كبني سليم وبني هلال وبني عوف وبني عامر، غير أن حركته لم يكتب لها النجاح لأن الفاطميين قطعوا عن الحجاز ما كانوا يوردونه له من الحبوب والغلال وغيرها من المعونات التي كان السكان بأشد الحاجة إليها، مما اضطر أبو الفتوح إلى التراجع وإعلان التوبة. وهكذا ظلت شرافة مكة تعيش تحت تأثير الضغوط السياسية والاقتصادية لمراكز القوى المحيطة بالحجاز.

وفي سنة ٦٥١هـ أي قبل سقوط الخلافة العباسية بخمس سنوات، تولى شرافة مكة رجل كان يعد من مشاهير الأشراف وصلحائهم يدعى أبو نمى الأول، الذي دامت شرافته قرابة خمسين عاماً. وكان يقال عنه كما يروي المقريزي: "لولا إنه زيدي لصلح للخلافة لحسن صفاته"(2). وقد توفي أبو نمى

---

(١)د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ملحق ج٦ ص١٦.

(٢) ن. م.ص٢١

سنة ٧٠١هـ في عهد السلطان المغولي محمود غازان في العراق، والملك الناصر بن قلاوون في مصر، وقد خلف ثلاثين ولداً. وبعد وفاته نشبت نزاعات شديدة بين أولاده على شرافة مكة، وكان النزاع على أشده بين أربعة من أبنائه هم:

- الشريف حميضة
- الشريف عطيفة
- الشريف رميثة
- الشريف أبو الغيث

وفي سنة ٧١٥هـ ذبح الشريف حميضة، على مشهد من الناس، أخاه أبا الغيث وأجبر باقي اخوته على البيعة له. وعلى إثر ذلك هرب الشريف رميثة إلى حاكم مصر، الناصر ابن قلاوون مستنجداً، ونقل إليه أن الشريف حميضة أسقط أسمه من خطبة الجمعة في مكة وأنه يخطب لحاكم اليمن. فجهز حاكم مصر جيشاً واستولى على مكة وسلم الشرافة إلى رميثة. ولكن الشريف حميضة لم يقف مكتوف اليدين، بل هرب إلى العراق مستنجداً بالسلطان محمد خدابندة الذي كان قد أعلن اعتناقه المذهب الشيعي. وفي العراق تمكن الشريف حميضة من التأثير على خدابندة، ليعيده إلى شرافة مكة، على أن تكون الخطبة في الكعبة باسم السلطان محمد خدابندة.

ذكر صاحب عقد الجمان في أحداث سنة ٧١٦هـ فقال:

كان السلطان خدابندة قد جهز حميضة، وجهز معه الدرفندي (الدلقندي) نائب السلطنة بالبصرة، وجهز معه عسكراً وخزانة ليسير بالعسكر مع حميضة وليملكه مكة المكرمة بدل أخيه رميثة. فسار الدرفندي وحميضة ومن معهما من عسكر التتار والعرب حتى تجاوزوا البصرة، فبلغهم موت السلطان خدابندة، فتفرقت تلك الجموع ولم يبق مع الدرفندي غير ثلاثمائة من التتار وأربعمائة من عقيل عرب البصرة، وبعد ذلك هاجم عرب خفاجة بزعامة محمد بن عيسى الدرفندي، فانهزم في بضع وثلاثين نفساً وانهزم حميضة، واستولت خفاجة على ما كان معهم من الأموال والخيام والأثقال والجمال وكان ذلك شيئاً عظيماً[1].

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ص٤٤٨ و ص٤٤٩

ولكن بالرغم من تلك الانتكاسة، استطاع حميضة الذي قاتل بشجاعة منقطعة النظير، الوصول إلى مكة واستعادة الشرافة وصار يدعو لسلطان العراق أبي سعيد الذي خلف خدابندة.

ومما يذكر أن الشريف حميضة تزوج أثناء إقامته في العراق وخلف ولداً سماه محمد، وقد بقي ابنه محمد في العراق مع أمه لدى أخواله. وتزوج محمد في العراق وصارت له ذرية كبيرة من الأشراف، واشتهر من ذريته السيد عطيفة المتوفى سنة ٩٣٤هـ (١٥٢٨م). ولما دخل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد في عام ٩١٤هـ نال السيد عطيفة مقاماً عالياً لديه، فأقطعه الأراضي الممتدة على شاطئ دجلة الأيمن بين الكاظمية وبغداد، والمعروفة إلى يومنا هذا باسم "العطيفية" وعينه نقيباً وسادناً للروضة الكاظمية وأميراً للحج العراقي. وتنتمي إلى السيد عطيفة العديد من اسر السادة الحسنية في العراق: كآل الحسني وآل حمندي وآل العطار وآل الراضي وآل الهادي وآل السيد عيسى في بغداد، والسادة آل عطيفة وآل سركشيك وآل الحيدري في الكاظمية، وعدد آخر من الأسر من خدام الروضة الكاظمية، والسادة آل الحبوبي في النجف وآل زيني في النجف وكربلاء، وألبو نيسان في سامراء(١).

مدينة سلطانية

في سنة ٧٠٩هـ (١٤٠٩م) قرر السلطان محمد خدابندة بناء عاصمة جديدة سميت سلطانية، بين قزوين وهمدان جلب لها خيرة المهندسين والصناع المهرة من تبريز وبغداد وغيرهما. وأخذ أولئك الصناع يتبارون في تزيينها فجاءت أعمالهم الفنية تتويجاً للفن المعماري الإسلامي في العهد الأيلخاني الذي يتميز بالأبراج المثمنة. وبعد أن تم بناؤها نزلها خدابندة في سنة

(١) د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ملحق ج٦ ص٢٤.

٧١١هـ غير أن إقامته فيها لم تطل اكثر من خمس سنوات إذ توفي وعمره ٣٢ عاماً تقريباً وخلف بعده ولده الوحيد أبا سعيد وكان في العاشرة من عمره.

السلطان أبو سعيد بهادر

توفي السلطان محمد خدابندة في سنة ٧١٦هـ، فتولى بعده ولده القاصر أبو سعيد. ولكن السلطة الفعلية انتقلت إلى الأمير جوبان، الذي تولى مقاليد الحكم بالنيابة عن السلطان الصغير. ولما كان الأمير جوبان من أهل السنة، عاد نفوذ أهل السنة والجماعة في الدولة حتى إن السلطان أبا سعيد أعلن اعتناقه مذهب أهل السنة هو وحاشيته. أما على الصعيد السياسي، فإن تسلط الأمير جوبان فتح المجال أمام صراعات وزعامات جديدة، زعزعت الاستقرار في الإدارة، وخاصة في العراق الذي نال قسطاً من الاستقرار في عهد السلطان خدابندة. وفي خضم تلك الصراعات التي صاحبت تسلّط الأمير جوبان، جرى عزل الوزير رشيد الدين فضل الله، بوشاية من زميله في الوزارة علي شاه، الذي تحالف ودخل في خدمة جوبان، ولم تمض مدة طويلة على إقصاء الوزير رشيد الدين، حتى قدم إلى المحاكمة بحضور السلطان أبي سعيد وحكم عليه بالإعدام بتهمة قتل السلطان خدابندة بإعطائه جرعة من الدواء تسببت في وفاته. وقبل إعدامه قتل أمامه ولده الشاب إبراهيم بحجة أنه ناول السلطان تلك الجرعة القاتلة.

أشار شبولر إلى التغيرات التي حدثت بعد وفاة خدابندة فقال:

لقد سبب موت (الجايتو) الارتباك في الدولة المغولية لأن ابنه أبا سعيد وهو أول حاكم مغول في بلاد إيران حمل اسماً إسلامياً فقط كان قاصراً، وهذا الحال جعل المجال مفتوحاً أمام ظهور زعماء جدد كانت أول خطوة لهم أن عزلوا الوزير ذا الضمير الحي وهو رشيد الدين ثم أعدموه في عام ١٣١٨م (٧١٨هـ)[١] **.**

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٧٨.

وهكذا ذهب رشيد الدين الوزير والإداري القدير، ضحية الفتن التي صاحبت تسلط الأمير جوبان على أمور الدولة. وبعد إعدامه أحرقت المكتبة التي أقامها في المسجد الذي شيده في العاصمة تبريز. وكانت تحوي أكثر من خمسين ألف كتاب وقد التهمت ألسنة النيران مع بقية الكتب مؤلفات رشيد الدين التي قيل إنها تزيد على سبعين مصنفاً ومنها كتاب (جامع التواريخ).

ولد رشيد الدين بمدينة همدان ربما في حدود سنة ٦٤٥هـ، وهو حفيد الطبيب موفق الدولة، الذي كان نزيل قلاع الإسماعيلية حين سقوطها بيد هولاكو. ويبدو أن جده موفق الدولة دخل في خدمة هولاكو لمهارته في الطب. ومنذ شبابه ظهرت براعة رشيد الدين في الطب، فدخل هو الآخر في خدمة سلاطين المغول منذ أيام السلطان آباقا خان. ولما انتعشت البوذية والأفكار الوثنية في عهد السلطان أرغون، توثقت علاقة رشيد الدين بغازان، ودخلت مرحلة حميمة بعد اعتلائه العرش. فقد كان غازان يغتنم فرصة التقائه برشيد الدين فيذاكره بأمور الدين الإسلامي وفي تفسير القرآن. وبعد مقتل الوزير صدر الدين الزنجاني عين السلطان غازان في سنة ٦٩٧هـ رشيد الدين وزيراً له، لما توسم فيه من سعة معرفة وقدرات إدارية عالية. وقد استمرت وزارته أكثر من عشرين عاماً بالرغم من الدسائس التي كانت تحاك ضده.

رغب السلطان غازان في أن يكون للمغول تاريخ مدون مبني على الوثائق المكتوبة، بدلاً من الأساطير والروايات، وأناط برشيد الدين إنجاز تلك المهمة. وفعلاً وضع غازان تحت تصرف رشيد الدين ما كان موجوداً من وثائق تاريخية كان أمراء المغول وزعماؤهم يدونون فيها وقائعهم، هذا إضافة إلى الوثائق المحفوظة في دواوين الدولة. وبينما كان رشيد الدين منهمكاً بإعداد ذلك الكتاب، توفي في سنة ٧٠٣هـ السلطان غازان واعتلى العرش بعده أخوه محمد خدابندة. ومن حسن الحظ لم يكن خدابندة أقل اهتماماً من أخيه غازان بالتاريخ والعلوم، ولذا استمر الدعم الذي كان يلقاه رشيد الدين بل زاد خدابندة على ذلك أن طلب منه أن يتوسع في الكتابة والبحث، فيشير إلى

الشعوب التي اتصل بها المغول، بل ويضيف دراسة لكل الشعوب[١]. وفي سنة ٧١٠هـ، أكمل رشيد الدين كتابه الذي سماه جامع التواريخ، وأظهره بأربعة مجلدات مكتوبة باللغتين الفارسية والعربية، ثم أودع ذلك الكتاب مع باقي مؤلفاته في مكتبته التي أشرنا إليها. وحرصاً منه على حفظ مؤلفاته لتبقى في متناول الناس، أوقف قسماً من أملاكه، على أن يصرف ريعها في كتابة نسخ أخرى من تلك المؤلفات في كل عام. على أن تحمل تلك النسخ إلى إحدى مدن الإسلام الكبرى وتحفظ وقفاً على سكان تلك المدينة.

ومما يذكر أن رشيد الدين صنف كتاباً باسم السلطان خدابندة، فأعطاه جائزة ألف ألف دينار وجعل له في كل عام مائة ألف دينار... ويروى أن رشيد الدين قال للسلطان خدابندة: اتفق الناس كلهم بأنك أعظم من الإسكندر وإن كتابي أجود من كتاب أرسطاطاليس فقال خدابندة:"أنا أعمل معك بأكثر من الذي عمل الإسكندر مع أرسطاطاليس"[٢]. ولكن الأقدار شاءت أن يقتل رشيد الدين وتحرق مؤلفاته بتهمة قتل خدابنده.

ولم تكد تمر فترة طويلة حتى اشتعلت في سنة ٧١٩هـ، نيران الحروب والاضطرابات بين مختلف الجماعات المغولية، ذهب ضحيتها أكثر من ثلاثين ألف قتيل، أشرف أثنائها كيان الدولة على الانهيار. ولكن في النهاية تمكن الأمير جوبان من السيطرة على الموقف. وفي سبيل تثبيت أقدامه في السلطة نصب أولاده أمراء في مختلف أقاليم الإمبراطورية، وأوكل إلى ولده المسمى دمشق خواجة، ملازمة السلطان أبي سعيد لإحكام السيطرة عليه.

وقد صادف أن شاهد ابن بطوطة في بغداد، السلطان أبا سعيد فقال عنه:

---

(١)حسن الأمين - الغزو المغولي، ص٢١

(٢) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ص٤٥٦

ورأيته ببغداد... وبين يديه دمشق خواجة ابن الأمير جوبان المتغلب على أبي سعيد... ولما ولّى السلطان أبو سعيد، وهو صغير، استولى على أمره أمير الأمراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك إلاّ الاسم[1].

وقد استمر تسلط الأمير جوبان على أبي سعيد حتى سنة ٧٢٨هـ. ففي تلك السنة تحرك السلطان الشاب وأنهى بحزم ذلك الوضع. ويقال إن سوء سلوك دمشق خواجة ابن جوبان كان السبب في ذلك، فابن بطوطة ينقل رواية تقول بأن السلطان أبا سعيد علم عن طريق إحدى زوجات أبيه بأن ابن جوبان يتعدى على حرم السلطان، وأنه بعث إليها يقول إنه قادم ليبيت الليلة عندها. فأمر أبو سعيد عسكره الخاص أن يحيط بالقلعة ويسد مخارجها، بعد أن يدخل إليها دمشق خواجة، وفي الصباح حينما حاول ابن الجوبان الخروج من القصر، أحاط به العسكر وقتلوه وحملوا رأسه إلى السلطان الذي أمر بنهب داره وقتل من قاوم من خدامه ومماليكه[2]. وعلى إثر تلك الحادثة نشبت الحرب بين السلطان أبي سعيد والأمير جوبان الذي كان آنذاك في خراسان، وما أن التقى الجمعان حتى انهار جيش جوبان الذي تخلى عساكره عنه وانحازوا إلى السلطان أبي سعيد. وهكذا انتهت تلك الأحداث بقتل الجوبان ومن بعده أولاده، غير أن وضع الدولة لم يعد إلى سابق عهده.

بعد أن قضى أبو سعيد على دمشق خواجة عهد بالوزارة إلى غياث الدين محمد وهو ابن رشيد الدين فضل الله. ثم أمر الشيخ حسن الجلايري وهو ابن عمته، على طلاق زوجته بنت جوبان وكان اسمها بغداد خاتون، ويقال إنها كانت فائقة الجمال واتخذها زوجة له. ويقال بأن ذلك الزواج فتح الباب لسلسلة أخرى من المؤامرات والصراعات بين أفراد الطبقة الحاكمة. وفي سنة ٧٢٩هـ عين السلطان أبا سعيد، الشيخ حسن الجلايري نائباً عنه في السلطنة وهو منصب أمير الأمراء الذي كان جوبان يشغله من قبل.

---

(١) عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة - رحلة ابن بطوطة ص٢٢٩

(٢) عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة - رحلة ابن بطوطة ص٢٢٩.

تفكك الدولة الأيلخانية

في سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م) مات السلطان أبو سعيد بدون عقب، بينما كانت جيوشه تسير في حملة عسكرية كبيرة ضد القبائل الذهبية وكان عمره ٣٠ سنة. وقيل إن زوجته بغداد خاتون دست له السم. وبعد وفاته عمت الفوضى والاضطرابات في البلاد، إذ انقسمت قوى المغول إلى جماعات متحاربة، ولكن الخطر الداهم من الشمال من جهة القبائل الذهبية اضطر تلك الجماعات للتهادن والإتفاق على تولية أربخان ابن أريق بوقا. لكن سلطنة أربخان لم تدم سوى ستة أشهر، فما إن انحسر خطر القبائل الذهبية حتى عادت الحرب بين تلك الجماعات واستمرت الصراعات الدموية حتى إن الدولة أشرفت على الانهيار. وقد قتل أثناء تلك الصراعات السلطان أربخان ووزيره غياث الدين محمد ابن رشيد الدين. وبعد مقتل أربخان تسلط خال أبي سعيد علي باشا، وأجلس على العرش أميراً مغولياً اسمه موسى خان. غير أن تسلط علي باشا جوبه بالرفض من قبل عدد من الأمراء، فاتفقوا مع الشيخ حسن الجلايري على الثورة. فحشدوا جيوشهم وهاجموا السلطان الجديد، وبعد معركة شديدة تم لهم الانتصار إذ قتل علي باشا وفر السلطان من ساحة المعركة لكنه قتل فيما بعد.

بعد ذلك النصر تسلط الشيخ حسن الجلايري على الحكومة، ونصب على العرش أميراً صغيراً من سلالة هولاكو اسمه مظفر الدين محمد. غير أن جماعات كبيرة من المغول أعلنت معارضتها وأخذت تلتف حول حفيد جوبان وكان اسمه حسن، وللتمييز بينه وبين الشيخ حسن الجلايري، أصبح يعرف بالشيخ حسن الصغير. وقد جهز الشيخ حسن الصغير جيشاً قوامه رجال الجماعات المغولية المعارضة وهاجم الشيخ حسن الجلايري فقامت الحرب بينهما في منطقة نخجوان، وفي هذه المرة كان النصر حليف كتلة الشيخ حسن الصغير، مما اضطر الشيخ حسن الجلايري للهروب إلى العاصمة السلطانية وكان ذلك في سنة ٧٣٨هـ. وبعد أن حقق الشيخ حسن الصغير ذلك النصر

وتسلط على الحكم في تبريز، أجلس على العرش أخت السلطان أبي سعيد وكان اسمها صاتي بك، فخطب لها في سنة ٩٣٩هـ، وفي تلك الأثناء اضطر الشيخ حسن الجلايري للخضوع. غير أن سلطنة صاتي بك لم تدم سوى سنة واحدة إذ تم عزلها عن العرش. وأمام تلك الظروف انسحب الشيخ حسن الجلايري من إيران وسار إلى العراق. وفي بغداد أعلن تنصيب أمير مغولي من أحفاد آباقا خان، ثم عزل بعد مدة قصيرة ذلك الأمير وأعلن نفسه سلطاناً في العراق.

أما في العراق فقد كان الشريف أحمد ابن رميثة ابن أبي نمى قد أعلن حكومة مستقلة باسمه بالحلة، حيث كان يقيم منذ أن فوض إليه السلطان أبو سعيد أمر العرب في العراق. وبعد وفاة أبي سعيد طرد الشريف أحمد حاكم الحلة الأمير علي ابن الأمير طالب الدلقندي، وتغلب على الحلة وأقام حكومة عراقية امتد نفوذها حتى شمل وسط العراق ومناطق واسعة من جنوبه، وأخذ يجبي الأموال باسم حكومته.

أما في إيران فقد كان من مظاهر ضعف وتفكك الدولة الأيلخانية، ظهور عدد من الدول المستقلة في الشمال والجنوب. وكان من أهم الدول التي قوي جانبها في تلك الفترة، الدولة التي أسسها الأمير مبارز الدين محمد بن المظفر، والتي عرفت بالدولة "المظفرية". ويقال بأن جد تلك العائلة كان من أصل عربي، جاء إلى خراسان إبان الفتح الإسلامي وتوطن هناك. وكان السلطان أبو سعيد قد سلم مبارز الدين حكومة يزد في سنة ٧١٨هـ، وفوض إليه أمر المحافظة على الطرقات. وبعد وفاة أبي سعيد استولى على شيراز، فأصبحت عاصمة دولته الجديدة وقاعدة توسعها باتجاه شمال غرب بلاد فارس. وفي سنة ٧٥٥هـ أعلن مبارز الدين مبايعة الخليفة العباسي المعتضد بالله، الذي كان يقيم تحت ظل حكومة المماليك بالقاهرة. وجعل نفسه نائباً عنه وتلقب بمناصر أمير المؤمنين وقرأ الخطبة باسمه وبايعه علماء فارس ويزد. فكان ذلك بمثابة الانفصال التام عن الدولة المغولية وبعد ذلك استولى على إمارة لرستان.

وفي أيام هذه الدولة ظهر الشاعر الفارسي الكبير حافظ الشيرازي المتوفى سنة ٧٩٢هـ، والذي خلدت أشعاره تلك الدولة. أما في شمال إيران فقد ظهرت في خراسان دولة كونتها جماعات شيعية متطرفة كان مركزهم في مدينة (سبزوار)، وقد عرفت تلك الدولة باسم (سربدار) [١] ومعناها التقريبي الذي يقدم رأسه للموت، والتي بلغت أوج قوتها في عهد حاكمها وجيه الدين مسعود (٧٣٨هـ-٧٤٥هـ) الذي بسط نفوذه على نيسابور وجورجان وحتى دامغان. ويقال بأن الأقاليم التي سيطرت عليها تلك الجماعات انغمرت في صراعات دموية مريرة يقول عنها شبولر:

فكان كل قائد عسكري متنفذ يبطش بالذي قبله ويحكم حكماً قصيراً ينتهي بظهور مغامر آخر... بينما كان الأتابكة المغامرون، والدراويش الشيعة المتعصبون يزيدون الطين بلّة. فتفاقمت حالة الفوضى والتشويش[٢].

ومن الجدير بالملاحظة أن ظاهرة تعاظم دور الدراويش، ذوي النزعات الصوفية الشيعية التي يشوبها الغلو والتطرف، عكست في حقيقة الأمر أوضاع تلك الحقب المضطربة في الأقاليم التي قامت فيها مجتمعات تركومغولية حديثة التكوين نسبياً. فقد ساهمت حروب ونزاعات تلك الحقبة التاريخية في تفاقم أوضاع سكان تلك المجتمعات شبه الرعوية، وباعدت بين الحكام والأمراء المتنازعين حول السلطة وسكان تلك المجتمعات. أولئك السكان الذين لم يحصلوا من تلك الصراعات الدموية سوى المزيد من الفقر والتشريد والظلم والهوان. ومع زيادة مشاكل تلك الأقاليم كانت الهوة تتسع بينهم وبين حكامهم، فأخذ الناس يلتجئون إلى أولئك الدراويش في تكاياهم وزواياهم الصوفية التي ازدادت أعدادها، وأخذت تنتشر في كل مكان وتنمو في محافلها أفكار صوفية متطرفة ترفض تلك الأوضاع وتدعو للخلاص منها. وهكذا تحولت تلك الحركات الصوفية الرافضة، إلى حركات ثورية ضد حكام

---

(١) جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي ص٦٦ و ص٧٠

(٢) برتولد شبولر - العالم الاسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٨٢.

تلك الأيام ومؤسساتهم العسكرية والسياسية. وقد كان لأولئك الدراويش دور روحي ومعنوي في تلك الحركات. وفي العديد من الحالات قاد أولئك الدراويش الصوفية جموع السكان الثائرين بهدف الإطاحة بحكامهم. وقد قدر لتلك الطرق الصوفية أن تلعب دوراً مهماً في تاريخ المنطقة، وبالتالي في التاريخ الإسلامي.

وكان من أهمها طريقة صوفية تنسب إلى درويش شيعي اسمه صفي الدين، الذي أسس في مدينة أردبيل من أذربيجان تكية لأتباعه من الدراويش الصوفية، فعرفت طريقته باسم "الطريقة الصفوية" بذلك أصبحت تلك الطريقة الصوفية، المنطلق والأساس للدولة الصفوية. أما الطريقة الصوفية الأخرى فقد ظهرت في بلاد الأناضول في آسيا الصغرى، وتنسب إلى درويش شيعي آخر اسمه الحاج محمد بكتاش ولي. كان قد نزح في تلك الفترة المضطربة من أقاليم الترك في خراسان، واستوطن بين تلك المجتمعات التركية الفقيرة التي انتشرت في الأناضول. فعرفت طريقته باسم "الطريقة البكتاشية" التي ارتبط اسمها بالدولة العثمانية منذ عهد السلطان العثماني الثاني أورخان، وبالجيش الانكشاري الذي كونه ذلك السلطان. وسنعرض لتلك الحركات والطرق الصوفية، في فصول قادمة بقدر ما يتعلق الأمر بتاريخ العراق الذي ارتبط بتاريخ الدولتين الصفوية والعثمانية.

الفصل الثاني

الحكومة الجلايرية

ينتمي الشيخ حسن الكبير مؤسس الحكومة الجلايرية إلى قبيلة جلاير، وهي من قبائل المغول الكبرى التي انضوت تحت لواء جنكيزخان وساهمت في حروبه وغزواته، وساهمت كذلك في حملة هولاكو على إيران والعراق، وكان لها دور مهم ومكانة سامية في الدولة الأيلخانية. ويبدو أن عشائر الجلايرية كانت من ضمن العشائر المغولية التي مالت نحو التشيع في مرحلة اختلاطها وتفاعلها مع مجتمعات القبائل التركية التي انتشرت واستقرت في شمال إيران. وعليه يبدو أن تشيعها جاء ضمن إطار تلك الظاهرة الاجتماعية التي برزت معالمها في عهد السلطانين محمود غازان ومحمد خدابنده، الذي أشرنا إلى تشيعه في حينه. وفي تلك المرحلة تعزز مركز الجلايرية بالمصاهرة مع العائلة الملكية الأيلخانية، فالشيخ حسن الجلايري كان ابن عمة السلطان أبي سعيد، ولذا كان له دور بارز في الصراعات التي أعقبت وفاة أبي سعيد. وفي أثناء تلك الصراعات في إيران لم يخرج أمراء المغول ومن بينهم الشيخ حسن الجلايري عن القاعدة التي تمسكوا بها في حصر السلطنة في ذرية هولاكو، فكانوا ينصبون على العرش الأيلخاني أحد الأمراء من ذرية هولاكو ثم يحكمون باسمه. ولكن بعد أن تفاقمت أوضاع الدولة وتسلطت كتلة الشيخ حسن الصغير على الحكم في تبريز، انسحب الشيخ حسن الجلايري هو وعشيرته إلى العراق، وفي بغداد أعلن السلطنة باسمه. وهكذا أقام الشيخ حسن الجلايري في العراق، دولة مغولية جديدة غير الدولة

الأيلخانية، ولذا عرفت بالدولة الجلايرية نسبة إلى قبيلة الشيخ حسن، أو أحياناً الدولة الأيلكانية نسبة إلى جده الأعلى أيلكانويان الجلايري.
ومما ساعد الشيخ حسن الجلايري على تثبيت دعائم حكومته في العراق، الفراغ السياسي والعسكري الذي حدث، ليس بسبب ضعف حكومات المغول في إيران فحسب، بل ضعف وتخلخل حكم المماليك في مصر وبلاد الشام. فبعد استقلال الشيخ حسن الجلايري، توفي في سنة ١٣٤٠م السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي جلس على العرش المملوكي أكثر من ٤٤ سنة خلع أثنائها ثلاث مرات. ثم تولى بعده ابنه الذي لقب بالملك المنصور، ولكنه عزل بعد شهرين. وفي يوم عزله سطا عسكر المماليك على القصر فأهانوا حريم السلطان ونهبوا متاعهن، ثم بويع أخوه ولقب بالملك الأشرف وكان عمره آنذاك ست سنوات. وبعد أقل من ستة أشهر، خلع الأشرف وسجن في قلعة القاهرة حيث توفي. ثم بويع أخوه ولقب بالملك الناصر الثاني، ثم خلع وبويع أخوه ولقب بالملك الصالح. وهكذا انغمر حكم المماليك في مصر في موجة عاتية من الصراعات حول السلطة، كان أثنائها عسكر المماليك يخلعون سلاطينهم ويغيرون مواقعهم وكأنهم رقع الشطرنج. وقد استمرت تلك الصراعات الداخلية التي أنهكت البلاد وأشغلت الحكام حتى العقد الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري)، حين سقط حكم المماليك الترك في سنة ١٣٨٩م وتسلط على الحكم في مصر المماليك الشراكسة. وفي وسط ذلك الفراغ الإقليمي، استطاع الشيخ حسن الجلايري أن يتفرغ لتدعيم حكمه وبسط نفوذه على العراق. ونتيجة لذلك تمكن من إقامة دولة قوية أصبح لها شأن كبير في المنطقة. وقد شاهدت تلك الحقبة التاريخية تحولات مهمة في بلاد الأناضول، حيث دخلت الدولة العثمانية الفتية مرحلة جديدة من تاريخها وذلك في عهد السلطان أورخان (٧٢٦هـ - ٧٦١هـ) الذي اعتنق الطريقة الصوفية البكتاشية وأسس حسب تعاليمها الجيش الانكشاري.

حكومة عرب العراق في الحلة

ولكن الشيخ حسن بالرغم من غياب الأخطار الخارجية، واجه خطراً من الداخل. تمثل في حكومة عراقية كان قد أقامها الشريف أحمد ابن رميثة ابن أبي نمى في الحلة، التي كانت تعد في تلك الأيام قلب الفرات الأوسط وحاضرة مجتمع عرب العراق الزراعي. فقد حضي الشريف أحمد بن رميثة بمنزلة سامية عند السلطان أبي سعيد، الذي فوض إليه أمر عرب العراق، وبعث به مرة على رأس الحج العراقي. وكان الشريف أحمد يقيم بالحلة. وبعد وفاة السلطان أبي سعيد أعلن الشريف أحمد استقلاله بالحلة، وطرد منها حاكمها الأمير علي بن الأمير طالب الدلقندي، فقامت بذلك حكومة عراقية كانت الأولى من نوعها منذ سقوط الدولة العباسية.

وقد تمكن الشريف أحمد خلال بضع سنوات من بسط نفوذ حكومته على أهم المناطق الزراعية في العراق العربي، وكان يجبي الأموال باسم حكومته. لذا لم يجد الشيخ حسن الجلايري مناصاً سوى القضاء على تلك الحكومة العربية، فوجه من بغداد عدة حملات عسكرية سيرها نحو الحلة، لكن الفشل كان نصيب تلك الحملات، إذ كانت العشائر العراقية تتصدى لتلك الحملات وترد رجالها على أعقابهم.

في سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) قرر الشيخ حسن الجلايري حسم أمر حكومة عرب العراق بالقضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها. فجهز حملة عسكرية كبيرة قادها بنفسه وعبر الفرات من الأنبار، وزحف نحو الحلة وحاصرها. حينما احتدم القتال بين الطرفين، لم يتمكن رجال العشائر العراقية الصمود أمام هجمات عسكر المغول فتفرقوا، ولم يصمد مع الشريف أحمد سوى عدد قليل من رجال القبائل، كان بينهم بعض فرسان بني حسن الذين قاتلوا مع الشريف أحمد حتى الموت. وقد أشار العزاوي إلى ما جاء في كتاب عمدة الطالب بهذا الخصوص فقال:

"وقتل معه أحمد بن فليتة الفارس الشجاع وأبوه فليتة ولم يثبت معه من بني حسن غيرهما"[١].

وهكذا قضى الشيخ حسن الجلايري على حكومة عرب العراق وهي في دور التكوين، وكأن الأقدار ساقته إلى العراق ليجهض تلك التجربة التاريخية التي أقدم عليها عرب العراق في تلك الأيام. قال العزاوي:

كان الأمل أن يستفيد العرب من هذا الانحلال ومن تلك المحاولات بسبب تفرق الكلمة وأن ينالوا المكانة اللائقة في العراق... إلا أن أمراء المغول كانوا متمرنين في الإدارة والحرب، فلم يستطع العرب أن يتمكنوا منهم، فقضي على إدارتهم في الحلة بعد أن كانت قد تمكنت مدة. فقويت قدم المغول مرة ثانية وتكونت منهم حكومة الجلايرية[٢].

وقد زار ابن بطوطة مدينة الحلة، في أيام السلطان الشيخ حسن الجلايري، وأشار إلى حكومة الشريف أحمد فقال:

فنزلنا مدينة الحلة، وهي مدينة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقها ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات. وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلاً وخارجاً... وأهل المدينة كلها إمامية إثنا عشرية، وهم طائفتان إحداهما تعرف بالأكراد والأخرى بأهل الجامعين... وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الأمير أحمد بن رميثة ابن أبي نمى أمير مكة وحكمها أعواماً، وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق إلى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الأموال والذخائر التي كانت عنده...[٣].

بعد أن قضى الشيخ حسن الجلايري على حكومة عرب العراق، جهز في سنة ٨٤٢هـ، حملة عسكرية سار على رأسها إلى أذربيجان للقضاء على حكومة الشيخ حسن الصغير، وحينما التقى الطرفان في منطقة نخجوان دارت بينهما معركة شديدة انتهت بهزيمة الشيخ حسن الجلايري فعاد على أعقابه إلى العراق. وبعد سنتين من تلك الحرب قتل الشيخ حسن الصغير بيد إحدى زوجاته وبمقتله عمت الفوضى مرة أخرى في إيران. وفي تلك الأثناء انتهزت بعض الولايات الفرصة فانفصلت عن حكومة أذربيجان، ومن بينها أرمينيا

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢ص٣٦

(٢)ن.م. ج٢ص٧٨

(٣) رحلة ابن بطوطة ص٢٢٠ و ص٢٢١

الصغرى وجورجيا. أما الدويلات والإمارات في آسيا الصغرى التي قامت بعد انهيار الدولة السلجوقية فقد انفصلت واستقلت بصورة نهائية.

تمكن الشيخ حسن أثناء ذلك من أن يتفرغ لتثبيت دعائم حكومته في العراق، ومن ثم توسيع حدودها. ففي سنة ٧٤٨هـ قاد حملة عسكرية ضد إمارة اللّر وكان أميرها آنذاك مظفر الدين آفراسياب. وقد صادف دخول ابن بطوطة بغداد أيام تلك الحملة فقال:

...ثم سافرت إلى مدينة بغداد، وصلتها في شوال سنة ثمان وأربعون ولقيت بها بعض المغاربة... وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي إليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبي سعيد رحمه الله، ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق... وكان السلطان حسن غائباً عن بغداد في هذه المدة متوجهاً لقتال السلطان أتابك آفراسياب صاحب بلاد اللّر[١].

تشير كتابات المؤرخين إلى أن بغداد التي أصبحت في عهد الشيخ حسن عاصمة الملك، استرجعت بعضاً من رونقها ومكانتها. فمن المعروف أن الشيخ حسن الجلايري بذل جهوداً كبيرة في إعمار بغداد وتحسين أوضاعها وصرف في سبيل ذلك أموالاً طائلة واهتم في إنعاش الحياة الفكرية بالرغم من أن الثقافة الفارسية كانت هي السائدة في البلاط المغولي في تلك الأيام. ولذا انتعش، في بغداد في عهد السلاطين الجلايرية، الأدب والشعر الفارسي. أما الآداب العربية والشعر العربي فقد حافظت عليها المحافل الدينية في حواضر عرب العراق، في بغداد والحلة والنجف.

وفاة الشيخ حسن الجلايري

في سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) توفي الشيخ حسن الجلايري، بعد أن حكم في العراق أكثر من سبعة عشر سنة. فنقل جثمانه إلى النجف ودفن في المقبرة الخاصة بالعائلة الجلايرية التي أشار إليها العزاوي:

---

(١) عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة - رحلة ابن بطوطة ص٦٥٠

... ومقبرتهم موجودة داخل الصحن عثر عليها في الأيام الأخيرة (في الثلاثينيات من القرن العشرين) فأعيدت إلى ما كانت عليه[1].

وقد أشار صاحب ماضي النجف وحاضرها إلى مقبرة العائلة الجلايرية في معرض ذكره ملوك الشيعة الذين دفنوا بالنجف فقال عن الأيلكانيين أو الجلايريين:

... من الدول الشيعية التي حكمت في العراق من سنة ٧٣٦هـ-٨١٣هـ وقد شيدوا في زمن حكمهم في العراق معابد وتكايا ومساجد وآثارهم في العتبات جليلة، وممن نقل منهم إلى النجف الشيخ حسن الكبير المتوفى في بغداد سنة ٧٥٧هـ... والأمير قاسم أخو السلطان أويس المتوفى سنة ٧٧٩هـ ودفن في جوار والده الشيخ حسن... موقع هذه القبور بين مخلع الأحذية (الكيشوانية) من جهة شمال البهو (الطارمة) وبين أواوين الصحن الشريف المتصلة بباب الطوسي[2].

السلطان أويس

بعد وفاة الشيخ حسن اعتلى العرش ابنه السلطان أويس. وفي أيام اعتلائه كانت أذربيجان قد تحولت إلى إقليم تابع لإمبراطورية القبائل الذهبية، التي استولت على تبريز بعد مقتل الشيخ حسن الصغير، وأزالت بذلك من الوجود الدولة الأيلخانية. وكان يحكم في تبريز بردي بك بالنيابة عن والده جاني خان. ولكن جاني خان توفي في سنة ٧٥٩هـ، فعاد ابنه بردي بك إلى العاصمة (ساراي) ليأخذ مكان والده. وبذهابه انهارت حكومة القبائل الذهبية في أذربيجان. فانتهز السلطان أويس الفرصة وزحف من العراق بجيش كبير نحو أذربيجان، وبعد معارك شديدة تمكن من الاستيلاء على تبريز غير أنه اضطر إلى أن يتخلى عنها ويعود إلى بغداد. وفي ربيع سنة ٧٦٠هـ سار الأمير مبارز الدين المظفر من شيراز واستولى على تبريز. لكن السلطان أويس الجلايري لم يمهله طويلاً إذ جهز حملة عسكرية أضخم من سابقتها وزحف بها نحو أذربيجان مما اضطر مبارز الدين التخلي عن تبريز والعودة

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢ص١١٨

(٢) الشيخ جعفر محبوبة - ماضي النجف وحاضرها ج١ص٢٤٢ و ص٢٤٣

إلى بلاد فارس فدخلها السلطان أويس. وفي هذه المرة ثبت أويس أقدامه في أذربيجان، ومن ثم أخذ في بسط نفوذه على المناطق المجاورة فتمكن من الاستيلاء على أقاليم شمال إيران حتى سواحل بحر قزوين (بحر الخزر) وهكذا تمكن من إقامة إمبراطورية مغولية جلايرية حلت محل الإمبراطورية الأيلخانية. ومنذ ذلك الحين صار إقليم أذربيجان مصيفاً للحكومة وإقليم العراق مشتاً لها. وفي سنة ٧٦٦هـ سار السلطان أويس إلى الموصل وانتزعها من يد مراد خواجة أخي بيرام خواجة التركماني مؤسس دولة القره قوينلو.

وفاة السلطان أويس

في سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) توفي السلطان أويس الجلايري في تبريز وكان في الثلاثين من عمره بعد حكم دام قرابة عقدين من الزمن حقق العراق أثنائها شيئاً من التقدم. قال العزاوي: "في أيامه حدثت عمارات مهمة منها ما يزال باقياً وأصاب الناس رغد في العيش ورفاه وراحة"[١]. أما المؤرخ شبولر فقد أشار إلى عهد السلطان أويس الجلايري بقوله:

وقد شهدت منطقة ما بين النهرين فترة من السعادة والسلم والرخاء نسبياً في عهد (أويس) بما لاقته منه من العدل والتخطيط الاقتصادي الحكيم، وقد أكبر الناس موته الذي حدث وهو في الثلاثين من العمر عندما كان يقاتل أسرة من خلفاء الأيلخانات في (إسترباد)[٢].

ومن ولاة السلطان أويس الجلايري الذين ساهموا في عمارة بغداد واشتهروا في أعمال الخير الخواجة مرجان، الذي شيد عمارات عديدة في بغداد وجدد غيرها. ومن أهم آثاره الباقية مدرسته المعروفة اليوم بـ "جامع مرجان" والتي تعد عمارته نموذجاً لفن العمارة الإسلامية في العهد المغولي الجلايري... ففيها ما يشعر بإتقان البناء وصناعة النقش وحسن الخط ما يبهر المشاهد ويعين درجة مراعاة الإحكام في العمل والقدرة سواء من ناحية مادة

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢ص١٤٠

(٢) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص٨٣.

البناء أو من جهة الدقة في الصنع والزينة. وقد أوقف الخواجة مرجان تلك المدرسة: على الفقهاء وطلاب العلم والتفسير والحديث والفقه على مذهبي الإمام الأعظم محمد ابن إدريس الشافعي المطلبي والإمام الأقدم أبي حنيفة نعمان بن ثابت الكوفي رضي الله تعالى عنهما[1]. ومن آثار الخواجة مرجان في بغداد دار الشفاء المطلة على دجلة والمعرفة بـ(قهوة الشط) ومن أوقافه (خان الأورتمة).

كانت تلك الأعمال العمرانية في بغداد والنجف وغيرهما ثمرة ثلاثة عقود من العمل السلمي الذي استهدف تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. وكان المؤرخ البريطاني لونكريك من بين الباحثين الذين أكدوا على النتائج الإيجابية التي حققها العهد الجلايري في العراق فقال:

وكان حكام هذه السلالة الأولون عسكريين طماحين لكنهم كانوا متدينين وغير جانفين عن الإنسانية فأعادوا للعراق شيئاً من الاحترام الذاتي، إن لم يكونوا أعادوا قليلاً من الرخاء ووطدت حكومة حسن الكبير وولده أويس لأكثر من جيل واحد السلام والطمأنينة كما شجعت شيئاً من ممارسة الفنون[2].

ومن رجال الدولة الجلايرية الذين ساهموا في تلك الإنجازات، الوزير شمس الدين زكريا ابن أخت الوزير غياث الدين ابن رشيد الدين فضل الله الذي كان على رأس إدارة البلاد طيلة تلك الفترة إذ نال الوزارة أيام الشيخ حسن الكبير سنة ٧٣٧هـ واستمر بمنصبه إلى ما بعد وفاة السلطان أويس.

السلطان حسين الجلايري

بعد وفاة السلطان أويس قتل أمراء الدولة أكبر أولاده حسن، وأجلسوا على العرش ابنه الثاني حسين، وتشير بعض المصادر إلى إن اختيار حسين من قبل الأمراء كان بسبب ضعفه وانغماسه في ملذاته. فلم تكد تمر فترة طويلة حتى بان ضعف السلطان الشاب وأخذ ينعكس على مقدرات الدولة. ففي حدود

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢ص٨٨

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك - اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٢٨

العام ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) تمكن أحد أمراء القبائل التركمانية يدعى الخواجة بيرام، من الاستيلاء على الموصل ومن ثم بسط سلطته على سنجار وبعض المناطق من أذربيجان. وقد أثبتت الأيام بأن استيلاء التركمان على الموصل مثل فاصلة تاريخية مهمة في تطور قوة القبائل التركومغولية، إذ كان بمثابة المرحلة الأولى لتأسيس دولة تركمانية عرفت في التاريخ فيما بعد باسم دولة "قره قوينلو". وفي نفس العام زحف من بلاد فارس إلى أذربيجان شاه شجاع ابن مبارز الدين المظفر واشتبك بجيش السلطان حسين الجلايري، وبعد معركة شديدة هزمه واستولى على تبريز. ومنذ ذلك الحين ازدادت الأمور سوءاً وانتشرت الاضطرابات والفتن والحروب التي أشعلها اخوة السلطان حسين مما ساهم في إضعاف تلك الدولة المغولية وساعد على تمزيقها.

مقتل السلطان حسين

وفي سنة ٧٨٤هـ سار أخو السلطان واسمه أحمد بجيش كبير واستولى على تبريز. وبعد ذلك قتل أخيه السلطان حسين ومعه وزيره شمس الدين. قال ابن خلدون:

إن السلطان حسين لما رجع من بغداد إلى تبريز عكف على لذاته وشغل بلهوه واستوحش منه أخوه أحمد فلحق بأردبيل وبها الشيخ صدر الدين (الصفوي) واجتمع إليه من العساكر ثلاثة آلاف أو يزيدون فسار إلى تبريز وهاجمها على حين غفلة واستولى عليها وبعد أيام قبض على السلطان حسين وقتله[١].

نستفيد من إشارة ابن خلدون هذه أن أردبيل، قاعدة الطريقة الصوفية الصفوية، كانت في تلك الأيام قد تحولت إلى مركز سلطة ثورية تتحكم في أحداث أذربيجان. وكان للشيخ صدر الدين ابن الشيخ صفي الدين رأس تلك الطريقة الصفوية، دور مؤثر فيما يحدث من تحولات في تلك المناطق. وفي

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢ص١٦٧

غالب الظن فإن الرجال الذين انضموا إلى جيش أحمد أخو السلطان، كانوا من أتباع الشيخ صدر الدين الصفوي.

وبالرغم من استيلاء أحمد على تبريز فإن مشاكل الدولة لم تنته، إذ اشتعلت نار الحرب في سنة ٧٨٥هـ بين أحمد وأخيه الأمير علي. فبعد أن أعلن أحمد سلطنته في تبريز اجتمع عدد من أمراء الدولة في بغداد وأقاموا الأمير علياً سلطاناً فيها وساروا به إلى تبريز. حينما قامت الحرب بين الطرفين انتصر عسكر السلطان علي مما اضطر السلطان أحمد إلى الهروب والالتجاء إلى قره محمد بن تورميش التركماني صاحب الموصل. وبعد اتفاق الطرفين جهز قره محمد التركماني جيشاً هاجم به تبريز وخاض حرباً شديدة انتهت بمقتل السلطان علي واستيلاء التركمان على تبريز، وبذلك عاد السلطان أحمد إلى تبريز بفضل قوة القبائل التركمانية التي حصلت على غنائم كبيرة وأصبحت القوة الراجحة عسكرياً في المنطقة.

الفصل الثالث

تيمورلنك

ولد تيمور في حدود سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م) في بلدة لا تبعد كثيراً عن سمرقند، من أسرة مغولية تتصل بالنسب من جهة أمه بجنكيزخان، وبلغة المغول تعني كلمة "تيمور" الحديد. وفي شبابه أصيب تيمور بسهم في رجله فسبب له عرجاً شديداً في مشيته ولذا لقب "لنك" أي الأعرج.

كان تيمورلنك قائداً يتمتع بعبقرية عسكرية نادرة وبمواهب في قيادة الجيوش لا مثيل لها. وفي شبابه سنة ٧٦٢هـ (١٣٦٠م) تولى تيمور شؤون إمارة صغيرة بعد وفاة عمه، ومنذ تلك السن المبكرة ظهرت عبقريته في القيادة، سرعان ما أخذ يمد نفوذه ويبسط سيطرته على القبائل والأقاليم المجاورة لإمارته. ومع تعاقب انتصاراته، كان المزيد من القبائل ينضوي تحت لوائه، مما ساعده على فتح الكثير من البلدان والأقاليم. وبمرور الزمن تمكن من بناء جيش كبير، كان فرسانه يعدون بمئات الألوف. وفي سنة ٧٨٤هـ ظهر تيمورلنك في الشرق بمظهر الفاتح العظيم، بعد أن بسط سيطرته على تركستان وبلاد ما وراء النهر. وفي سنة ٧٨٦هـ سار عدد من أمراء المغول في الدولة الجلايرية واستعانوا به على التركمان الذين سيطروا على حكومة السلطان أحمد في تبريز، فبعث تيمورلنك معهم جيشاً كبيراً ساروا به نحو أذربيجان، وحينما علم السلطان احمد باقتراب جيش تيمورلنك هرب إلى بغداد، وبذلك استولت جيوش تيمورلنك على أذربيجان ودخلت عاصمتها تبريز. ثم زحفت فرق منها واستولت على أصفهان في بلاد فارس، واقتربت

طلائع تلك الجيوش من حدود العراق. ومنذ ذلك الحين دخلت جيوش تيمورلنك في صراعات دموية مع القبائل التركمانية واستمرت الحروب سجالاً بين الطرفين. ولكن في سنة ٧٨٧هـ علم تيمورلنك بقيام ثورة ضده في آسيا الوسطى، مما اضطره إلى إيقاف حروبه في إيران والعودة إلى الشرق.

غير أنه عاد في السنة التالية فاجتاحت جيوشه مرة أخرى مدينة تبريز، ثم زحفت في سنة ٧٨٩هـ نحو بلاد فارس فأذعن له ملوك الدويلات الفارسية، وذهبوا إليه لتقديم آيات الطاعة. ويقال إنه اجتمع عنده سبعة عشر ملكاً قتلهم تيمور عن آخرهم. وبعد أن سيطرت جيوشه على بلاد فارس توجهت أنظاره نحو بغداد. وفي تلك الأثناء جهز السلطان أحمد جيشاً كثيفاً كان غالبية رجاله من قبائل التركمان، سار بهم واشتبك بعسكر تيمورلنك عند مدينة السلطانية، غير أنه مني بهزيمة ساحقة. وأمام تفاقم أوضاع المنطقة وتعاظم خطر تيمورلنك هرب السلطان أحمد إلى مصر والتجأ عند الملك الظاهر برقوق.

وفي سنة ٧٩٤هـ (١٣٩٢م) عاد تيمورلنك فهاجم إيران وزحف بجيوشه جنوباً نحو بلاد فارس فاستولى على أصفهان وكرمان وشيراز وفي تلك الحرب قضى تيمورلنك على من تبقى من ملوك الدولة الفارسية المظفرية التي انقرضت في سنة ٧٩٥هـ.

تيمورلنك يستولي على بغداد

بعد حروب تواصلت قرابة عقد من الزمن، تمكن تيمورلنك من إقامة إمبراطورية غيرت الخارطة السياسية في آسيا الوسطى وشبه القارة الإيرانية. ومن ثم وجه أنظاره نحو وادي الرافدين. وحينما شعر السلطان أحمد باقتراب جيوش تيمورلنك هرب من بغداد نحو الحلة ومنها إلى بلاد الشام عن طريق النجف. وفي عشرين شوال من سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٣م) استولت جيوش تيمورلنك على بغداد، ثم اقتحمت خيوله مياه دجلة وزحفت كتائب فرسانه نحو

الحلة، وبعد ذلك بسط تيمورلنك سيطرته على باقي أنحاء العراق حتى البصرة، ثم بعث فرقة عسكرية استولت على قلعة تكريت ودمرتها، وكان أميرها حسن ابن زليمور. قال ابن خلدون:

وقد كان بعد ما استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت مأوى المخالفين وعش الحرابة ورصد السابلة، وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم ثم خربها وأقفرها وانتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها...[1].

وبعد تكريت استولى تيمورلنك على الموصل وخربها ثم أذعنت له أربيل ولكن جيوش تيمورلنك لم تبق طويلاً في بلاد الرافدين.

في سنة ٨٠٢هـ علم السلطان أحمد وكان آنذاك في بغداد بعزم تيمورلنك على مهاجمة إمارة سيواس[2] فارتعب من تلك الأخبار لأن استيلاء تيمورلنك على إمارة سيواس كان يعني بالنسبة له سد الطريق الوحيد أمامه للهروب والإفلات من قبضته، إذ لم تعد مصر في تلك الفترة مكاناً آمناً للالتجاء بعد أن تعرضت منذ وفاة السلطان المملوكي برقوق في سنة ٧٩١هـ (١٣٨٩م) إلى سلسلة من الاضطرابات والانقلابات العسكرية زادت من ضعفها وتشتيت قواها. وأمام حالة الاضطراب والخوف التي سادت المنطقة سار السلطان أحمد الجلايري على عجل ودخل بلاد الروم والتجأ إلى السلطان العثماني الرابع بايزيد الأول. والتجأ إليه كذلك الأمير قره يوسف التركماني زعيم قبائل القره قوينلو.

عودة تيمورلنك إلى بغداد

في ٢٦ ذي القعدة من سنة ٨٠٤هـ (١٤٠١م) داهمت جيوش تيمورلنك بغداد مرة ثانية واستولت عليها. وفي هذه المرة كان الهول والدمار الذي أنزلته جيوش تيمورلنك على بغداد أشد وأدهى. إذ تعرضت الآثار العباسية إلى

(١)ن.م. ج٢ص٢١٠

(٢) مدينة تقع شمال شرق آسيا الوسطى وكانت تعد من مدن أرمينيا

التدمير فزال من الوجود ما كان باقياً منها، وامتدت يد التخريب إلى الجوامع والمساجد ودور العلم والمكتبات واستمر الفتك بالسكان لمدة أسبوع.

وفي سنة ٨٠٥هـ قرر تيمورلنك أن يتوغل في بلاد الروم، إذ لم تبق قوة عسكرية على وجه الأرض يمكنها الوقوف بوجهه سوى جيوش الإمبراطورية العثمانية التي كانت تمتد إلى الغرب من إمبراطوريته، ولذا قرر اكتساحها.

كان السلطان بايزيد الأول في تلك الأيام يحكم الحصار على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية حينما وافته الأخبار بأن تيمورلنك استولى على مدينة سيواس في أرمينيا وأسر ابنه أرطغرل وقطع رأسه، مما اضطر السلطان بايزيد إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والعبور بجيوشه إلى الجانب الآسيوي والزحف على عجل لمجابهة ذلك العدو الجبار القادم من الشرق.

وفي تلك الأثناء انتهز أحمد الجلايري فرصة خلو العراق من أي قوة عسكرية معادية فسار نحو العراق واستولى على بغداد. وأقام ابنه طاهر أميراً على منطقة الفرات الأوسط في الحلة. وأما قره يوسف التركماني فقد كان في تلك الأيام يتجول بعشائره في جهات هيت من الفرات والمناطق الشمالية من العراق. بينما كان السلطان أحمد الجلايري يعمل على تثبيت أقدامه في العراق، شاءت الأقدار أن يحدث احتكاك بين عسكره، وعسكر ابنه طاهر في الفرات الأوسط، وأن يفسر ذلك الحدث بطريقة أدت إلى احتكاك عسكري بين الطرفين، أدى إلى إشعال نيران حرب شعواء بينهما. فانتهز قره يوسف الفرصة وسار بجموع كبيرة من التركمان والعرب نحو الحلة وانضم إلى جانب السلطان أحمد في ساعة كان فيها السلطان بأشد الحاجة إلى مثل تلك المساعدة، وبانضمام قره يوسف انتهت المعارك بانتصاره. أما ابن السلطان الذي مني عسكره بالهزيمة فقد حاول الهروب من ساحة المعركة، ولكن فرسه كبت به فسقط في إحدى الأنهار ومات غرقاً.

بالرغم من أن تلك المعركة حسمت لصالح السلطان أحمد، فإن المنتصر الحقيقي فيها كان الأمير قره يوسف التركماني. الذي خلا له الميدان العسكري تقريباً بعد أن تمكن من تشتيت قوى المغول العسكرية. وكان السلطان أحمد أول من شعر بهذه النتيجة وبضعف موقفه العسكري فأسرع بالعودة إلى بغداد، ولكن قره يوسف سار بأثره، وحينما أيقن السلطان أحمد بأن قره يوسف سيقضي عليه لا محالة هرب إلى نواحي الشام فدخل قره يوسف التركماني بغداد واستقر بها.

وفي تلك الأثناء سحق تيمورلنك الجيوش العثمانية وشتتها وأسر السلطان بايزيد. وبذلك انهارت الدولة العثمانية وزالت إمبراطوريتها عن الوجود. فأعاد تيمورلنك حكومات الأقاليم التي كانت خاضعة للعثمانيين إلى عهدها السابق. وبذلك عادت آسيا الصغرى مرتاً ثانية إلى أقاليم مقسمة تتنازعها عشرات الدويلات والإمارات الصغيرة التي خضعت وأصبحت جزءاً من إمبراطورية تيمورلنك العالمية.

وبعد أن وطد تيمورلنك سلطته ورتب أمر حكومات تلك الدويلات والإمارات، وضع أسيره السلطان بايزيد في قفص حديدي، وحمله معه في طريق العودة نحو الشرق. ويقال بأن سكان الأقاليم التي كان يمر بها موكب تيمورلنك، كانوا يخرجون وينتشرون على جانبي الطريق للتفرج على السلطان الأسير، وهو داخل القفص. ويبدو أن السلطان بايزيد الأول، ذلك القائد الجسور الذي كان يلقب "يلدرم" أي الصاعقة أو البرق، لم يتحمل طويلاً تلك المذلة والمهانة، فانهارت قواه النفسية والعقلية ومات كمداً في قفصه الحديدي فسلم تيمورلنك جثته إلى ولده موسى الذي كان أسيراً معه وسمح له بنقلها تحت الحراسة حيث دفنت في مدينة بورصا عاصمة العثمانيين القديمة.

وتشير الأخبار بأن تيمورلنك بعد أن أكمل فتوحاته تلك قرر إصلاح ما خربته جيوشه في بغداد، ففوض أمر حكومة العراق إلى أمير يدعى الميرزا أبو بكر وأمره أن يباشر في عملية إعادة بناء بغداد. وحينما وصل العراق التقى

الميرزا أبو بكر بقوات عسكرية كان تيمورلنك قد حركها من إيران نحو العراق، وقبل وصول تلك القوات بغداد، خرج لها قره يوسف على رأس عسكر التركمان واشتبك الطرفان في حرب طاحنة في منطقة الفرات الأوسط قرب الحلة. تكبد التركمان أثنائها خسائر فادحة، إذ قتل منهم عدد من كبار قادتهم كان بينهم يار علي أخو قره يوسف. وهكذا أنزل الجيش التيموري هزيمة ساحقة بجيش قره يوسف الذي هرب إلى بلاد الشام.

وفاة تيمورلنك

في أوائل سنة ٨٠٧هـ (١٤٠٤م) عاد تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند، وباشر بإعداد خطط جديدة للاستيلاء على بلاد الخطا وعلى الصين. وبعد أن أكمل استعداداته العسكرية سار على رأس جيوشه متجهاً نحو الشرق، وفي أثناء مسيرته أصابته وعكة مرض لم تمهله أكثر من أيام قليلة، مات بعدها ذلك الفاتح الجبار وهو في السبعين من عمره. وبعد وفاته تجزأت إمبراطوريته العظيمة بين أولاده. وقد قيل عنه:

كان شيخاً طوالاً، مهولاً، طويل اللحية حسن الوجه، أعرج شديد العرج، ساب رجله في أوائل أمره ومع ذلك يصلي عن قيام، مهاباً شجاعاً جباراً ظلوماً... سفاكاً للدماء، جهير الصوت. يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يحب المزاح. ويحب الشطرنج وله فيه يد طولى ومهارة زائدة... كان ذا فكر صائب ومكائد في الحرب عجيبة، وفراسة قل أن تخطئ...[(١)].

يقال أن تيمورلنك كان يحب العلماء ويصطحبهم معه في حروبه وأسفاره وكان يناقشهم بسعة صدر ويطلق لهم الحرية في التعبير عن آرائهم، غير أن حروبه جلبت له أعداء كثيرين نسجوا حوله روايات لا تخلو من المبالغة وأحياناً التشويه. وقد قال العزاوي بهذا الصدد: نعم نرى أعداءه من رجال

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢ص٢٧٢

الحكومات كثيرين وأكبر من شنع عليه الترك العثمانيون والعرب. ونخص بالذكر صاحب عجائب المقدور وصاحب الأنباء وبعض العجم ...[1].

وفي تلك الأثناء كان سلطان مصر يحتجز أحمد ابن أويس الجلايري وقره يوسف التركماني وينتظر أمر تيمورلنك بما يفعل بهما، ولكن بعد وفاة تيمورلنك أطلق السلطان سراحهما وخلع عليهما فسار أحمد الجلايري إلى ديار بكر ومنها انحدر إلى الحلة، وبعد أن التحق به أعوانه ورجاله الذين شتتهم تيمورلنك زحف بهم من الحلة ودخل بغداد في المحرم من سنة ٨٠٨هـ وجلس مرة أخرى على كرسي السلطنة. أما قره يوسف فقد سار نحو ديار بكر وعقد هناك حلفاً مع حاكم أخلاط وتفليس الذي تزوج بنت قره يوسف. وبعد ذلك جهز قره يوسف جيشاً سار به إلى حدود وان. وفي تلك الأثناء كان مزيد من قبائل التركمان تلتحق بجيشه وبذلك اتسعت فتوحاته حتى استولى على قلعة "أونيك" وهي قلعة حصينة من أرض أرزن الروم في شرق الأناضول.

وفي أوائل سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) وبينما كان قره يوسف مشغولاً في الحرب انتهز السلطان أحمد الجلايري الفرصة فسار بجيش كبير نحو أذربيجان واستولى على تبريز. مما اضطر قره يوسف إلى العودة نحو تبريز لمجابهة أحمد الجلايري. وفي منخفضات غازان التقت جموع قبائل التركمان بقيادة قره يوسف بجيش أحمد الجلايري، ودارت بينهما معركة طاحنة أسفرت عن انتصار التركمان وفرار السلطان أحمد من ساحة المعركة بعد أن تمزق جيشه. غير أن رجال قره يوسف تمكنوا من إلقاء القبض عليه فقتل هو وأولاده. وهكذا قامت في أذربيجان حكومة تركمانية برآسة الأمير قره يوسف زعيم قبائل القره قوينلو.

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٢ص٢٧٤

أما في بغداد فبعد مقتل السلطان أحمد في أذربيجان، نصب من تبقى من أمراء الجلايرية صبياً من آل أويس اسمه شاه محمود على العرش في محاولة منهم التمسك بأهداب الحكم في العراق. ولكن الأمور لم تستقم لهم طويلاً، إذ بعث قره يوسف من أذربيجان ابنه الشاه محمد على رأس جيش تركماني بقصد الاستيلاء على بغداد. وبعد حصار طويل اقتنع أمراء الجلايرية بعدم جدوى المقاومة فهربوا من بغداد وساروا نحو الجنوب. وفي أوائل سنة ٨١٤هـ (١٤١١م) استولت قبائل التركمان على بغداد وبذلك أصبح العراق إقليماً تابعاً لحكومة جديدة حلت محل الحكومة الجلايرية أقامها الأمير قره يوسف التركماني في أذربيجان.

الباب الرابع

العراق بعد سقوط حكم المغول

توطئة

حينما اجتازت جيوش الفتح الإسلامي حدود خراسان الشرقية وتوغلت في أقاليم الترك التي سماها المسلمون بلاد ما وراء النهر(نهر جيحون)، جرى ضم تلك الأقاليم المفتوحة إلى ولاية خراسان الإسلامية. وبذلك أزالت الدولة الإسلامية الحدود الفاصلة بين خراسان الفارسية وأقاليم الترك التي كانت قائمة منذ عهود الإمبراطورية الفارسية.

وهكذا غيرت الدولة الإسلامية أوضاع الأقوام التركية التي ظلت طيلة قرون عديدة محصورة في السهوب الرعوية إلى الشرق من ذلك النهر. ومنذ ذلك الحين أخذت تحولات اجتماعية وسياسية كبيرة تأخذ مجراها في مجتمعات بلاد ما وراء النهر من جهة، وخراسان الإسلامية من جهة أخرى. فبعد أن زالت الحدود تمكنت العديد من القبائل التركية من التحرك نحو الغرب والتوغل في مختلف أقاليم خراسان.

وهناك أخذت تلك القبائل تحتك بمجتمع خراسان وحضارته الفارسية من جهة، وبمفاهيم الإسلام التي تقوم على العدالة والمساواة بين الشعوب من جهة أخرى. وبمرور الزمن أخذ الترك يتحولون نحو الإسلام، وأخذت جماعات منهم خاصة تلك التي مالت نحو الاستقرار، تنصهر في بوتقة المجتمع الخراساني، وتكون مجتمعاً تركياً ذا عقيدة إسلامية وثقافية فارسية. وقد كان لتلك الجماعات التركية دور كبير في نقل العقيدة الإسلامية إلى مجتمعات الترك في بلاد ما وراء النهر، تلك المجتمعات التي أنتجت عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء والمفكرين الذين أسهموا في إغناء وتطوير الحضارة الإسلامية.

وقد شهدت العصور الإسلامية منذ تلك الأيام، تدفقاً عظيماً للقبائل التركومغولية المهاجرة نحو العالم الإسلامي، والذي استمر لأكثر من سبعة

قرون، حتى إن موجات القبائل المهاجرة غمرت مناطق شاسعة من خراسان ثم امتدت إلى بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى والجزيرة والشام.

وبعد الفتوحات الإسلامية، أخذ دور الترك يتعاظم اجتماعياً وسياسياً وعسكرياً في العالم الإسلامي، إذ دخلوا منذ البداية في خدمة الدولة. فقد استخدمهم الأمويون كمقاتلين في حروبهم خاصة في خراسان وبلاد ما وراء النهر. وفي العهد العباسي اتخذهم الخلفاء، منذ عصر المنصور، مماليك لهم فأدخلوهم قصورهم كخدم وكحراس خاصين بالخليفة. ومن أولئك المماليك الترك تكونت النواة الأولى لجيوش المماليك الذين تسلط قادتهم على الخلفاء العباسيين ومن ثم على مقدرات الدولة.

وفي العهد العباسي، تمكن الترك من إقامة دول وإمبراطوريات، كان لها دور كبير في التحولات التاريخية التي تعاقبت على العالم الإسلامي. وكان من أهم الدول والإمبراطوريات التي أقامتها القبائل التركية في العالم الإسلامي، هي الدولة السلجوقية التي ظهرت في إيران. فبعد أن أحكم السلاجقة قبضتهم على مقاليد الحكم في إيران، تحركت جيوشهم غرباً نحو العراق واستولت على بغداد، وعلى ما تبقى من أملاك الدولة العباسية. ثم توغلت جيوشهم في آسيا الصغرى فيما كان يعرف ببلاد الروم، واستولت على أقاليم واسعة كانت تحت نفوذ الدولة البيزنطية. وبذلك تمكنوا من إقامة إمبراطورية واسعة تعد من أعظم الإمبراطوريات التي قامت في العصور الإسلامية.

وقد تبنى السلاجقة سياسة خاصة، كانت تجمع بين السطوة العسكرية التركية والإدارة والثقافة الفارسية، ففي الوقت الذي تمسك فيه السلاطين السلاجقة الترك بزمام القوة العسكرية التي كان قوامها المقاتلون الترك الأشداء، نراهم سلموا إدارة الإمبراطورية إلى رجال أكفاء وخبراء في إدارة أمور الدولة كان جلهم من أصول فارسية. وكان من أشهر أولئك الوزراء الكندري، وزير السلطان طغرلبك، الذي يعد مؤسس الدولة السلجوقية. وبعد الكندري تسلم الوزارة نظام الملك الحسن ابن علي الطوسي، مؤسس نظام المدارس الدينية

التي عرفت بالمدارس النظامية نسبة إليه. والطوسي هو الذي وضع أسس نظام الإقطاع العسكري الذي أصبح أساس الحكم السلجوقي.

ولذا فإن العديد من الباحثين، يشيرون إلى الدور الكبير للسلاجقة في تعميم ونشر الثقافة الفارسية، في المجتمعات التركية في طول وعرض إمبراطوريتهم الواسعة. مما كان له آثار بعيدة في تطور الفكر في تلك المجتمعات التركية الإسلامية.

وعلى أنقاض الدولة السلجوقية في إيران قامت إمبراطورية خوارزم، التي انهارت إثر الغزو المغولي للعالم الإسلامي، بقيادة جنكيزخان سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م). وقد سبق وأن أشرنا في فصل سابق إلى أن أعداداً كبيرة من القبائل التركية تحولت إلى جانب جنكيزخان وانضم عشرات الآلاف من فرسانهم إلى صفوف جيشه الزاحف نحو الغرب. ومنذ تلك الأيام انخرطت تلك القبائل التركية في خدمة الحكم المغولي مما ساعدها على الانتشار والاستقرار في أقاليم رعوية واسعة في شمال شبه القارة الإيرانية وآسيا الصغرى وأقاليم رعوية أخرى من الإمبراطورية المغولية.

وفي أيام الدولة المغولية التي أقامها هولاكو والتي كانت تبريز عاصمتها، ازدادت هجرات قبائل المغول الرعوية نحو العالم الإسلامي. وقد انتشرت تلك القبائل المغولية واستقرت في الأقاليم الرعوية التي كانت القبائل التركية تتواجد فيها. وبمرور الأيام أخذت تلك القبائل المغولية تتحول نحو الإسلام، وتذوب بالتدريج اجتماعياً ولغوياً في مجتمعات القبائل التركية ذات الثقافة والحضارة الإسلامية الفارسية. ومن عملية الاندماج تلك، وفي ظل الحكم المغولي، ظهر مجتمع الترك الأذريين، الذي يعد نتاجاً لتلك التحولات التاريخية. ومن ثم عرفت بلاد أولئك الترك الأذريين بـ (أذربيجان)، التي أصبحت قاعدة الحكم المغولي. ومع تطور الأحداث التي واجهت حكومات المغول، تعاظم دور تلك القبائل التركية، وبرز دورها العسكري في حروب سلاطين المغول.

بعد انحسار سلطة المغول، تمكنت تلك القبائل الرعوية عبر سلسلة من الحروب، من إقامة حكومات تركمانية حلت محل الحكم المغولي. وشملت مناطق واسعة من إيران، وبلاد ما بين النهرين والجزيرة، والعديد من أقاليم الأناضول في آسيا الصغرى. وقد دخلت عدة مناطق عراقية، ولمدد مختلفة ضمن سلطة تلك الحكومات التركمانية، التي استمر وجودها قرابة قرن من الزمن. وكانت أول تلك الحكومات، تلك التي أسسها زعيم قبائل (القره قوينلو) في سنة ١٤١١م والتي عرفت بالحكومة البارانية.

الفصل الأول

الحكومة البارانية (القره قوينلو)

تنسب قبائل التركمان التي أطاحت بالحكومة المغولية في أذربيجان، إلى (باران) أحد أحفاد (أوغوز) الذي تنسب إليه قبائل الترك. وعلى هذا الأساس سميت الدولة التي أسسها قره يوسف التركماني في أذربيجان بـ "الدولة البارانية". ولكن غلب على تلك القبائل الرعوية، اسم القره قوينلو وتعني بالتركية سود الغنم، إذ يبدو أن أغنامهم كان يغلب عليها اللون الأسود، ويقال بأنهم كانوا يضعون صورة خروف أسود على راياتهم.

كانت لغة أفراد تلك القبائل التركمانية اللغة التركية الأذرية، ولما كانت مناطقهم الرعوية إبان الحكم المغولي في أذربيجان، فلابد أن مجتمع تلك القبائل الرعوية تطور ضمن إطار المجتمع التركماني الأذري، الذي كانت غالب قبائله تتبع المذهب الشيعي، تلك الظاهرة التي أشرنا إليها في فصل سابق. وقد أكد الباحث الروسي برتولد شبولر انتماء تلك القبائل حينما قال:

وكانوا عبارة عن قبائل اتبعت المذهب الشيعي وانتشرت في المناطق المجاورة الأرمينية وأذربيجان. وابتداء من عام ١٣٩٠م أصبح يقودها زعيم طموح يدعى قره يوسف. [١]

وقد تعاظم دور تلك القبائل التركمانية وبرزت على مسرح الأحداث، في أيام السلطان المغولي أويس ابن الشيخ حسن الجلايري، إذ دخل زعيم قبائل القره قوينلو آنذاك (بيرام خواجة) في خدمة ذلك السلطان وشارك في حروبه. وبعد

---

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص١٣٥

وفاة أويس تمكن بيرام خواجة في سنة ٧٧٨هـ (١٣٧٦م) من الاستيلاء على الموصل وسنجار ومناطق أخرى.

وبعد بضع سنوات آلت زعامة تلك القبائل الرعوية إلى قره محمد، الذي وقف بجانب السلطان أحمد الجلايري في حروبه ضد أخيه السلطان علي. وبعد سلسلة من المعارك تمكن قره محمد، من الاستيلاء على تبريز، وقتل السلطان علي وبذلك تربع السلطان أحمد على العرش الجلايري. بعد تلك الأحداث التي غنم فيها القره قوينلو غنائم كبيرة، أصبحوا القوة العسكرية المهيمنة في المنطقة. وفي سنة ٧٩٢هـ (١٣٩٠م) قتل قره محمد، وخلف من الأولاد، قره يوسف و يار علي و بير علي، فتولى الزعامة ولده قره يوسف مؤسس دولة القره قوينلو.

حكومة قره يوسف

امتد حكم قره يوسف في تبريز أكثر من عشر سنين، ولكن طيلة تلك الفترة، لم يتمكن مؤسس دولة القره قوينلو، من وضع الأسس اللازمة لكيان دولة مستقرة تمهد السبيل لشعوبها للنهوض والسير على طريق التقدم. فقد استمر قره يوسف في إدارة دولته الفتية، بعقلية زعيم قبيلة رعوية ديدنه التوسع للسيطرة على المزيد من المناطق الرعوية عن طريق الحروب. وفرض سلطته وسلطة قبيلته على تلك المناطق. ويبدو أن تلك السياسة حفزت بقية القبائل التركمانية وغيرها من القبائل الرعوية على التصدي لسلطة القره قوينلو، دفاعاً عن مناطقها الرعوية، ولعل ذلك كان سبباً مهماً في استمرار النزاعات والحروب، بين أمراء القره قوينلو وأمراء القبائل التركمانية الأخرى. ومن أقوى القبائل التركمانية التي وقفت ضد حكم القره قوينلو، هي قبائل الآق قوينلو بزعامة قره عثمان، الذي كان يعد أكبر ند لقره يوسف. وهكذا انغمر قره يوسف طيلة أيام حكمه في صراعات قبلية، مما كان له نتائج وخيمة على دولته وما جاورها من المناطق. ولابد أن وجود دولة شاه

رخ بن تيمورلنك القوية في خراسان، ساهم في تفاقم تلك الأوضاع، إذ كان أمراء التركمان ومنهم قره عثمان، يركنون إلى شاه رخ ويطلبون منه العون والتدخل بجيشه للوقوف بوجه طموحات قره يوسف.

أما في بغداد فبالرغم من أن حكومة الشاه محمد بن قره يوسف ظلت طيلة تلك الفترة بعيدة نسبياً عن تلك الصراعات العسكرية، فإن الأمور لم تكن تسير فيها على ما يرام. فإن المغول الذين انسحبوا من بغداد، ساروا جنوباً بقيادة أميرة تدعى (دوندي) واستولوا على واسط الواقعة على المجرى القديم لنهر دجلة. ومنها أخذوا يتحفزون للاستيلاء على البصرة، التي كانت فيها حكومة عربية على رأسها مانع زعيم قبائل المنتفك، الذي كان يبسط سلطته على جنوب العراق. ولذلك دخل المغول الجلايرية في صراعات عسكرية مريرة مع حكومة عرب العراق في البصرة، وبعد معارك شديدة تمكنوا من انتزاع البصرة من يد حكومة مانع. وبعد سيطرتهم على البصرة بسطوا سلطتهم على شوشتر واتخذوها قاعدة لسلطتهم في الجنوب.

وقد دامت سلطة المغول في جنوب العراق قرابة عقد من الزمن، لم تتجاوز أثنائها سلطة حكومة شاه محمد، محيط مدينة بغداد وبعض مناطق وسط العراق.

وهكذا ظل العراق طيلة تلك الفترة مقطع الأوصال، تتنازع على أرضه قوى المغول والتركمان. تلك التي ساهمت في المزيد من سوء أحوال سكانه. إذ تشير الأخبار أن أوضاع السكان المعيشية ساءت إلى حد لم يكن بمقدورهم تأدية ما عليهم من ضرائب لحكومة بغداد، التي غلب عليها الضعف وسوء الإدارة. وكنتيجة لتلك الأوضاع الاقتصادية السيئة، شحت موارد حكومة بغداد لحد لم يكن بمقدورها دفع ما عليها من أموال إلى حكومة تبريز. ويبدو أن

قره يوسف اعتبر ذلك بمثابة عصيان عليه، فسار في سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) نحو العراق ودخل بغداد، واستخلص أموال وأملاك ولده الشاه محمد[1].

وفاة قره يوسف

في سنة ٨٢٣هـ (١٤٢٠م) توجه شاه رخ بن تيمورلنك، لمحاربة قره يوسف فجمع قره يوسف عساكره واستعد للنزال. وقبل نشوب القتال وجد رجال التركمان زعيمهم قره يوسف ميتاً في خيمته، فحدثت فوضى عظيمة وأخذت جموع التركمان تهرب من المعسكر. في أثناء ذلك انتشرت أعمال النهب والسلب، إذ أخذ رجال التركمان ينهبون أموال وخزائن قره يوسف وكل ما كان معه، حتى خيمته نهبوها تاركين جسده في العراء، وهكذا كانت نهاية ذلك الزعيم الذي قاد جموع القره قوينلو في معاركهم التاريخية التي أطاحت بدولة المغول الجلايرية في أذربيجان.

وعلى إثر وفاة قره يوسف المفاجئة، ارتبكت أوضاع دولة القره قوينلو حيث تفرق رجالها في كل صوب، بما فيهم أولاد المتوفى، فقد خلف قره يوسف من الأولاد اسكندر وميرزا جهان شاه، وشاه محمد، وميرزا أبو سعيد، والأمير أسبان[2]. وبينما لزم شاه محمد مكانه في بغداد، ذهب اسكندر إلى أنحاء كركوك حيث اجتمع إليه غالبية أصحاب والده من التركمان وولوه عليهم. أما الأمير أسبان فقد سار إلى بغداد، وكذلك سار إليها جهان شاه. أما أبو سعيد فقد ذهب إلى منطقة جصان. وبعد توليته سار اسكندر، الذي يقال إنه كان مقاتلاً عنيداً لا تلين له قناة، بجموع التركمان لقتال شاه رخ الذي كان قد استولى على العاصمة تبريز. وبعد قتال مرير استمر لثلاثة أيام في موضع يقال له (يخشي)، حلت الهزيمة بالتركمان الذين تكبدوا خسائر فادحة، مما

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص٤٤

(٢) يرد اسم الأمير أسبان بن قره يوسف في بعض المصادر بلفظ (أسبند) أو (أصبهان) أو (أسبهان)

اضطر اسكندر إلى أن ينسحب بهم إلى جهة الفرات ثم سار إلى أنحاء ماردين. وبعد مضي فترة من الزمن ترك شاه رخ تبريز وعاد إلى خراسان، وعند ذلك سار اسكندر ودخل العاصمة تبريز ثم التحق به أخوه جهان شاه.

أوضاع العراق

كانت حكومة شاه محمد ضعيفة، إذ لم تكن تتجاوز سلطتها الأرياف المحيطة ببغداد. وبالرغم من أن العراق ظل طيلة تلك الفترة بعيداً نسبياً عن الحروب التي خاضها قره يوسف، فإن أوضاعه ظلت تسير من سيئ إلى أسوأ. فبعد وفاة قره يوسف، ثارت الفتن وكثر الشغب على حكومة الشاه محمد. وقد بلغ سوء الحال إلى حد أن أمراء بغداد أخذوا يراسلون السلطان أويس الجلايري ويدعونه للعودة لتخليصهم من حكومة شاه محمد. وأمام تلك الأوضاع، سار في سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) السلطان أويس ابن الأميرة دوندي نحو بغداد وحاصرها، ولكن في تلك الأثناء مني الأمير اسكندر في أذربيجان بانتكاسة عسكرية أخرى أمام شاه رخ، فانسحب نحو العراق. وحينما وافت الأخبار بوصوله أطراف كركوك خاف السلطان أويس وانسحب جنوباً وعاد إلى شوشتر.

عودة المغول الجلايرية إلى الحلة

في عام ٨٢٥هـ (١٤٢٢م) توجه حفيد تيمورلنك ميرزا إبراهيم من شيراز نحو شوشتر، فهرب أويس منها وتوجه إلى منطقة أهوار الجزائر، ثم إلى واسط. ومنه زحف شمالاً واستولى على الحلة، وكان ذلك في صيف سنة ٨٢٦هـ. ومن الحلة زحف نحو بغداد وحاصر جانبها الغربي، غير أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليه. فقفل راجعاً إلى الحلة حيث استمر حكمه حتى وفاته سنة ٨٢٧هـ، وكان وزيره تاج الدين ابن حديد وهو من أهل الحلة.

وبعد وفاته تولى الحكم السلطان حسين، حفيد أحمد الجلايري الذي استمرت حكومته حتى سنة ٨٣٥هـ (١٤٣١م).

الأمير أسبان

بعد وفاة قره يوسف، سار الأمير أسبان نحو بغداد واحتل جانبها الغربي. ومنذ وصوله تحولت بغداد والمناطق التي كانت ضمن سلطة شاه محمد، إلى ساحة تسود فيها الفوضى والمنازعات، بعد أن باشر الأمير أسبان في توسيع سلطته، بالتجاوز على تلك المناطق. فقد سار شمالاً وانتزع مقاطعات الدجيل من ميرزا علي ابن شاه محمد، وأخذ يجبي الأموال حتى تكريت. وبالرغم من أن شاه محمد ظل يتجنب التعرض لأخيه الأمير أسبان إذ كان يقول: إن بغداد تكفينا. فإن ابنه الميرزا علي لم يستكن لذلك الوضع، بل حاول اغتيال عمه، لكنه فشل في المحاولة فهرب إلى بغداد.

أما الأمير أسبان فقد عبر دجلة وسار نحو الخالص، ثم تجاوز ديالى واستولى على طريق خراسان، وأخذ يتصرف بأموال تلك المناطق. وفي تلك الأثناء استمرت المناوشات بينه وبين ميرزا علي حتى سنة ٨٢٩هـ. وبينما كان العراق يعيش تلك الحالة من الفوضى والتمزق، زحف في سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٧م)، أويس الجلايري مرة أخرى وحاول انتزاع بغداد من حكومة شاه محمد، ولكنه قتل أثناء المعارك التي دارت بين الطرفين.

في أذربيجان استمرت الحروب بين القره قوينلو بزعامة الأمير اسكندر وشاه رخ. ففي سنة ٨٣٢هـ نشبت معارك طاحنة بين الطرفين انتهت بهزيمة التركمان وهروب اسكندر إلى جهات الروم. وقد قاتل في تلك الحرب، قره عثمان زعيم قبائل التركمان (الآق قوينلو) إلى جانب شاه رخ. وفي سنة ٨٣٤هـ استولى شاه رخ مرة أخرى على أذربيجان، وفي هذه المرة ولى عليها الميرزا أبا سعيد بن قره يوسف. لكن ما إن عاد شاه رخ إلى خراسان حتى كر اسكندر على أذربيجان واستعادها، وفي هذه المرة قتل أخاه أبا سعيد.

وبينما كانت الحروب والنزاعات العسكرية قائمة على قدم وساق، كانت أوضاع بلدان إمبراطورية الآق قوينلو تسير من سيئ إلى أسوأ. إذ عم الغلاء وانتشر من بغداد إلى تبريز، وسادت المجاعات حتى أكل الناس الكلاب والميتات وانتشرت الأمراض والأوبئة في العراق وديار بكر والجزيرة وهمدان وشهرزور وماردين وغيرها من البلدان[1].

حكومة أسبان في الحلة

في سنة ٨٣٥هـ (١٤٣١م) زحف الأمير أسبان نحو الحلة، التي كانت بيد المغول الجلايريين وحاصرها لمدة سبعة أشهر، وبعد الاستيلاء عليها، قبض على السلطان حسين الجلايري وقتله. وبذلك انقرضت دولة المغول الجلايرية، وبزوال سلطة المغول تمكن أسبان من بسط سلطته على جنوب العراق. وفي ٨٣٦هـ هاجم أسبان بغداد، مما اضطر الشاه محمد إلى الهروب إلى الكاظمية ومنها سار إلى الموصل. وبعد استيلائه على بغداد أصبح الأمير أسبان الحاكم المتسلط في العراق. قال صاحب الأنباء:

خرب إصبهان بن قره يوسف بغداد وشتت أهلها منها، وقبل ذلك كان قد خرب الموصل[2].

مقتل اسكندر وشاه محمد

في سنة ٨٣٧هـ (١٤٣٣م) أغار الأمير اسكندر على شيروان، وأكثر القتل والنهب والتخريب فيها. فاستغاث حاكمها بشاه رخ، الذي جهز جيشاً وسار إليه في سنة ٨٣٨هـ. وفي تلك الأثناء التحقت بعساكر شاه رخ قوات تركمانية كبيرة، كان على رأسها جهان شاه ابن قره يوسف، وميرزا علي ابن شاه محمد، وعدد من أمراء قبائل القره قوينلو. ولما دخلت تلك الجيوش

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص٨٠

(٢) ن.م.ج٣ص٨٥

أذربيجان، هرب الأمير اسكندر إلى بلاد الروم. وعلى الحدود تصدت له قبائل التركمان البايندرية (الآق قوينلو) بقيادة قره عثمان، الذي ما انفك يتحدى القره قوينلو منذ أيام قره يوسف، وبعد اشتباك الطرفين حلت الهزيمة بالبايندرية، وقتل زعيمهم قره عثمان.

أما في أذربيجان، فقد ولّى شاه رخ الأمير جهان شاه بن قره يوسف، ومنحه سلطة تمتد إلى حدود الروم والشام. وما إن رجع شاه رخ إلى خراسان، حتى عاد اسكندر من بلاد الروم وهاجم أخاه جهان شاه، الذي أصبح تابعاً لحكومة شاه رخ، غير أنه مني بالهزيمة أمام عساكر أخيه. فهرب وتحصن في قلعة "النجق" وفي القلعة جرى اغتيال اسكندر على يد ولده شاه قباد. أما الشاه محمد فبعد هروبه من بغداد، دانت لحكمه الموصل وأربيل وكركوك ومناطق أخرى، غير أن النزاعات العسكرية بينه وبين أخيه أسبان لم تنقطع. وبينما كان شاه محمد في طريقه ليلاً إلى "شيخان" مع مجموعة صغيرة من أعوانه، اشتبه به حراس المدينة وقتلوه عن طريق الخطأ. قال عنه صاحب المنهل الصافي:

ملك بغداد وما والاها بعد قتل شاه ولد ... واستمر شاه محمد هذا في مملكة بغداد سنين حتى خربت بغداد وممالك العراق في أيامه ... وقد انفلّ عنه عسكره وبقي في بغداد طائفة قليلة فكثر عند ذلك قطاع الطرق في أعمال بغداد وما والاها حتى فسدت السابلة ورحلت الناس عن بغداد فوجاً فوجاً وانقطع ركب الحاج من بغداد سنين ونفرت القلوب إلى أن غلبه أخوه إصبهان بن قره يوسف وأخرجه من بغداد وملكها بعده، وكان إصبهان أكفر من أخيه شاه محمد وأظلم. فأولاد قره يوسف بأجمعهم هم أوحش خلق الله في أيامهم خربت ممالك العراق وأطراف العجم[١].

حكومة أسبان في العراق

بعد مقتل شاه محمد سار أسبان إلى أربيل، وبعد وصوله وجد أن حاكمها ميرزا علي قد خرب المدينة وصعد وتحصن في قلعتها الشهيرة. وبعد حصار

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص٩٠ و ص٩١

دام قرابة ستة أشهر أمر أسبان بإلقاء السم في آبار أربيل مما تسبب في موت أعداد كبيرة من السكان. ويقال بأن الميرزا علي ظن بأن انتشار الموت كان بسبب طول مدة الحصار، فطلب الأمان من أسبان واستسلم له. وبعد أربيل سار أسبان إلى الموصل واستولى عليها، ويقال بأنه دس السم لحاكمها.

الفصل الثاني

ثورة عرب العراق ودولة المشعشعين

بعد مرور ثلاثة عقود على استيلاء جيش القره قوينلو على بغداد، وفي سنوات حكم الأمير أسبان، اندلعت في العراق ثورة شعبية ذات إطار ديني امتد لهيبها من أعماق أهوار الجنوب، فشمل أرياف ومدن العراق الزراعي. وكان مفجر تلك الثورة رجل دين في مقتبل العمر، من تلامذة العلامة الشيخ أحمد ابن فهد الحلي الأسدي، يدعى السيد محمد ابن فلاح الموسوي. الذي ينتهي نسبه إلى محمد العابد بن الإمام موسى الكاظم (ع).

ولد السيد محمد بن فلاح في مدينة واسط جنوب العراق، ربما في أوائل القرن التاسع الهجري. وفي مرحلة الصبا، جاء به والده إلى مدينة الحلة لتلقي علومه الدينية. وكانت الحلة آنذاك المركز الرئيسي لدراسة العلوم الدينية وآداب اللغة العربية في العراق. فالتحق السيد محمد بمدرسة الشيخ أحمد بن فهد المعروفة بـ "الشرعية". وكان العلامة بن فهد يعد آنذاك، كبير علماء الشيعة في العراق، وله شهرة واسعة ومكانة عظيمة بين علماء الدين ويعد من أكابر العلماء في التصوف الإسلامي.

ويقال بأن السيد محمد الموسوي كان من ألمع وأقرب الطلاب إلى أستاذه الذي زوجه إحدى بناته، وتزوج أمه بعد وفاة السيد فلاح. وفي أثناء مراحل دراسته أظهر السيد محمد ميلاً شديداً للتصوف الإسلامي. وكان شديد الإعجاب بفكر أستاذه ابن فهد وآرائه في التصوف، وكان يتخذ من سيرة الإمام علي بن أبي طالب مثالاً أعلى في حياة الزهد والتقشف. فمن المعروف

أن رسول الله سمى علي بن أبي طالب أبى تراب بعد أن رآه نائماً يتوسد أرض المسجد النبوي، بعد أداء فريضة الصلاة، وقد تعفر خده بالتراب. ويذكر أن الإمام علي كان يجلس في المسجد يرقع ثيابه، وقد سئل مرة لم ترقع قميصك فقال: ليخشع القلب، ويقتدي بي المؤمنون. ويقال بأن السيد محمد الموسوي كان يهتز جسده انفعالاً، ويتشعشع وتنتابه حالات غريبة، إذا سردت سيرة الإمام علي بن أبي طالب، أو حينما كان يطالع في كتب أستاذه في التصوف والحب الإلهي. ومهما كان التفسير اللغوي للشعشعة فإن تلك الحالة شاعت عن السيد محمد الموسوي فلقب بالسيد محمد المشعشع.

إرهاصات الثورة

ينتمي السيد محمد المشعشع إلى جيل من عرب العراق، نشأ وترعرع في عصر مضطرب عصفت به الحروب والنزاعات الدموية. ففي العقد الأول من القرن التاسع الهجري (٨٠٤هـ)، اجتاحت جيوش تيمورلنك للمرة الثانية أرض العراق، وأنزلت بالبلاد من الدمار والخراب ما فاق الاجتياح الأول. ثم توالت على العراق بعد ذلك ولثلاثة عقود من الزمن حكومات أقحمت البلاد في سلسلة من الحروب والنزاعات الدموية، لم يحصد عرب العراق منها سوى المزيد من النكبات والمحن. وكانت مدينتا الحلة وواسط في مقدمة حواضر عرب العراق التي عانت من تلك الحقب، إذ كانتا طيلة تلك الفترة مسرحاً للحروب والنزاعات العسكرية، أما بين عساكر المغول الجلايرية وعساكر التركمان القره قوينلو من جهة، أو بين عساكر التركمان أنفسهم. قال العزاوي عن معاناة سكان مدن العراق:

والشعب المتحضر من أهل المدن كان في بلاء عظيم ومصيبة لا توصف[1] .

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١٩٧

وفي خضم تلك الأحداث وفي فترة تسلط الأمير أسبان على العراق، أطلق رجل الدين الشاب السيد محمد دعوته للثورة على الحكام الظالمين. وأخذ يحث الناس للنهوض والعمل لتغيير أحوالهم التي أصبحت لا تطاق. ومما ينسب إليه قوله: معاشر المؤمنين إن هذا أوان الظهور والقيام للقائم من آل محمد عليهم السلام.

وقيام القائم من آل محمد هي عقيدة إسلامية عامة يفسرها الشيعة الإمامية بقيام إمامهم الثاني عشر الذي سيظهر بعد أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً. وهذا يشير إلى أن السيد محمد الموسوي، كان في حقيقة الأمر يحث الناس على الثورة. فالإمام القائم (صاحب الزمان) حين ظهوره، سيهد عروش الحكام الظالمين، ويقيم حكومة إسلامية تملأ الأرض عدلاً وخيراً. غير أن بعض المصادر تشير إلى أن السيد محمد الموسوي تجاوز حدود الدعوة للإمام القائم، حسب عقيدة الشيعة، وتنسب إليه قوله: (سأظهر أنا المهدي الموعود). ويقال أن مثل تلك الأقوال نقلت إلى أستاذه ابن فهد، فأنكرها عليه وزجره وأمره أن لا يتفوه بمثلها، لأنها مما يخالف عقيدة الشيعة الإثني عشرية. وبالرغم من أن عدداً من الكتاب ينفون عنه أمثال تلك الأقوال، ويعتبرونه من باب التدليس عليه، فإننا نجد بأن السيد محمد الموسوي شاع عنه لقب آخر في زمانه هو لقب (المهدوية) فكان يدعى (محمد المهدي).

بالرغم من شحة المعلومات عن تلك الحقب المضطربة من تاريخ العراق، فإن ما يتوفر لنا منها يشير إلى أن السيد محمد المشعشع واجه الكثير من الصعاب منذ بداية دعوته. وإن جهات عديدة تصدت له وطعنت بآرائه وشنت عليه مختلف الحملات. ويقال بأن الخلاف بينه وبين أستاذه العلامة بن فهد اشتد لحد أن ابن فهد كتب إلى الأمير منصور ابن قبان رئيس عشائر عبادة يحثه على قتل السيد محمد، ويقال بأن الأمير منصور العبادي قبض فعلاً على المشعشع وقيده وعزم على قتله، لكنه ولأسباب غير واضحة، أطلق

سراحه[1]. وهناك مؤشرات تفيد بأن السيد محمد أثناء دعوته، واجه المزيد من أمثال تلك الصعاب والمشاكل التي توالت عليه مع مرور الأيام. كل هذا والسيد محمد يسير بدعوته بخطى حثيثة، ينتقل بها من صعيد إلى آخر.

ويذكر أنه في بداية دعوته، اعتكف في مسجد الكوفة مدة سنة، كان أثنائها يكتفي في طعامه بقليل من خبز الشعير، وذلك للتأمل ولتعويد نفسه على الصبر وتحمل الصعاب. وكان يتردد على واسط مسقط رأسه، ويتدرب هناك على مختلف فنون القتال، كاستعمال السيف والرمي بالسهام.

وفي الغالب فإن تردده على الجنوب كان يحمل أهدافاً عديدة ، منها دراسة أوضاع المنطقة، خاصة منطقة الأهوار تحضيراً لثورته المرتقبة. فقد علّمت التجارب عرب العراق، أن مدنهم ومناطقهم الزراعية المأهولة بالسكان يصعب الدفاع عنها أمام عساكر الحكام. ولذا فإن المشعشع أثناء وجوده هناك، كان يخرج من واسط ويتوغل في أعماق منطقة الأهوار، للتعرف على أحوال سكانها من أبناء العشائر العربية، وللاستطلاع والبحث عن مواقع تصلح أن تكون قاعدة لثورته المرتقبة. فالأهوار والبطائح، كانت عبر تاريخ عرب العراق، ملجأ الثوار وحصونهم المنيعة. ويبدو أن السيد محمد المشعشع أثناء تجوله بين عشائر تلك المنطقة، لقي تجاوباً مع دعوته مما شجعه على المضي في خططه الثورية.

أسبان وتحديات الحكم

بعد مقتل الأمير اسكندر وشاه محمد، تمكن الأمير أسبان من بسط سلطة حكومته على العراق، أما في أذربيجان فإن الأمير جهان شاه كان يمسك بزمام السلطة، بدعم وحماية شاه رخ ابن تيمورلنك. ولذا فإن أسبان وجهان شاه كانا يواجهان ضغوطاً مختلفة لا يستهان بها، فحكومة جهان شاه كانت

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١١١

تواجه في أذربيجان تصاعد حركات ثورية كان وراءها الدراويش الصوفية الشيعة من أتباع الطريقة الصفوية.

أما في العراق فإن الأمير أسبان الذي انتزع الحلة من المغول الجلايرية في سنة ٨٣٥هـ، واستولى على بغداد في سنة ٨٣٦هـ، كان هو الآخر يواجه تحديات عديدة. فلابد أنه كان يراقب بوجل تحركات أخيه جهان شاه المتحالف مع شاه رخ، وفي نفس الوقت يتابع تصاعد حركات الدراويش الشيعة في أذربيجان، وأقاليم التركمان الأخرى.

أما في العراق فلابد أن ظهور دعوة المشعشع في الحلة، مركز الحوزة الدينية الشيعية، أثارت اهتمامه ومخاوفه. فأسبان حكم في الحلة ومكث فيها فترات عديدة، منها في سنة ٨٤١هـ حينما سار إليها بعد أن وقع في بغداد وباء عظيم قضى على الكثير من سكانها. ويقال بأنه أثناء إقامته هناك تعرض لمحاولة اغتيال من قبل ميرزا علي ابن أخي قره يوسف ومعه عدد من أمراء التركمان. لكن أسبان قبض على المتآمرين وقتلهم جميعاً. ولعل تلك الحادثة تنم عن جانب من التحديات التي كانت تواجه حكومة أسبان آنذاك، سواء من التركمان أو من عرب العراق.

وفي خضم تلك الأحداث أقدم الأمير أسبان على عمل اختلاف البعض في تفسيره. إذ يقال أنه عقد ندوة جمع فيها فقهاء الشيعة وفقهاء السنة للمناظرة، وبهذا الصدد يقول الغياثي:

طلب أسبند ميرزا (أسبان) بن قره يوسف التركماني فقهاء الشيعة، وكان آنئذ والي العراق، للمناظرة مع فقهاء بغداد والمباحثة معهم. فتغلب فقهاء الشيعة في هذه المباحثة فاختار الميرزا المذكور مذهب الشيعة وضرب السكة باسم الأئمة الإثني عشر[(١)].

فإذا أخذنا بصحة هذه الأخبار، فإن ما أقدم عليه أسبان في تلك الظروف السياسية المضطربة، يمكن أن يفسر بأنه تحرك سياسي هدفه كسب عرب العراق، وخاصة الشيخ ابن فهد كبير علماء الشيعة. وهناك مسألة أخرى لا

(١)المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١٠٩

يمكن التقليل من أهميتها في تحرك أسبان هذا، فلابد أن نتذكر هنا، بأن غالبية قبائل التركمان الأذرية كانت قد اعتنقت المذهب الشيعي منذ أيام السلطان المغولي محمود غازان وأخيه السلطان محمد خدابندة. ثم إن قبائل التركمان القره قوينلو سواء منها التي كانت تتبع جهان شاه في أذربيجان، أو التي كانت تتبع الأمير أسبان في العراق، كانت غالبيتها هي الأخرى تعتنق مذهب الشيعة. ولذا فإن تحرك الأمير أسبان يمكن أن يفسر بأنه محاولة للتقرب من التركمان الشيعة. غير أن البعض يرى بأن تحرك أسبان كان بهدف الانفتاح على مجتمع عرب العراق الشيعة، ولكسب الشيخ بن فهد إلى جانبه في محاولاته للتصدي لحركة السيد محمد المشعشع، التي كانت قد بدأت تأخذ أبعاداً ثورية جديدة ضد حكومته. يقول السيد جاسم شبر:

لذا تظاهر أسبان أمام ابن فهد الحلي بأنه يلتمس الحقيقة ودعاه أن يناظر أهل السنة، وبعد المناظرة وفوز ابن فهد غيّر الميرزا أسبند (أسبان) مذهبه وأصبح إمامياً، وخطب باسم أمير المؤمنين (ع) وأولاده الأئمة. وكان العامل الوحيد في تغيير مذهب أسبند هو ظهور دعوة محمد بن فلاح في سنة ٨٤٠هـ وكسب العلامة بن فهد والشيعة إلى جانبه ضد دعوة محمد المذكور ...[١].

عرب الأهوار والثورة

حينما حان الوقت لإشهار السلاح بوجه حكومة الأمير أسبان، ذهب السيد محمد المشعشع في أول أمره، إلى موضع في أعماق منطقة الأهوار في جنوب العراق تقطنه مجموعة من العشائر العربية يقال لهم المعادي أو (المعدان). وهي العشائر التي استوطنت الأهوار، وكانت تعيش على تربية الجاموس وجمع القصب وزراعة الرز. فكان أولئك المعادي، أول الجماعات التي استجابت لدعوته. ويقال بأن عشيرة بني سلامة كانت أول من لبى نداء

---

(١) جاسم حسن شبر - مؤسس الدولة المشعشعية وأعقابه في عربستان وخارجها

ثورة المشعشع، ثم جاءت إليه وانضوت تحت لوائه،جماعات أخرى من عشائر الرزنان والسودان[1] وعشائر من طي.

ومنذ البداية واجه المشعشع مشكلة الحاجة إلى السلاح، فأبناء العشائر الذين أخذوا يتقاطرون عليه، كانوا لا يملكون من السلاح ما يكفي لمواجهة عساكر الحكومة. فغالبيتهم من الفقراء المسحوقين الذين يعيشون على النزر القليل مما تدره عليهم تلك البيئة المائية النائية. ولما كان امتلاك السلاح، في تلك المرحلة الثورية الحرجة مسألة حياة أو موت، فقد أقدم أبناء تلك العشائر من المعادي، على بيع جواميسهم وأبقارهم، وما كانوا يملكون من حلال، ليشتروا بأثمانها السيوف وأدوات الحرب. وتشير بعض الروايات أن المشعشع هو الذي أمرهم بذلك. ينقل لنا العزاوي خبر ما قامت به إحدى تلك العشائر فيقول:

وفي هذه الأثناء أمر طائفة المعادي المشهورة باسم "نيس" (وهي قبيلة ترجع بالنسب إلى ربيعة اليمن) أن تبيع ما لديها من بقر وجاموس وتشتري أسلحة حرب. وهؤلاء قد باعوا كل بقرة بسيف وعشرة دراهم، فلما تمت أسلحتهم ساروا إلى ناحية "أبو الشول" وهي قرية من قرى الحويزة فوصلوا إلى هناك يوم الجمعة ٧ رمضان لسنة ٨٤٤هـ[2].

وبعد مدة سار المشعشع على رأس أصحابه نحو الجزائر وهناك انضمت إليه جماعات أخرى من عشائر المنطقة، كان على رأسهم رجل يدعى شحل، فنصبه المشعشع حاكماً في منطقة الجزائر. وبعد أن خاض المشعشع سلسلة من المعارك هناك، دانت له بقية العشائر وانضمت إلى صفوفه، فسار بهم وهاجم، على حين غرة مدينة واسط. فأنزل بعساكر القره قوينلو هناك، هزيمة منكرة مما اضطر حاكم المدينة إلى الهرب. ولكن الحاكم أعاد الكرة بعد أن

---

(١) يقال أن السودان قبيلة عدنانيةتشترك في النخوة مع بني أسد بـ (عامر)
أنظر عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١١٢
وقيل إ م بطن من كندة القحطانية التي ينتمي إليها الصحابي المعروف
المقداد بن الأسود الكندي - تاريخ ميسان وعشائر العمارة ص٣٣٣ (مكتبة اليقظة العربية - بغداد)
(٢) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١١٢

جمع فلول عساكره، وتمكن في هذه المرة من دحر جيش المشعشع. بعد معركة واسط، سار المشعشع إلى الحويزة، وخاض هناك عدداً من المعارك كان بعضها ضد عساكر السلطان عبد الله بن ميرزا إبراهيم حفيد تيمورلنك الذي كان يحكم في شيراز.

المشعشع يحاصر الحويزة

في سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) عزم المشعشع على الاستيلاء على الحويزة، فكتب حاكمها إلى السلطان عبد الله وبسط له تفصيل الوقائع وتحركات المشعشع:

وحينئذ سير السلطان أحد أمراءه نحو الحويزة وكذا وصل في إثره الشيخ أبو الخير فجمع العساكر الكثيرة من شوشتر ودزفول والدورق وهؤلاء أقاموا في الحويزة لمدة شهر واحد وإن السيد محمد أقام في "أبو الشول.

وفي هذه الأثناء قتل الشيخ أبو الخير بعض رؤساء تلك الأنحاء بلا جريرة أو جرم، فنفرته قلوب الأهلين هناك فتفرقوا منه ... أما السيد محمد فأنه لما علم بالخبر أمر بالتأهب وعاجل في الاستيلاء، فأمر النساء أن يلبسن عمائم في رؤوسهن وجعل البقر وراء رجاله فرتبهم على مراتب فسلوا السيوف وتقدموا متوجهين نحو أصحاب الشيخ أبي الخير. وهذا رأى الكثرة فهالته واضطرب منها هو ومن معه فلم يستطيعوا البقاء ففروا من وجه المشعشع وجيشه ... وعند ذلك اطلع السيد محمد على الأمر فعقب أثرهم إلى أن ورد ولاية (مشكوك) فقتل كل من ظفر به منهم وعاد إلى الحويزة وزاول حصارها وصار يحاول أخذها...[1].

أسبان يزحف نحو الحويزة

حينما وافت الأخبار بأن المشعشع يحاصر الحويزة، حشد الأمير أسبان جيشاً كبيراً وسار نحو الجنوب ودخل الحويزة. غير أنه لم يتمكن من البقاء هناك طويلاً فرحل عنها. وبعد رحيله أغار المشعشع على من تخلف من عساكره، وكذلك أغار على سفن أسبان التي سيرها من البصرة نحو واسط، فاستولى

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١١٤

عليها وقتل من كان فيها. وبعد تلك المعارك والانتصارات، انضمت إلى صفوف ثورة المشعشع عشائر عديدة من قبيلة عبادة[1]، وبني حطيط وبني سعد وبني أسد[2].

بعد التحاق تلك العشائر بصفوف الثوار، تحفز المشعشع لانتزاع البصرة من يد حكومة القره قوينلو، وسار فعلاً على رأس رجاله نحو البصرة، ولكنه لم

---

(١) عبادة: من العشاكر القديمة السكنى في أنحاء المنتفك وأنحاء عديدة من العراق وهم من عقيل. غلب منهم جماعة على الموصل وحلب في أواسط القرن الخامس الهجري. قال السمعاني:

عبادة هي من العرب كثير عددهم، نزلوا على جانب الغراف. سمعت أبا إربد الخفاجي في برية السماوة، وقلت أي العرب أكثر فقال، نحن أكثر خيلاً وعبادة أكثر جمالاً وغزية أكثر رجالاً. ثم قال يكون في قبيلتنا خفاجة ستون ألف فارس.

ومن عبادة عشائر تسكن في هور الحمار أو بين سوق الشيوخ والجبايش وينتمي إلى عبادة آل الدبوني الذين كانوا في سنجار ونزحوا إلى الموصل قبل نحو ثلاثة قرون. ومن عبادة عشيرة النصاروة في كربلاء ونخو م (عبادي) وهم أهل بساتين ينتسبون إلى مقاطعة الناصرية قرب فرات المسيب ويقال لهم نصراوي.

أنظر المحامي عباس العزاوي - عشائر العراق، ج٤ص٥٢

(٢) بني أسد: انحدرت عشائر بني أسد إلى أهوار جنوب العراق، بعد أن استولى جيش المماليك على الحلة وقضى على دولتهم في أواخر العهد العباسي. وهم يعدون هناك من أكبر العشائر ويقال لهم محلياً (بني سد) وهم من العشائر العدنانية ونخو م (عامر). استقرت عشائر بني أسد في منطقة الجبايش المعروفة بالجزائر أو البطائح. ومن بني أسد مؤيد الدين محمد بن العلقمي وزير الخليفة المستعصم بالله، آخر خلفاء بني العباس. ومنهم العلامة الحلي والشيخ أحمد بن فهد الحلي أستاذ السيد محمد المشعشع. ومن بني أسد جماعات تنتشر في مختلف أنحاء العراق كبغداد وديالى. ومنهم في كربلاء آل كمونة وفي النجف آل الطريحي وآل الشبيبي وفي ضواحي كربلاء تنتشر عشائر بني أسد حتى فرات الهندية وطويريج.

ويقول العزاوي: إن عشائر الزنكنة والطالبانية يدعون بأ م من بني أسد. وهو لا يستبعد، كون رؤساء تلك العشائر من بني أسد.

المحامي عباس العزاوي - عشائر العراق، ج٤ص٥٢

يتمكن من الاستيلاء عليها. وتشير الأخبار أنه بعد ذلك توجه نحو الفرات الأوسط واستولى على الرماحية[1] وبنى فيها قلعة.

وهكذا استمرت عمليات المشعشع العسكرية واتسعت ساحاتها، حتى شملت أغلب مناطق جنوب العراق. وبالرغم من أن الأمير أسبان ظل يجرد الحملات العسكرية الواحدة تلو الأخرى، فإنه عجز عن دحر ثورة المشعشع التي غيرت ملامح الخارطة السياسية والعسكرية في الجنوب لصالح عرب العراق، الذين تمكنوا بقيادة المشعشع من خلق أوضاع جديدة على الأرض، لم يشهد العراق مثلها منذ سقوط دولة بني أسد في أواخر العهد العباسي.

وفاة الأمير أسبان

في سنة ٨٤٨هـ (١٤٤٤م) جهز الأمير أسبان حملة عسكرية أخرى، وسار على رأسها نحو الحويزة، على أمل القضاء على حكم المشعشع هناك. ولكن نصيب تلك الحملة كان كسابقاتها، فقد قاتل رجال المشعشع جيش أسبان بضراوة، وردوه عن مواقعهم، مما اضطر الأمير أسبان إلى التراجع والانسحاب نحو بغداد.

وبعد ستة أشهر من عودته، أصيب أسبان بمرض أدى إلى وفاته. فخلفه في الحكم ولده الصغير السن الأمير فولاذ، الذي نصبه أمراء التركمان في بغداد على أمل أن يتمكنوا من إدارة الدولة باسمه. ولكن سرعان ما اختلف أولئك الأمراء فيما بينهم، فعمت البلاد موجة جديدة من النزاعات والصراعات العسكرية، التي أضعفت سلطة القره قوينلو. تلك التي حافظ عليها أسبان طيلة سنين حكمه في العراق، والتي دامت نحو اثني عشر سنة.

(١) الرماحية: يبدو أن الرماحية المشار إليها هنا، هي الرماحية القديمة الواقعة بين الديوانية والسماوة. إذ توجد رماحية أخرى تقع بين الشنافية والديوانية والتي قامت في فترة لاحقة، وهذه كانت قاعدة الخزاعل.

وأمام تدهور الأوضاع، وتفكك سلطة القره قوينلو في بغداد، وتعاظم قوة عرب العراق في الجنوب، قرر الأمير جهان شاه تدارك الأمر فجهز في سنة ٨٤٩هـ جيشاً زحف به نحو بغداد. وبعد حصار دام نحو ستة أشهر، تمكن في أوائل سنة ٨٥٠هـ من الاستيلاء على المدينة، والقضاء على حكومة ابن أخيه الأمير فولاذ.

وفي ذلك العام توفي شاه رخ ابن تيمورلنك، الذي كان يرعى حكم الأمير جهان شاه في أذربيجان، وبعد وفاته وجد الأمير جهان شاه نفسه، حاكماً مستقلاً بدون حماية أو وصاية، يحكم إمبراطورية تركمانية يمتد نفوذها إلى بغداد.

المولى علي والثورة

مع اشتداد المعارك وتعدد ساحاتها واتساع رقعة المناطق التي سيطرت عليها ثورة المشعشع، أخذ دور شاب كان في مقتبل العمر، يتعاظم ويبرز في قيادة تلك المعارك، وتسيير أمور الثورة. وقد أخذت نخبة من أشد المقاتلين من أبناء العشائر العربية تلتف حول قيادته. كان ذلك القائد الفتى، هو السيد علي ابن السيد محمد المشعشع.

كان السيد علي كما تشير الأخبار، يتمتع بمؤهلات وقدرة فائقة على قيادة الرجال، وقوة بدنية وشجاعة وإقدام في الحروب. مما أكسبه حب وولاء رجاله، الذين كانوا يخوضون المعارك بقيادته، ويقتحمون صفوف الأعداء بروح فدائية، كانت تدخل الرعب في نفوس أعدائهم. وكان رجال المشعشع يدعونه "مولانا علي" أو "المولى علي"، وذلك حسب تقاليد عرب العراق في مخاطبتهم السادة العلويين. وهكذا التصق لقب "المولى" بالسيد علي وبقية أولاد السيد المشعشع، فأصبحوا يعرفون بالموالي. وبعد أن قامت دولتهم، أصبحت تعرف في التاريخ بدولة الموالي.

وبمرور الأيام أخذت تلك النخبة من المقاتلين الأشداء التي كانت تلتف حول قيادة المولى علي، تأخذ هيأة فرقة عسكرية، أو بمثابة جيش تلك الدولة الناشئة. وهكذا أخذ دور المولى علي قائد ذلك الجيش يتعاظم. فالأخبار تشير بأن المولى علي، أخذ بالتدريج يسيطر على الأمور، ويحل محل والده السيد محمد في قيادة الثورة ورسم مسيرتها. قال صاحب مجالس المؤمنين:

إن المولى علياً في أواخر أيام أبيه استولى على أموره وأخذ منه السلطة وولى زمام الإدارة وصار هو الرئيس صاحب القول الفصل ...[١].

ومما يتوفر لدينا من معلومات يشير إلى أن هيمنة المولى علي على الثورة، لم تكن فقط بسبب شجاعته وبلاءه في الحرب، بل لأنه كان يقود حركة عقائدية متطرفة، كانت تغالي في مسألة تقديس الإمام علي ابن أبي طالب. ويبدو أن الرجال الذين التفوا حوله، كانوا بمثابة العمود الفقري والقوة الأساسية لحركة الغلو تلك. ومما ينقل عن أولئك الغلاة وأمثالهم، اعتقادهم في حلول روح الله في الإمام علي ابن أبي طالب. جاء في كتاب تذكرة المؤمنين:

إن الناس في حضرته (حضرة الإمام علي) أربع طوائف، أولها غالية في حبه وتقول بألوهيته والأخرى تغالي في بغضه ... وثالثة تستخف به عناداً، ورابعة اعتقدت بإمامته ... وبعضهم يقول إن علياً هو الله ... ومنهم الشريفية وهؤلاء يقولون أن الله (حل) بالنبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين فهم آلهة ... ومنهم المغيرية يقولون أن الله حل بعلي وصار هو الله ... وإن قبيلة هزارة (في أفغانستان) وعربان المشعشع على هذا المعتقد ...[٢].

ومهما كان من الأمر، فإن تيار الغلو الذي كان المولى علي على رأسه، حجم ولو لفترة، دور السيد محمد الموسوي، وهيمن على مسيرة الثورة. ومع توالي انتصارات المولى علي وجيشه، أخذت الأساطير الشعبية تحاك حوله وحول رجاله، وأخذت الحكايات الشعبية تنتشر في مجالس عرب العراق تتحدث عن قوتهم الخارقة وبأسهم في ساحات القتال. قال صاحب تحفة الأزهار:

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٣ص١٥١

(٢) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١٥٥

إن المولى علياً ولد سنة ٨٤١هـ واستولى على جميع الأهواز مع شاطئ الفرات إلى الحلة، وكانت جنوده خمسمائة نفر لا يعمل فيهم السلاح ولا غيره لاستعمالهم بعض الأسماء ...[١] .

المولى علي يستولي على وسط العراق

بعد وفاة الأمير أسبان، وبالرغم من استيلاء الأمير جهان شاه على بغداد، لم يتمكن حكام القره قوينلو من إيقاف تدهور سلطتهم في العراق. وذلك بسبب الفتن والمشاحنات التي نشبت بين أمراء القبائل التركمانية هناك. وفي سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٤م) تحرك المولى علي باتجاه الشمال، بهدف طرد عساكر التركمان من وسط العراق. فزحف بجيشه نحو واسط مدينة أهله السادة الموسوية، وبعد محاصرة المدينة هرب منها حاكمها وسار برجاله نحو البصرة، فاستولى عليها المولى علي ونصب بها حاكماً يدعى (دراج).

وبعد الاستيلاء على واسط، زحف المولى علي بجيشه شمالاً نحو الفرات الأوسط واستولى على الحلة والنجف وكربلاء.

وتشير الأخبار بأن المولى علي دخل على رأس جيشه مدينة النجف "وحاصر السادة في حطيم المشهد فأرسلوا يتضرعون إليه فطلب منهم القناديل والسيوف". يقول الغياثي:

وكانت خزانة الحضرة منذ سبعمائة سنة تجمع فيها جميع سيوف الصحابة والسلاطين فكلما مات سلطان أو خليفة بالعراق يحمل سيفه إليها، فأرسلوا إليه مائة وخمسين سيفاً، واثنا عشر قنديلاً ستة منها ذهباً وستة فضة ... فأرسلوا من بغداد عسكراً لمحاربته يتقدمهم دوة بيك، وانضم إليه بسطام حاكم الحلة بأجواد عسكر بغداد ... فالتقى الجمعان وهاجمهم فلم ينج منهم سوى دوة بيك ... فلما كسر العسكر وقتلهم توجه إلى الحلة، فانكسر أهل الحلة وتوجه بسطام شحنة الحلة وجميع أهل الحلة إلى بغداد ... وقد هلك منهم خلق كثير

(١) ن.م. ج٣ص١٤٤

من جراء التزاحم على العبور من شط الحلة ... وبتاريخ خامس الشهر دخل السلطان علي الحلة ونقل أموالها وأموال المشهدين إلى البصرة، وأحرق الحلة وخربها وقتل من بقي فيها من الناس، ومكث فيها ١٨ يوماً، ورحل يوم الأحد ٢٣ ذي القعدة إلى المشهد الغروي (النجف) والحائري (كربلاء) ففتحوا له الأبواب ودخل فأخذ ما تبقى من القناديل والسيوف ... ودخل بالفرس إلى داخل الضريح، وأمر بكسر الصندوق وإحراقه فكسر وأحرق.

وجاء في تحفة الأزهار عن المولى علي:

وكان غالي المذهب سافر إلى العراق، وأحرق الحجر الدائر على قبة الإمام علي ابن أبي طالب (ع) وجعل القبة مطبخاً للطعام إلى مضي سنة أشهر تامة لقوله "إنه رب والرب لا يموت[١].

جيش المولى علي يقترب من بغداد

وفي سنة ٨٦٠هـ (١٤٥٦م) هاجم المولى علي المناطق الشرقية من ولاية بغداد، فاستولى على مهروز وطريق خراسان، ودخل بعقوبة ومكث فيها بضعة أيام، ومنها سار إلى سلمان باك حيث مقام الصحابي سلمان الفارسي، والذي لا يبعد عن بغداد سوى بضعة كيلومترات. ويقال إنه قتل هناك عدداً من مشايخ مقام سلمان الفارسي. ثم أخذ رجاله يطاردون عساكر التركمان الذين فر من نجا منهم إلى بغداد. وفي هذه الوقعة قتل أحد أمراء التركمان يدعى عمر سرغان، الذي طارده فرسان المشعشع هو وشخص آخر يقال له مقصود باشا، وفي أثناء المطاردة والرماح من ورائهم بلغ الاثنان شاطئ النهر، فقفزا بفرسيهما في الماء فغرق عمر سرغان ونجا صاحبه.

وبالرغم من بقاء المولى علي في تلك المناطق لمدة، لم يجرأ عسكر التركمان على الخروج من بغداد لمقابلته. وهو لم يحاول من جانبه، عبور نهر ديالى والتقدم نحو المدينة. وبعد تلك الوقائع، شعر الأمير جهان شاه، بأن بغداد باتت

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١٤٣-١٤٥

في متناول عسكر المشعشعين، وأصبح لزاماً إمدادها بمزيد من العساكر، لإيقاف ذلك الخطر عليها من جهة عرب العراق. ولذلك جهز في سنة ٨٦١هـ جيشاً أرسله إلى بغداد لتعزيز حاميتها. ويقال بأن المولى علياً قرر بعد وصول عساكر جهان شاه، الانسحاب نحو الجنوب والعودة إلى الحويزة.

مقتل المولى علي

بعد عودة المولى علي إلى الحويزة، سار بجيشه نحو مدينة بهبهان وحاصرها، وكما تشير الأخبار، أصاب المولى علياً سهم طائش من ناحية قلعة المدينة فقتله. جاء نقلاً عن الغياثي:

رجع بير بوداق (ابن جهان شاه) إلى شيراز فلم يمض على ذلك ثلاثة أيام إلا جاء الخبر بأن المولى علياً المشعشع قد أخذ كردستان وبهبهان وأكثر توابع شيراز فتوجه نحوه فوجده محاصراً لقلعة بهبهان، وهو مجروح مريض لا يستطيع الركوب. وذلك إنه كان يسبح في بعض الأيام في النهر قرب القلعة تحت شجرة نبق وإذا بشخص نزل من القلعة وهم لا يرونه ... فمد القوس ورماه بسهم فخرق حالبه ونفذ إلى وركه وفر هارباً ... وفي تلك الأثناء طيرت الأخبار إلى بير بوداق بأن المولى علياً مجروح وهو محاصر قلعة بهبهان فتوجه إليه.

فلما تراءى عسكر بير بوداق ورأوا غبار العساكر أخبروا المولى علياً بذلك، فقال قابلوهم، فركبوا عليهم وساروا على بير بوداق فكسروه أول مرة، فوصل بير قلي إليه وأمده بعسكره فكروا على المشعشعين وأجلوهم إلى الحويزة ...[1] .

تراجع جيش المشعشعين عن حصار بهبهان، بعد أن فقد قائده المولى علياً. غير أن ذلك لم يفت في عضد الثورة، التي أصبحت بعد مرور عقدين من الزمن حقيقة راسخة في أهوار ومناطق استقرار عرب العراق، في وادي الرافدين الرسوبي. وكما يبدو فإن السيد محمد المشعشع، تمكن من استعادة مواقعه في القيادة، بعد غياب ولده المولى علي، إذ أمسك بسرعة بزمام الأمور، وقاد المشعشعين في حملة جديدة باتجاه واسط. ذكر العزاوي:

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١٥٠

وبعد وفاة المولى علي وافى الأمير ناصر العبادي إلى بغداد وأخبر بأن عسكر بغداد مع القبائل العربية الكثيرة المجتمعة لنصرته قد تشتت شملهم، ودمرهم السيد محمد المشعشع وعقب أثرهم حتى أوصلهم إلى واسط فانتصر المشعشع المذكور عليهم، وقتل فيهم تقتيلاً فضيعاً ولم ينج منهم أحد فكانت هذه الوقعة دامية جداً. وقد حدثت في أواخر هذه السنة (٨٦١هـ)[١].

عودة الأمير بير بوداق إلى بغداد

في مطلع النصف الثاني للقرن التاسع الهجري، وبعد وفاة الأمير أسبان وشاه رخ ابن تيمورلنك، اتسع المجال أمام الأمير جهان شاه الذي وجد أن الظروف مؤاتية، لمد رقعة ملكه شرقاً وغرباً. وحينما استولى على بغداد ولى عليها في أول الأمر ولده محمدي ميرزا، غير أنه عاد في سنة ٨٥٢هـ فعزله وولى مكانه بير بوداق. ولكن بير بوداق لم يطل البقاء في بغداد، بسبب التحولات السياسية والعسكرية التي شملت المنطقة. والتي أظهرت ضعف خلفاء شاه رخ ابن تيمورلنك. ولذلك خرج بير بوداق في سنة ٨٥٦هـ من بغداد وسار بعساكره واستولى على مدينة قم، ثم افتتح إصفهان وكاشان وبعد ذلك توجه إلى شيراز.

وهكذا وخلال سنوات قليلة تمكنت جيوش جهان شاه من جهة، وولده بير بوداق من جهة أخرى، من فرض سيطرتها على أغلب أقاليم إيران. وقد بلغت طموحات جهان شاه في تلك المرحلة حداً، أنه سار في سنة ٨٦٦هـ شرقاً واستولى على هراة وأقاليم كانت تعد من إمبراطورية تيمورلنك. ولكن تلك الفتوحات حفزت أبا سعيد التيموري، للتحرك من سمرقند لمواجهة جهان شاه، الذي اضطر بعد تقدم عساكر أبي سعيد إلى الانسحاب على عجل من هراة وعقد الصلح مع التيموريين.

وفي تلك الأثناء ثارت الخلافات بين الأمير جهان شاه وابنه بير بوداق، ونتيجة لذلك أمره بالرجوع إلى بغداد. فسار مرغماً إليها ودخلها في ربيع

---

(١) ن.م. ج٣ص١٥٦

الأول سنة ٨٦٦هـ، وأول ما قام به بعد دخوله بغداد "أن طرح على الأهلين ألفاً وثمانمائة تومان، فلم يستطيعوا الأداء، فأهان الناس بالضرب والتعذيب، ونالهم منه ما لم يروه من قسوة وشدة ... ". قال برتولد شبولر:

... بعد موت شاه رخ استطاع ميرزا (جهان شاه) أن يخطو خطوة تلو خطوة في سبيل احتلال عدة أجزاء من جنوب وغرب آسيا وخصوصاً في الفترة ما بين ٨٥٦هـ-٨٦١هـ (١٤٥٢م-١٤٥٦م) ومع أنه اصطدم فيما بعد بمعارضة (أبي سعيد) التيموري إلا أنه احتفظ لنفسه بحكم أذربيجان وميديا وما بين النهرين (بعد أن كسر شوكة حكامها الذين كانوا من نفس قبيلته) وكذلك كرمان وحتى شواطئ عمان في بلاد العرب الشرقية، ولكن ثورات أبنائه عليه عكرت صفو حكمه ...[١].

وفاة السيد محمد المشعشع

بعد مرور قرابة ثلاثة عقود من الزمن على انطلاق ثورة المشعشعين، توفي مفجر تلك الثورة السيد محمد المشعشع، في ٧ شعبان من سنة ٨٦٦هـ (١٤٦١م). ودفن كما تشير بعض الأخبار في قرية "أبو الشول"، التي كانت أول محطات الثورة. وبعد وفاته خلفه ولده المولى محسن.

لقد تعرضت دعوة السيد محمد المشعشع وثورته لحملات واسعة حتى بعد وفاته، فقد انتشرت عنه أساطير وحكايات شعبية كثيرة، وانبرت لدعوته أقلام اتهمته بالغلو وفساد العقيدة والحلول. غير أن بعض الباحثين يرى أن حكام تلك الأيام وخاصة الأمير أسبان، الذي قامت ثورة المشعشع ضد حكومته، كان وراء تلك الحملات، وكان المغذي الرئيسي لها. يقول جاسم شبر:

وقد تفنن أسبند (أسبان) في سياسته حتى استغل الدين والمذهب في تحقيق أغراضه، وهو الذي فتح باب الحوار بين علماء الشيعة والسنة وأصبح أخيراً شيعياً ... ولما بلغته دعوة محمد ابن فلاح، وقيامه بالحرب واتساع حركته في عربستان خاف أسبند على حكمه في العراق وإيران، وخاصة منطقة الجنوب التي تضم عدداً وافراً من الشيعة والذين يؤيدون مثل تلك الثورات التي تسعى لإسقاط حكم المغول -التركمان- الذين عاثوا في الأرض فساداً وخراباً. ولكن أسبند تمكن بأساليبه السياسية أن يؤلب أكبر عدد من منطقة الجنوب ضد محمد بن فلاح، وذلك لحصوله على الفتوى من الشيخ أحمد بن فهد الحلي بقتله واتهامه بفساد العقيدة والحلول والمغالاة، لأن الحرب في العقيدة سلاح قوي يستعمله الحكام في

---

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص١٣٦

قمع أي حركة ضدهم ... ومن جراء ذلك بدأت التقولات على السيد محمد واتهامه بأنواع التهم تبعاً لما رسمته الدولة التركمانية.

وقد استغلت هذه التهم الدولة الصفوية أخيراً وراحت تعمل جاهدة بواسطة المؤلفين والكتاب بالطعن في عقيدة محمد ابن فلاح[1].

أما الغياثي فقد قال عن المشعشع في تاريخه:

كان عالماً بجميع العلوم المعقول والمنقول وكان عارفاً بعلم التصرف وصاحب رياضات ولذلك كان يخبر بما يكون من ظهوره وقيل اعتكف في مسجد الكوفة سنة كاملة بشيء قليل من دقيق الشعير وقد ظهر منه تخليط في ابتداء ظهوره سنة ٨٤٠هـ[2].

وقد جاء ذكره في كتاب مجالس المؤمنين الذي ظهر في عصر لاحق:

وفي العصر التاسع للهجرة كان السيد محمد بن السيد فلاح الموسوي الواسطي من تلامذة الشيخ الأجل أحمد بن فهد الحلي الإمامي ... فقد ذهب إلى تلك الأنحاء (الأهوار) وأقام مع هذه الأقوام وهؤلاء لما كانت عقائدهم صافية ورأوا أنه على الحق اتخذوه حاكماً عليهم وصارت تدعى تلك الجماعة بأتباع المشعشع، رباهم كما أراد ولمدة قصيرة تمكن من أن يتسلطن عليهم فاستولى على جميع ولاية خوزستان، والجزائر وأكثر عرب العراق، فتصرف بها وحكمها. ومن ثم انتشر مذهب الإمامية في بلاد خوزستان وتشعشع أمر التشيع في تلك الديار والأنحاء ولا يزالون حتى الآن مرتبطين بأولاد السيد محمد وأخلافه وهم تحت حكمهم (إلى أيام المجلسي)[3].

ومهما كان من الأمر فإن بعض الباحثين يؤكدون على أن السيد محمد المشعشع لم يخرج عن إطار الفكر الشيعي الصوفي، الذي اقتبسه من أستاذه الشيخ ابن فهد الأسدي. وإن عقيدة الغلو اقتصرت على ولده المولى علي، وعلى من التف حوله. ويستدلون على ذلك، بأن السيد محمد استعاد بعد وفاة المولى علي دوره القيادي في الدعوة والثورة، ثم أنه في السنين التي عاشها بعد ذلك كتب رسائل عديدة تنصل فيها عن عقائد الغلو التي نادى بها ولده المولى علي، وألف كتاباً بهذا الصدد.

---

(١) جاسم حسن شبر - مؤسس الدولة المشعشعية وأعقابه في عربستان وخارجها ص٨٨

(٢) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٣ص١٦١

(٣) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١٦٤

ومن المعروف أن عقيدة الغلو أخذت تخف وتختفي في مناطق المشعشعين، مما يدعم رأي القائلين بأنها كانت انحرافاً مؤقتاً، زال بعد وفاة المولى علي، وبعد أن دخلت الثورة والدولة مرحلة جديدة تميزت بالاستقرار.

انقراض دولة القره قوينلو

بالرغم من اتساع رقعة إمبراطورية جهان شاه، فإنه بعد أن انفرد بالأمر، انغمر في صراعات عسكرية ونزاعات مع أولاده وبقية أمراء دولته، وهذه وضعت كيان إمبراطورية القره قوينلو على طريق الانقراض.

وقد حدثت أشد تلك النزاعات، بينه وبين ولده بير بوداق الذي اتخذ من بغداد مركزاً للتآمر ضد والده. إذ أخذ عدد من أمراء التركمان المناوئين لحكومة جهان شاه يتواردون على بغداد، حيث يلقون الرعاية من حاكمها بير بوداق. وحينما تفاقم الأمر، اضطر جهان شاه للتحرك في سنة ٨٦٨هـ للقضاء على ذلك التجمع، الذي بات يشكل خطراً حقيقياً على حكومته. فجهز جيشاً كبيراً وسار به نحو بغداد. ولكي يبرر عمله هذا أمام الناس الذي دمرت حياتهم تلك الصراعات الداخلية حول السلطة. تظاهر جهان شاه، بأن حملته على بغداد هي من أجل الدفاع عن الدين، وللقضاء على بؤرة الإلحاد والزندقة التي يرعاها ولده بير بوداق. جاء في أحسن التواريخ:

وإنه كان يتابعه في إلحاده جماعة من أهل الزندقة ممن يطعن بدين محمد(ص)، ويرى وجوب ترك الصيام ورفع التكاليف الإسلامية، ومن ثم رأى السلطان إن رسوم الشرع لم تراع وأصابها خلل، فسار إلى بغداد بعظمة وكثرة جنود ...(١).

ويبدو أن بير بوداق اتبع من جانبه سياسة الأرض المحروقة، ليعيق تقدم جيوش والده القادمة من الشرق، فأخذت عساكره تنهب أموال الناس وتخرب المدن والقرى وتحرقها، فساقت الدواب والأحشام وعبرت بها إلى الجانب الغربي من نهر دجلة. وبعد وصوله ضرب جهان شاه الحصار على بغداد

(١)المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١٦٧

لمدة سنة ونصف تقريباً. وبعد مفاوضات تمكنت بعض الوحدات من عساكره دخول بغداد على أساس أن يسمح لبير بوداق بمغادرتها بسلام، ولكن جهان شاه كان قد أصدر أوامره سراً بقتل ولده بير بوداق. فدخل عليه أخوه محمدي ميرزا مع جماعة من رجاله، وضربه بالسيف وأتمه الباقون. وهكذا قتل بير بوداق في سنة ٨٧٠هـ، وبعد قتله انتشرت أعمال السلب والنهب والتخريب في بغداد.

مقتل جهان شاه

بعد أن قضى جهان شاه على حكومة ولده بير بوداق في بغداد، اتجهت أنظاره إلى القضاء على عدوه اللدود حسن الطويل (اوزون حسن) أمير قبائل التركمان (الآق قوينلو) وكان يحكم في ديار بكر. وفي سنة٨٧٢هـ جهز جهان شاه جيشاً كبيراً وسار به نحو ديار بكر. ويقال بأن حسن الطويل لم يشأ مجابهة جيوش جهان شاه الجرارة، فأخذ يهرب أمامها ويتنقل في المناطق الجبلية الوعرة، مما أعجز عساكر جهان شاه عن الظفر به، فاضطر جهان شاه تأجيل الحملة للسنة التالية. ثم أجاز عساكره بالانصراف، ولم يبق معه سوى بضعة آلاف. ويبدو أن حسن الطويل كان يراقب عدوه بدقة ويتربص به الفرص. فاغتنم تلك الفرصة وهاجمه تحت جنح الظلام بثلاثة آلاف فارس وتمكن من قتله، وأسر ولديه محمدي ميرزا وأبا يوسف وكحلهما[١]. وقد قتل في ذلك الهجوم عدد كبير من أمراء القره قوينلو.

وبعد مقتل جهان شاه، سار حسن الطويل إلى بغداد، وكان يحكم فيها بير محمد الطواشي فحاصرها، غير أنه رفع الحصار عنها بعد مدة وتوجه نحو تبريز، لمحاربة حسن علي ميرزا ابن جهان شاه الذي تولى أمر حكومة القره قوينلو. ويقال إن حسن علي ميرزا جهز جيشاً عظيماً وخرج به في سنة

(١) التكحيل: يعني إدخال ميل معدني حار يتلظى كالجمر في العين فتصاب بالعمى.

٨٧٣هـ لمقابلة حسن الطويل، ولكن حينما اقترب الجيشان، هرب عدد من أمراء القره قوينلو وانضموا إلى جانب عسكر حسن الطويل، لأن حسن علي ميرزا كما تشير الأخبار، كان سيئ السيرة منغمساً في الفسق والفجور ولا يحظى بولاء أمراء القره قوينلو. وحال هروبهم قبض حسن علي على أولادهم ونسائهم وقتلهم جميعاً. وحينما نشب القتال بين الطرفين، تمكن رجال حسن الطويل من إنزال هزيمة منكرة بجيش حسن علي ميرزا، الذي هرب من ساحة المعركة ثم لقي حتفه بعد ذلك ويقال بأنه انتحر. وبعد ذلك الانتصار تقدم حسن الطويل واستولى على تبريز. وهكذا دخل حكم القره قوينلو مرحلة الانهيار.

كتب العزاوي عن أوضاع العراق بعد انحسار حكم القره قوينلو الذي دام قرابة ٦٠ عاماً فقال:

فالبلاد تركها هؤلاء خاوية ليس لها رونق حياة ولا أمل انتعاش ... ولولا المدارس وموقوفاتها، لما بقي للعلم أثر وللحضارة علاقة ... والحكومة لم تبال بثقافة ولا تذكر في هذا العهد آثار عمارة لمدارس ولا لغيرها، ولا تعمير مساجد، ولا قيام بأمر من شأنه أن يشوق للعلم أو الترغيب فيه ... .

كل هذا ونرى المؤسسات السياسية قد رسخت والإدارة استقرت نوعاً والعنصر الغالب من أرباب السلطة هم التركمان، شكلوا لهم كياناً على حسابهم ودافعوا عن حوزتهم، فلم يستطع حسن بيك بصولته القاهرة آنئذ أن يستولي على بغداد ... مما يدل على شدة التمسك بالسلطة والقدرة على ضبط الأهلين ودرجة الضغط عليهم ... ومهما يكن من الأمر فالشؤون العراقية مضطربة، والأمة منهوكة القوى، والشعب عاجز والعنصر الحاكم متغلب ... وأكبر سبب أن العناصر الأخرى لم توحد جهودها مع العرب ... فكان أعظم بلاء ...[١] .

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٣ص١٩٩

الفصل الثالث

الحكومة البايندرية (الآق قوينلو)

تنسب القبائل الرعوية التي أسقطت حكم القره قوينلو، إلى "بايندر" أحد أحفاد أوغوز، الذي تنسب إليه قبائل الترك. ولذا عرفت الدولة التي أسسها الشيخ حسن الطويل (اوزون حسن) باسم الدولة البايندرية. ويبدو أن أغنام تلك القبائل الرعوية كان يغلب عليها اللون الأبيض، ولذا عرفت تلك القبائل باسم "الآق قوينلو" وتعني بالتركية بيض الغنم. ويقال إن رايات قبائل الآق قوينلو كان يرسم عليها صورة خروف أبيض.

وكان من مشاهير أمراء الآق قوينلو قره عثمان، الذي برز على مسرح الأحداث وذاع صيته أيام تيمورلنك. قال عنه القراماني:

انه كان شجاعاً وله مع الترك والعرب وقائع، انتمى إلى تيمورلنك، ودله على مسالك الروم (يعني الدولة العثمانية) واستنابه تيمور في بلاده [١].

نستنتج من هذا القول أن قبائل الآق قوينلو التركمانية، شاركت بقيادة قره عثمان في حملة تيمورلنك على الدولة العثمانية، وان رجالها عملوا كأدلاء لعساكر المغول، وذلك لمعرفتهم بمسالك أقاليم الأناضول الوعرة التي اكتسحها تيمورلنك.

وقد عززت تلك العلاقة مع تيمورلنك، مكانة قبائل الآق قوينلو الرعوية وزادتهم قوة وسطوة. وبذلك تمكنوا من إقامة أمارة لهم، حول مدينة الرها

---

(١)المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص٢١٠

(اورفا) وآمد (ديار بكر) وسيوس. وقد قضى قره عثمان حياته في الحروب ضد قبائل القره قوينلو الرعوية وغيرها، وكان في جميع حروبه موالياً لتيمورلنك ومن بعده لولده شاه رخ. ودخل كذلك في حروب ووقائع ضد سلاطين المماليك الذين حكموا في بلاد الشام. وفي أيام الأشرف انتزعت منه مدينة الرها. وكما مر بنا فقد قتل قره عثمان في المعركة التي خاضها ضد اسكندر ابن قره يوسف.

الشيخ حسن الطويل

هو بن علي بك بن قره عثمان، الذي انتصر على القره قوينلو واستولى على عاصمتهم تبريز. وبذلك قامت دولة قبائل الآق قوينلو، التي امتدت سلطتها فشملت أذربيجان وأغلب أقاليم إيران. ولكن مركز السلطان حسن الطويل كفاتح كبير، تعزز بعد أن تصدى في سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) لجيوش أبي سعيد حفيد تيمورلنك وانتصر عليها. وقد تمكن في تلك الحرب من أسر السلطان أبي سعيد ومن ثم إعدامه قرب تبريز. وبعد ذلك النصر المبين، أضاف حسن الطويل إلى أملاك دولته الفتية الجبال وإصفهان وكرمان وفارس.

ولكنه اضطر أن يهادن السلطان (حسين بايقرا) التيموري ويتعامل معه بحكمة، نظراً للأخطار التي واجهته من الغرب والتي كان مصدرها الدولة العثمانية[1].

وبعد أن استقام الأمر لحسن الطويل في إيران، عاد إلى أمر بغداد الذي كان قد ترك محاصرتها قبل مدة. فأقطعها لولده ميرزا مقصود، وكان صغير السن فسار إليها بجيش كبير مع عدد من أمراء الآق قوينلو ودخلها في سنة ٨٧٤هـ بدون حرب.

---

(١) برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي. الطبعة العربية ص١٣٧

السلطان حسن الطويل والدولة العثمانية

بينما كان حسن الطويل منشغلاً في ترتيب أمور حكومته في الأقاليم التي استولى عليها، زحفت الجيوش العثمانية على بلاد القرمان واستولت عليها، فالتجأ حاكمها بير أحمد إلى السلطان حسن الطويل وطلب منه العون. وفي أواخر عام ٨٧٦هـ (١٤٧١م) بعث إليه حسن الطويل بعسكر كثيف، استولى به على توقات وسيواس ومدن أخرى، وبعد ذلك اشتبكت تلك الجيوش بالجيش العثماني، وقامت بين الطرفين معركة شرسة ودامية انتهت بهزيمة منكرة لجيوش الآق قوينلو وحلفائهم. وقد قتل في تلك المعركة الأمير زينل ابن حسن الطويل، الذي كان والي قزوين. وقد أثرت تلك الحرب كثيراً على حسن الطويل، فلم يعد بعدها إلى محاربة العثمانيين.

السلطان خليل

في سنة ٨٨٢هـ توفي السلطان حسن الطويل وتولى بعده ولده السلطان خليل، غير أن الأمر لم يدم للسلطان الجديد أكثر من ثمانية أشهر. فقد ثارت بعد توليه الفتن والاضطرابات الدموية في مختلف أنحاء إمبراطورية الآق قوينلو، ذهب ضحيتها الآلاف من التركمان وغيرهم. وفي أثناء تلك الحروب قتل السلطان خليل أخاه مقصود بك (حاكم بغداد)، وقتل كذلك عدداً آخر من أقاربه ومن أمراء الآق قوينلو. وبعد أن قتل السلطان أخاه مقصود، وجه ولاية بغداد إلى ابن عمه مراد بك ابن جهانكير. غير أن مراد بك لم ترضه إمارة العراق، فأعلن العصيان على السلطان خليل. وبعد سلسلة من الحروب قتل مراد بك وعدد كبير من أعوانه.

السلطان يعقوب

وبينما كانت نيران الحروب تستعر، جاءت الأخبار بأن يعقوب بك ابن حسن الطويل، أعلن هو الآخر العصيان على أخيه السلطان خليل في ديار بكر، وزحف نحو أذربيجان. فسار السلطان لقتاله، والتقى الجيشان عند نهر خوي، ونشبت بينهما معركة أسفرت عن مقتل السلطان خليل وهزيمة جيشه. وهكذا تولى أمر حكومة الآق قوينلو السلطان يعقوب، الذي سار وجلس في دار السلطنة تبريز. وكان ذلك في سنة ٨٨٣هـ.

المولى محسن المشعشع

بعد وفاة السيد محمد المشعشع سنة ٨٦٦هـ تولى ولده المولى محسن، الذي دخلت في عهده دولة المشعشعين مرحلة جديدة من تاريخها، تميزت بالاستقرار النسبي الذي دام سنوات عديدة. وقد تمكن المولى محسن أثناء تلك الفترة، من ترسيخ دعائم دولة المشعشعين الفتية التي استقرت في قلب أهوار جنوب العراق. وحقق الكثير من الإنجازات الإدارية والسياسية والاقتصادية، حتى إن بعض الكتاب وضعه في مكانة أسمى من مكانة والده السيد محمد.

فقد تمكن المولى محسن من بسط سلطة دولة المشعشعين على ولاية الجزائر ومناطق واسعة أخرى في جنوب العراق ووسطه. وأذعن له، كما تشير بعض الأخبار، الكرد البختيارية والفيلية.

أما على الصعيد الإداري والاقتصادي فقد وسع المولى محسن مدينة الحويزة التي اتخذها المشعشعون عاصمة لدولتهم، وشيد فيها البنايات والقلاع، وعمر حولها الضياع. وكانت الحويزة تسكنها عشائر نيس وآل غزي. قال جاسم شبر:

وأول من أحدث البنايات، والضياع في الحويزة السيد محسن المشعشعي المعروف بـ(الملك المحسن)، فبدأ بقلعة الحويزة المعروفة إلى الآن بـ (المدينة)، وأنزل فيها الضباط وجعل حولها أمراء نيس، كما إنه خصص لهم موضعاً فيها، ثم بنى قلعة (المشكوك)، وأنزل قسماً من عساكره وجنوده

وضباطه من نيس وكربلاء وغيرهم. ثم عمر قلعة (الشوس) وجعل قسماً من العساكر والضباط فيها، واستحدث قلعة أخرى على شاطئ الكرخة مقابل (صدر كمالآباد) لأنها كانت في زمن عمارة الأهواز فتملكها، وهي التي سكنها علي وأيوب وهما أكبر أولاده الذكور.

ثم أنشأ قلعة الداير المعروفة بـ (أبو عمر) وجعل فيها قسماً من الحراس والضباط، وأنزل حولها من عساكره (ميامر كربلاء) وهي تعد مع القيصرية من أراضيهم ومساكنهم.

ثم خطط مدينة كبيرة واسعة ليجعل فيها جميع عساكره، وذخائره وأمواله وأسبابه وخزائنه، وهي المدينة المعروفة بـ (المحسنية) الواقعة بين الشطين، وإنما سميت بالمحسنية نسبة إليه[(١)].

وفي عهد المولى محسن ضربت النقود التي كانت تحمل اسمه واسم دولة المشعشعين. وتلك كانت أول مرة تضرب بها النقود باسم حكومة عربية مستقلة في العراق، منذ سقوط الدولة العباسية[(٢)].

وعلى الصعيد العقائدي، فمن المعروف أن أفكار الغلو، أخذت تخف وتتلاشى في عهد المولى محسن. ومن المرجح أن كان للمولى محسن تأثير مهم في ذلك الاتجاه، الذي ظهر بعد مقتل المولى علي في حياة والده السيد محمد. إن ذلك التحول والابتعاد عن أفكار الغلو في عهد المولى محسن، نالته مكانة مختلفة تميزت بالقبول في بعض الأوساط الشيعية. ولذلك فإن عهد المولى محسن، يعد مرحلة تحول مهمة في تاريخ دولة المشعشعين. وبهذا الصدد كتب صاحب مجالس المؤمنين عن المولى محسن:

وكان كريماً ومحباً للفضيلة وإن علماء الشيعة قد كتبوا الكتب والرسائل من الأنحاء الأخرى وبعثوا بها إليه ... ومن هؤلاء المولى شمس الدين محمد الإستربادي كتب حاشية على رسالة إثبات الواجب وقدمها إليه ورسمها باسمه حينما رأى ميراً قد كتب حاشية جديدة قدمها إلى السلطان يلدريم بايزيد العثماني. والملا قدم حاشية إلى السلطان يعقوب البايندري ...[(٣)].

---

(١) جاسم شبر - مؤسس الدولة المشعشعية وأعقابه في عربستان وخارجها ص٤٠-٤١

(٢) يمكن مشاهدة بعض مسكوكات دولة المشعشعين ضمن مجموعة النقود الإسلامية المعروضة في المتحف العراقي في قاعة عبد الله شكر الصراف، ويظهر في وجه المسكوكة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الثاني (ضرب السلطان العادل المحسن ابن المهدي).

(٣) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص١٧٥

وحينما اشتعلت نيران الفتن والصراعات الدموية بين أولاد السلطان حسن الطويل وبقية أمراء الآق قوينلو، زحف المولى محسن في سنة ٨٨٣هـ بجيش المشعشعين شمالاً واستولى على الرماحية. وأتى قبيلة الجحيش[1] ثم آل جوذر[2]، وبعد ذلك تقدم نحو جناجة وهي من قرى الحلة. وبعد أن سيطر على منطقة الفرات الأوسط، زحف المولى محسن باتجاه بغداد واستولى على منطقة ديالى ومضى إلى الخالص وكان ذلك في جمادي الثانية سنة ٨٨٣هـ. ولكنه لم يطل البقاء هناك بل غادر المنطقة بعد فترة قصيرة. وطيلة تلك الفترة لم يخرج إليه حاكم بغداد المدعو كلابي، ولكنه بعد انسحاب المولى محسن والابتعاد عن بغداد، باشر كلابي بقتل الناس، وكان ممن قتلهم الحاج ناصر القباني وأولاده، وذلك بتهمة علاقتهم بالمولى محسن المشعشع. بعد مرور ستة أشهر على تلك الأحداث، جرى عزل حاكم بغداد، ربما لقصوره في التعامل مع المشعشعين وإحجامه عن الخروج للتصدي لجيشهم.

وفاة السلطان يعقوب

في سنة ٨٩٦هـ (١٤٩٠م) توفي السلطان يعقوب ابن حسن الطويل. وبعد وفاته عمت الفوضى مرة أخرى في إمبراطورية الآق قوينلو، وانتشرت اضطرابات واسعة في طول البلاد وعرضها. إذ دخل أمراء الآق قوينلو في صراعات دموية قتل أثنائها أعداد كبيرة من التركمان، بما في ذلك أكابر

---

(١) الجحيش: من عشائر زبيد الكبيرة ومواطنهم متباعدة في عدة أنحاء من العراق ونخو م العامة "جاحش" ومنهم عشائر عديدة في مختلف مناطق الفرات الأوسط في أنحاء الحلة. ومنهم عشائر في أنحاء الموصل، إذ يقيم قسم كبير منهم في أنحاء تلعفر والقامشلي. وتسكن عشائر تنتمي إلى الجحيش في النجف وكربلاء.

المحامي عباس العزاوي - عشائر العراق ج٣ص٤٠

(٢) الجوذر: قبيلة من الجبور (زبيد الأصغر) استوطنوا في أطراف الحلة حتى الديوانية وهم بني عمرو ابن معدى كرب الزبيدي. ونخو م "حمير".

المحامي عباس العزاوي - عشائر العراق ج٣ص٧٧

أمرائهم. وفي أثناء ذلك، انقسم أفراد الأسرة المالكة إلى جماعات متناحرة اختارت كل واحدة منها أحد أمراء البيت المالك والتفت حوله، وأخذت تتقاتل فيما بينها. وهكذا أخذت أركان ذلك الصرح الجبار، الذي كان يرهب الأعداء تتداعى، مع تصاعد نيران الفتنة. وفي تلك الأثناء اتفق بعض أمراء الآق قوينلو، على تولية الأمير بايسنقر ابن السلطان يعقوب بالرغم من صغر سنه.

لكن يبدو أن تلك الخطوة لم تتفق مع مصالح أمراء آخرين، فاتفقوا في سنة ٨٩٧هـ على تولية رستم بيك بن مقصود بن حسن الطويل، وكان مسجوناً في قلعة النجق، فساروا إليها وأطلقوا سراحه، وجهزوا له جيشاً كبيراً سار به نحو تبريز. وقبل أن تشتبك الجيوش، انحاز عساكر الأمير بايسنقر إلى جانب عسكر الأمير رستم بيك، مما اضطر الأمير بايسنقر إلى أن يلجأ لدى صهره شاه شيروان. أما رستم بيك فقد مضى إلى تبريز واستولى عليها.

وفي سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٥م) جاء من جهة الدولة العثمانية أحد أحفاد حسن الطويل يدعى السلطان أحمد، كان قد هرب إلى الدولة العثمانية، وتزوج بنت السلطان العثماني بايزيد الثاني. وقد جاء على رأس جيوش كبيرة من التركمان. وحينما اقتربت جيوشه من أذربيجان، قرر أمراء التركمان عدم مجابهتها، فقبضوا على السلطان رستم وسلموه إلى السلطان أحمد الذي أمر بقتله. وبعد ذلك دخل تبريز وجلس على سرير الحكم.

غير أن حكم السلطان أحمد، هو الآخر لم يدم سوى ستة أشهر، فقد انتفض عليه أمراء الآق قوينلو وقتلوه. وبعد مقتله لم يبق من أمراء البيت المالك من نسل السلطان حسن الطويل سوى ثلاثة أطفال، هم الأمير مراد بن يعقوب الذي كان في شيروان، والأمير الوند وكان في أذربيجان، وأخوه محمدي في مدينة يزد. وحول هؤلاء الأمراء الأطفال التفت قبائل الآق قوينلو، وانقسمت إلى ثلاثة أحزاب متنافسة، كل فريق منها يعلن سلطنة أحد هؤلاء الأطفال، وباسمه يسوق الجيوش ويثير الحروب ضد الآخرين.

وفي سنة ٩٠٥هـ (١٤٩٩م) نشبت الحرب في حدود إصفهان بين جيش محمدي وجيش السلطان مراد، وأسفرت تلك الحرب عن مقتل السلطان محمدي الذي لم تستمر سلطنته سوى سنة واحدة. وبعد مقتل محمدي انقسمت دولة الآق قوينلو بين السلطان مراد الذي كان يحكم في العراق وفارس، والوند بيك الذي كان يحكم في أذربيجان وديار بكر. وهكذا حل القرن السادس عشر الميلادي (العقد الأول من القرن العاشر الهجري) وقد تمزقت إمبراطورية قبائل الآق قوينلو الرعوية وانحلت الأمور في مختلف أقطارها. حيث انتشرت أعمال السلب والنهب، وساد الظلم والعدوان في حياة السكان المدنيين. وتحت تلك الظروف القاسية أخذ السكان في جميع أقاليم التركمان يتطلعون إلى تغيير أوضاعهم.

الفصل الرابع

العراق والدولة الصفوية

في مطلع القرن الثامن الهجري (مطلع القرن الرابع عشر الميلادي)، ظهرت في بلاد الترك الأذريين (أذربيجان) حركة صوفية شيعية، بزعامة رجل دين متصوف يدعى الشيخ صفي الدين، يقال بأنه كان عالماً في الطب والفلسفة والشريعة والمنطق. وقد اشتهر عنه بأنه صاحب كرامات، وانه من السادة الأشراف ينتسب إلى الإمام علي بن أبي طالب عن طريق الحمزة بن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق.

الشيخ صفي الدين

عاش الشيخ صفي الدين في بلاد الترك الفقيرة التي عانى أهلها الكثير في تلك العصور المضطربة، التي شاهدت، ازدهار الحركات الصوفية في المشرق الإسلامي. خاصة في بلاد الترك، حيث انتشرت التكايا والزوايا الصوفية، التي كان يغلب عليها طابع الفكر الشيعي الصوفي، الذي يدعو المسلمين إلى حياة الزهد والالتصاق بفقراء الناس ونصرتهم.

كان الشيخ صفي الدين، كما تشير الأخبار، يجمع بين التصوف والتشيع، الذي تغلب عليه روح التقديس لسيرة الإمام علي بن أبي طالب. ويقال بان فكره الصوفي يتصل بالإمام الغزالي، وينتهي بالإمام علي بن أبي طالب. فقد أقام في أردبيل التي كانت إحدى حواضر التركمان الأذريين، تكية للدراويش

الصوفية، واتخذها مركزاً لدعوته التي نمت وتطورت إلى طريقة صوفية عرفت باسمه. وقد انتشرت دعوته وآمن بها الملايين من الترك. وبهذا الصدد كتب عباس العزاوي:

... كانت من الطرق المعروفة ولها منزلة مهمة في قلوب أتباعها، انتشرت انتشارا هائلا بين قبائل التركمان والبلاد التي يقطنونها مثل أذربيجان وبلاد كثيرة ... . وكان الشيخ صفي في زمانه قد ولى الإرشاد ونال الموقع اللائق في قلوب المريدين وعرف بذلك أيام المغول ولهم الاعتقاد التام به. وكثير منهم ارتد عن إيذاء الخلق والتجاوز على الناس بسببه...[1].

وقد توفي الشيخ صفي الدين سنة ١٣٣٤م في عهد الشيخ حسن الجلايري.

الشيخ صدر الدين

بعد وفاة الشيخ صفي الدين خلفه في المشيخة ولده صدر الدين، الذي وسع التكية وشيد مركزاً كبيراً عرف بدار الإرشاد. وقد عاصر صدر الدين عدد من سلاطين المغول الجلايرية، وكذلك السلطان العثماني بايزيد الأول. وشاهد انهيار الإمبراطورية العثمانية في أعقاب هزيمة السلطان بايزيد الأول أمام جيوش تيمورلنك في معركة سهل أنقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢م.

ويقال إن تيمورلنك قابل ذلك الشيخ الصوفي، واعجب بشخصيته وتأثر بآرائه. وان عدداً من قادته الكبار، انتموا إلى الطريقة الصفوية الشيعية. وان الشيخ صدر الدين توسط لدى تيمورلنك، لإطلاق سراح آلاف الجنود العثمانيين الذين اسروا في معركة سهل أنقرة. وإن تلك الوساطة زادته مكانة ونفوذاً في أقاليم الترك من الدولة العثمانية.

بعد وفاة الشيخ صدر الدين سنة ١٣٩٢م، خلفه ابنه خواجة علي الذي توفي عام ١٤٢٧م وخلفه ولده إبراهيم الذي توفي عام ١٤٤٧م.

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٣، ص٣٣٢

الشيخ جنيد بن إبراهيم

في زمن الشيخ جنيد دخلت الحركة الصفوية مرحلة جديدة من تطورها، فقد اخذ يبث روح التمرد والثورة في أتباعه ومريديه ويحرض الناس للخروج على حكامهم الظالمين. وفي زمانه كانت البلاد تخضع لإمبراطورية القره قوينلو في عهد السلطان جهان شاه بن قره يوسف، وهو السلطان الذي اندلعت في أيامه ثورة المشعشعين في العراق.

لقد ذاعت شهرة الشيخ جنيد وكثر في زمانه أتباع الطريقة الصفوية، حيث اخذ الناس يتقاطرون على دار الإرشاد، من مختلف أقاليم الترك. فأوجس السلطان جهان شاه خيفة من ذلك الشيخ الصوفي الذي كان يحرض الناس على الثورة، فأمر بطرده من أردبيل مع الكثير من أتباعه.

سار الشيخ جنيد إلى حلب ومنها إلى ديار بكر وكانت بيد الشيخ حسن الطويل،زعيم قبائل الآق قوينلو وعدو جهان شاه اللدود. ويبدو أن الشيخ حسن كان آنذاك يخطط للقضاء على حكومة القره قوينلو، فقرب الشيخ جنيد منه واكرم وفادته، وزوجه أخته خديجة بيكم، وزوج ابنته حليمة بيكم بالشيخ حيدر بن الشيخ جنيد. كان أعداء الشيخ جنيد يرمونه بأنه مشعشعي المذهب وانه تارك للجماعة، وذلك لإضعاف مركزه الديني. ولكن بالرغم من ذلك، اخذ نفوذه يتسع في تلك البلاد[١]. وبعد حياة التنقل والتشرد توفي الشيخ جنيد وخلفه في مشيخة الطريقة الصوفية ولده الشيخ حيدر.

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ ص٣٣٤

ذكر عباس العزاوي في اقتباس من كنوز الذهب "...وكان للناس فيه اعتقاد عظيم بسبب أبيه وجده ويأتمرون بأمره ولا يغفلون عن خدمته، ويتبارون على لزوم بابه، ويأتيه الناس من الروم والعجم وسائر البلاد، ويأتيه الفتوح الكثير...".

الشيخ حيدر

تسلم أمور الطريقة بعد وفاة والده. ويبدو أن رجال الطريقة الصوفية وجدوا في تلك الأيام التي انتشرت فيها الاضطرابات وساد الظلم، أن لا سبيل لهم سوى حمل السلاح وسلوك طريق الثورة. فقد كون الشيخ حيدر، جماعة مقاتلة من أتباعه المخلصين ألبسهم كسوة خاصة وعمائم حمراء متميزة، يقال إنها كانت تحوي اثني عشر لفة تيمناً بأئمة الشيعة الإثني عشر. ولذا أطلق الناس عليهم اسم "قزلباش" وتعني بالتركية أصحاب الرؤوس الحمراء، أو العمائم الحمراء. منذ ذلك الحين أصبحت تلك العمائم الحمراء رمزاً للمقاتلين التركمان الشيعة من أتباع الطريقة الصفوية.

وفي سنة ٨٩٤هـ (١٤٨٨م) سار الشيخ حيدر على رأس كتائب القزلباش للاستيلاء على شيروان، وكان ذلك في عهد السلطان يعقوب بن الشيخ حسن الطويل (خال الشاه إسماعيل بن الشيخ حيدر). فجهز السلطان ضده جيشاً كبيراً وبعد معارك شديدة سقط الشيخ حيدر صريعاً في ساحة الوغى.

علي شاه بن الشيخ حيدر

بعد مصرع الشيخ حيدر تقاطرت على أردبيل جموع كبيرة من أتباع الطريقة الصوفية واختاروا للمشيخة ولده الأكبر علي شاه. وحينما ازدادت جموعهم خاف السلطان يعقوب منهم، فأرسل أحد أمرائه الذي ألقى القبض على الشاه علي وعلى كل من أخويه الصغيرين إبراهيم وإسماعيل، وعلى والدتهم حليمة بيكم (ابنة السلطان حسن الطويل) وأبعدهم إلى شيراز، حيث سجنهم هناك في اصطخر، فمكث أولاد الشيخ حيدر في السجن اكثر سنين العقد الأخير من القرن الخامس عشر.

في أثناء ذلك مرت شعوب إمبراطورية الآق قوينلو بظروف قاسية، بسبب النزاعات والصراعات الدموية التي نشبت بين أمراء البيت الحاكم، بعد وفاة

السلطان حسن الطويل سنة ١٤٧٧م. والتي استمرت حتى سقوطها. وفي خضم تلك الصراعات جرى إطلاق سراح أولاد الشيخ حيدر من السجن وكان ذلك أيام سلطنة رستم بيك.

ففي سنة ٨٩٨هـ عاد الأمير بايسنقر من شيروان على رأس جيش وسار إلى أذربيجان بقصد انتزاعها من السلطان رستم. ولدفع ذلك الخطر، أطلق السلطان رستم، أولاد الشيخ حيدر لاشغال شاه شيروان، وهو صهر بايسنقر، في حرب تمنعه من إمداد بايسنقر. لكن بعد القضاء الأمير بايسنقر، تحولت مخاوف السلطان رستم نحو أولاد الشيخ حيدر الصفوي وأتباعهم فأراد الغدر بهم. وحينما شعر علي شاه بذلك سار واخوته إلى أردبيل مركز الحركة الصفوية، فاستقبلهم الناس هناك بحماس كبير. واجتمع حولهم الأنصار والمريدون في تلك البلاد بأعداد أرعبت السلطان رستم . فجهز جيشاً كبيراً وبعث به إلى أردبيل للقضاء على حركتهم.

في أردبيل اندلعت معارك شديدة بين عسكر السلطان ورجال الحركة الصفوية، أسفرت عن مقتل علي شاه بن الشيخ حيدر. وقد نجا من الموت من أولاد الشيخ حيدر ابنه الأصغر إسماعيل. فحمله أصحابه وساروا به إلى كيلان. وهناك استقبلهم حاكمها وأكرم وفادتهم، وامتنع من تسليم إسماعيل وأنصاره إلى السلطان رستم. وهناك روايات تقول بأن إبراهيم نجا هو الآخر من الموت ولكنه قرر الابتعاد والعزلة، فسار نحو بلاد ما وراء النهر.

الشاه إسماعيل بن الشيخ حيدر الصفوي

في خضم تلك الأحداث والمتغيرات التاريخية، آلت مشيخة الطريقة الصفوية وزعامة حركتها الثورية، إلى إسماعيل أصغر أولاد الشيخ حيدر. الذي عانى طويلاً من السجن والتشرد وظلم حكام الآق قوينلو. وبعد فترة وفي سنة ١٤٩٩م، تمكن إسماعيل من العودة إلى أردبيل مركز نفوذ الصفويين. وهناك أخذت جموع الأتباع والمريدين تتقاطر عليه من مختلف أقاليم الترك، فكون

منهم جيشاً قوياً من "القزلباش" قوامه قبائل التركمان السبع : استاجلو، شاملو، روملو، توكلو، ذي قار، أفشار، وقاجار. وأعلن الثورة في أردبيل التي كانت مهد وقاعدة الحركة الصفوية في بلاد الترك. وبعد أن أحكم الثوار قبضتهم على أردبيل، سار بهم في حدود سنة ٩٠٥هـ (١٤٩٩م) نحو شيروان واستولى عليها وقضى على حاكمها شيروان شاه وبذلك انتقم لاخوته ولأبيه الشيخ حيدر[١].

لقد أرعبت تلك الانتصارات التي حققها القزلباش، الوند بك حاكم الأقاليم الشمالية لإمبراطورية الآق قوينلو، وأصبح يخشى بطشهم، فسار إلى صحراء نخجوان وأخذ يستعد هناك للحرب. ولما علم إسماعيل الصفوي بذلك سار إليه على رأس عساكر القزلباش، وحينما التقى الجيشان أنزل القزلباش، بعد معركة عنيفة،هزيمة منكرة بعساكر الوند بك الذي فر من ساحة المعركة إلى أنحاء أذربيجان.وكانت تلك من المعارك الفاصلة التي قررت مصير حكم الآق قوينلو.

مع بداية القرن السادس عشر وفي سنة ٩٠٦هـ (١٥٠٠م)، زحف إسماعيل الصفوي على راس كتائب القزلباش نحو العاصمة تبريز واستولى عليها. وفي تبريز وضع الشاه إسماعيل التاج على رأسه، وأعلن قيام الدولة الصفوية، واتخذ من تبريز عاصمة التركمان الأذريين، عاصمتاً لتلك الدولة الثورية. أما الوند بك فقد هرب إلى بغداد وكان الولي عليها من قبل حكومة الآق قوينلو باريك البايندري، ومنها مضى آلي حلب.

لقد ألهبت انتصارات الشاه إسماعيل ضد حكام الآق قوينلو، مشاعر الناس في مختلف أقاليم الترك، فأخذت جموعهم تتوارد على الشاه إسماعيل وتنخرط بكتائب القزلباش للقضاء على ما تبقى من إمارات تلك الإمبراطورية، التي عانوا من حكامها و أمرائها الأمرين عبر سنين طويلة.

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٣ ص٣٣٦

في تلك الفترة كان السلطان مراد بن يعقوب بن حسن الطويل، وهو ابن خال الشاه إسماعيل، قد اتخذ من همدان قاعدة له، بعد أن سحقت كتائب القزلباش، الحكومات التابعة له في أذربيجان وغيرها من أقاليم التركمان. ومن همدان كان يعد العدة ويتحين الفرص لمهاجمة حكومة الشاه إسماعيل الثورية. غير أن الشاه إسماعيل، لم ينتظر طويلا بل بادر في سنة ١٥٠١م وزحف جنوبا نحو همدان. وبالقرب من همدان اشتبك جيش القزلباش، مع جيش السلطان مراد في معركة فاصلة انتهت بسحق جيش الآق قوينلو وفرار السلطان مراد من ساحة المعركة. مضى السلطان مراد هارباً إلى شيراز، ومن هناك سار إلى بغداد واستقر في الحكم هناك.

أما الشاه إسماعيل فبعد أن انتهى من تصفية فلول الآق قوينلو في ولاية همدان تقدم واستولى على كاشان، وعلى أقاليم أخرى في بلاد فارس كانت تحت سلطة حكام الآق قوينلو. ثم استمرت الحروب بعد ذلك سجالا بين الشاه إسماعيل وبين من تبقى من أمراء وحكام الآق قوينلو.

نهاية آخر سلاطين البايندرية

قضى السلطان مراد في بغداد نحو خمس سنوات. وفي تلك الأثناء تمكنت الثورة الصفوية من بسط سلطتها على جميع أقاليم أذربيجان. وهكذا ظهرت للوجود، في بلاد التركمان، دولة ثورية حضرية، مفعمة بشعور ديني قوي، حلت محل الإمبراطوريات الرعوية، التي تسلطت على تلك الأقاليم لعدة أجيال. وخلال تلك الفترة القصيرة نسبياً، تمكن رجال الثورة وعلى رأسهم الشاه إسماعيل، من فرض شيء من النظام والوحدة التي افتقدتها البلاد لفترة طويلة. وشعر الناس خاصةً التركمان منهم، بأن ذلك الكيان الثوري الجديد قد وضعهم على طريق خلاصهم من عهود التمزق والصراعات الفئوية التي سالت أثنائها انهار من الدماء.

مع تعاظم قوة الثورة الصفوية، ازدادت مخاوف ومحنة من تبقى من حكام وأمراء الآق قوينلو، الذين باتوا يواجهون مصيراً مجهولاً. ذكر العزاوي نقلاً عن عدد من المصادر عن حالة السلطان مراد فقال:

قضى السلطان مراد في العراق نحو خمس سنوات ونصف وهو في حالة اضطراب وتشوش لا يدري مصيره تجاه عدو قاهر استولى على أكثر بلدان إيران وصار لا ينازع في سلطته وقهره ... في حين أننا نرى الشاه إسماعيل ينسق إدارته ويقرر حكمه وينظم شؤونه ويتأهب للقضاء على البقية من حكومة الآق قوينلو ... وفي هذه الحالة يعلو سعده وتنقاد له الأقوام طوعاً أو كرهاً وقد مل الناس الحروب وصاروا في رغبة شديدة إلى الراحة، وإلى حاكم قاهر يقضي على أرباب الفساد والشغب[(١)] .

وفي ذلك الوضع المفعم بالقلق والخوف غادر السلطان مراد، في حدود سنة ٩١٤هـ (١٥٠٨م) بغداد، وسار إلى علاء الدولة حاكم إمارة ذي القدر (دلغادر). وقد زوج علاء الدولة ابنته إلى السلطان مراد، وعقد معه حلفاً ضد عدوهم المشترك الشاه إسماعيل الصفوي. وبعد قيام ذلك الحلف انضم إليه عدد آخر من أمراء الآق قوينلو، فسار علاء الدولة بجيوش الآق قوينلو نحو ديار بكر واستولى على عدد من قلاعها. غير أن الشاه إسماعيل لم يمهله طويلاً بل سار نحوه واشتبك بجيوشه، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة تواصلت لثلاثة أيام، انتهت بتمزيق آخر تجمع كبير لجيوش إمبراطورية الآق قوينلو. وبعد تلك الهزيمة المنكرة، فر السلطان مراد ابن يعقوب مذعوراً من ساحة المعركة والتجأ إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني. وهكذا وبعد تلك المعركة التاريخية، زالت إمبراطورية الآق قوينلو من الوجود، ولم يبق منها إلا حكومة بغداد التي كانت تحت سلطة الوالي باريك.

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين. ج٣ص٣١٢

الفصل الخامس

حكومة السيد محمد كمونة في بغداد

أرعبت انتصارات الشاه إسماعيل الوالي باريك آخر حكام الآق قوينلو في بغداد، فظل في حيرة من أمره، وفي محاولة منه للتمسك بأهداب الحكم في بغداد، قرر استرضاء الشاه إسماعيل، فأرسل إليه أحد أمرائه ومعه تحف وهدايا لإظهار الطاعة والخضوع. ولكن الشاه إسماعيل لم يأبه بتلك الهدايا، وطلب من الرسول أن يقدم إليه باريك بنفسه لتقديم مراسم الطاعة والإذعان.

غير أن باريك أحجم عن الذهاب، وبدلاً من ذلك شرع في إصلاح أسوار وقلاع بغداد استعداداً للطوارئ. وأخذ يكدس المؤن في مخازنه تحسباً لما يخفيه له المستقبل. ويقال بأنه بعث عساكره إلى مختلف الأنحاء، فأخذوا ينهبون ما يجدون لدى السكان من حبوب ومؤن. وهكذا جمع من الحنطة والشعير ما يكفي لإعاشة جيشه لمدة ثلاث سنوات[١].

إن إجراءات باريك تلك، والتي كانت مثالاً للظلم والتعسف والعدوان، فجرت موجة جديدة من الاحتجاجات بين العراقيين الذين تعرضوا للنهب والسلب، وكان على رأس المعارضة التي تحدت إجراءات الحاكم باريك، نقيب أشراف بغداد والنجف السيد محمد كمونة. ولذا أمر باريك بالقبض على نقيب الأشراف وحمله إلى بغداد وحبسه في جب مظلم. وقد حدث ذلك في وقت كان فيه الشاه إسماعيل يستعد للزحف على بغداد، للقضاء على آخر معاقل

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين. ج٣ص٣٩٩

حكومة الآق قوينلو. وفي أواخر صيف سنة ٩١٤هـ (١٥٠٨م)، أمر الشاه إسماعيل أحد كبار قادة القزلباش المدعو لاله حسين بيك، بالزحف على بغداد، وتحرك هو متأخراً عنه.

استولى الرعب والهلع على الوالي باريك البايندري حينما وافته أخبار تحرك القزلباش نحو بغداد. ومع حلول الظلام عبر باريك نهر دجلة وهرب باتجاه حلب. وعند الصباح تجمع سكان بغداد وزحفوا نحو السجن وحرروا منه نقيب الأشراف السيد محمد كمونة، وسلموا إليه مقاليد الأمور. ويقال بأن نقيب الأشراف خرج نحيفاً ضعيفاً من ظلمة الجب الذي كان مسجوناً فيه. وهكذا استلم مقاليد الأمور في بغداد زعيم من عرب العراق، بعد قرابة قرنين ونصف من حكم المغول وحكومات قبائل التركمان الرعوية.

ينتمي السيد محمد كمونة إلى أسرة علوية عريقة من سلالة الحسين بن علي ابن أبي طالب يقال لهم بني كمكمة، وهم أولاد أبي الفوارس طراد بن شكر الأسود ابن جعفر النفيس بن أبي الفتح محمد نقيب الكوفة. وفي زمن نقابة الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ (١٠٤٤م) كانت لهم النيابة في بغداد، وبعد ذلك انتقلت النقابة لهم.

ولم تكد تمضي بضعة أيام على حكومة السيد محمد كمونة حتى بانت طلائع فرق القزلباش على مقربة من بساتين المدينة. وفي يوم الجمعة اعتلى السيد محمد كمونة المنبر، ودعا في خطبة صلاة الجمعة للشاه إسماعيل، وبعد الانتهاء من صلاة الجمعة، خرج سكان بغداد وعلى رأسهم نقيب الأشراف، لملاقاة قائد جيش القزلباش لاله حسين بك. وتشير اكثر المصادر التاريخية، بان لالة حسين بك استقبل السيد محمد كمونة بكل إجلال واحترام، وصاحبه لملاقاة الشاه إسماعيل الذي استقبله استقبالاً مماثلاً، وسار الجميع نحو بغداد.

جاء في تاريخ العزاوي:

وبتاريخ ٢٥ جمادي الثانية سنة ٩١٤هـ (١٥٠٨م) وافى الشاه إسماعيل بغداد وقد فرح به السواد الأعظم وقدموا له الذبائح واحتفلوا بقدومه. نزل بستان بير بوداق فالتجأ الناس إليه، وزاد الشاه في رتبة السيد محمد كمونة ... .

وفي اليوم التالي ذهب لزيارة كربلاء المشرفة وصنع الصندوق المذهب للحضرة ووقف فيه اثنى عشر قنديلاً من ذهب وفرش رواق الحضرة بأنواع المفروشات القيمة ... واعتكف هناك (عند ضريح الإمام الحسين) ليلة ثم رجع في اليوم التالي متوجهاً إلى الحلة، ومنها ذهب إلى النجف الأشرف لزيارة الإمام علي (رضه) وقدم النوادر الفاخرة والهدايا الجزيلة لسكان المدينة وأنعم بإنعامات وافرة، ثم رجع إلى الحلة[١] .

وأثناء زيارته للنجف ولى الشاه إسماعيل حكومة النجف وإدارة بعض ولايات عراق العرب إلى نقيب الأشراف السيد محمد كمونة. وهكذا قامت في النجف حكومة تدير شؤون عرب العراق، تشبه إلى حد كبير حكومة الشريف أحمد بن رميثة بن أبي نمى، التي قامت في الحلة، تلك التي قضى عليها الشيخ حسن الجلايري في سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م). وكما تشير بعض المصادر، فإن السيد محمد كمونة كان مطاعاً في العراق وله جاه واحترام ونفوذ تام[٢].

ويقال إن الشاه إسماعيل أثناء إقامته في النجف وجد أن النهر الذي حفره عطا ملك الجويني من نهر الفرات وأجرى منه الماء إلى النجف، قد اندرس بسبب الإهمال فأمر بتجديد حفره، فحدثت عليه ضياع وبساتين، أرصد الشاه إسماعيل ريعها للمقيمين على خدمة المشهدين الشريفين في النجف وكربلاء، فاشتهر ذلك النهر (بنهر الشاه).

وبعد عودة الشاه إلى بغداد ذهب إلى الكاظمية لزيارة مقام الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد، وقدم هدايا جزيلة للقائمين على خدمة الضريح. ثم توجه بعد ذلك إلى سامراء لزيارة مقام الإمامين علي بن محمد النقي والحسن العسكري.

وفي الكاظمية عين الشاه إسماعيل السيد عطيفة، وهو من ذرية شريف مكة حميضة بن أبي نمى، نقيباً وسادناً للروضة الكاظمية. وأميراً للحج العراقي.

---

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص٣١٦

(٢) الشيخ جعفر محبوبة - ماضي النجف وحاضرها الجزء الأول ص٣٠٨

وأقطعه الأراضي المعروفة في بغداد باسم "العطيفية". وقد سبق وأن أشرنا إلى الأسر الحسنية التي تنتمي إلى السيد عطيفة.

وقبل مغادرته عين الشاه إسماعيل في إدارة بغداد أمير الديوان (خادم بك) وأوصاه بتسيير الأمور والعناية بمراقد الأئمة والعتبات المقدسة.

ومن بغداد سار الشاه إسماعيل نحو الحويزة، لإخضاع حاكمها حينئذ المولى فياض أو "السلطان فياض" كما تسميه بعض المصادر. وحينما اقتربت جيوش الشاه إسماعيل من الحويزة، استعد المولى فياض للمواجهة، فوقعت بين الطرفين معركة دامية انتهت باندحار جيش المشعشعين، واستيلاء الشاه إسماعيل على الحويزة. وفي تلك الأثناء، كان الشاه إسماعيل قد أرسل جيشاً آخر لإخضاع أمير الكرد الفيلية (الملك رستم) وبعد مناوشات ومطاردات في مناطق جبال لورستان، استسلم أمير الفيلية وجاء إلى معسكر الشاه إسماعيل لإعلان خضوعه، فعفا عنه الشاه إسماعيل وأعاده إلى إمارته.

الباب الخامس

الدولة العثمانية

الفصل الأول

الجذور التاريخية

تنسب الدولة العثمانية إلى رئيس قبيلة تركمانية صغيرة اسمه عثمان ابن ارطغرل . وقد نزحت تلك القبيلة من سهوب آسيا الغربية، إلى مناطق آسيا الصغرى، واستقرت في أقصى الشمال الغربي منها. ودخل ارطغرل في خدمة الأمير علاء الدين السلجوقي سلطان قونية، وهي إحدى الإمارات السلجوقية التي قامت بعد تفكك ما كان يعرف بدولة سلاجقة الروم في نهاية القرن الثالث عشر ميلادي سنة ١٢٨٦م.

في عهد المغول تفككت دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وتجزأت إلى عشرة إمارات تركمانية هي: قرة سي، صاروخان، آيدن، تكة، الحميد، القرمان، كرميان، قسطموني، منتشا، وقونية (في أقصى الشمال الغربي).

ويبدو أن ارطغرل اخذ يلعب دوراً مهماً في حروب الأمير علاء الدين، الذي كاد جيشه أن ينهزم أمام هجمات قبائل التتار. ومقابل ذلك اقطع ذلك الأمير السلجوقي بعض الأقاليم إلى ارطغرل. وبعد وفاة ارطغرل، عين الأمير اكبر أبناء ارطغرل عثمان، حاكماً على تلك الأقاليم. وفي سنة ٦٨٨ هجرية منحه لقب (بك)، بعد أن فتح عثمان قلعة مهمة قرب مدينة قونية تعرف بـ(قرة حصار) أي القلعة السوداء. وأجاز له ضرب العملة وذكر اسمه في خطبة الجمعة. وعندما اجتاح تتار القبائل الذهبية أقاليم آسيا الصغرى في سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠م، وتسببوا في القضاء على حكومة السلاجقة في قونية، انتهز

عثمان بك تلك الفرصة فأعلن نفسه بادشاه أي سلطان [1] . واتخذ من مدينة يني شهر عاصمة لمملكته الجديدة.

قامت تلك السلطنة التركمانية في آسيا الصغرى، في أقصى حدود العالم الإسلامي الغربية، المواجهة للإمبراطورية البيزنطية. وذلك بعد اقل من نصف قرن، من سقوط بغداد بيد المغول. وقد شاءت أقدار تلك السلطنة، أن تقوم في عصر تفكك وزوال الإمبراطوريتين، السلجوقية من جهة، والبيزنطية الشرقية من جهة أخرى. ويبدو أن السلطان عثمان احسن استغلال الفرص، وعمل على بناء قوته العسكرية وسط ذلك الفراغ السياسي والعسكري الناجم عن تفكك تلك الإمبراطوريات القديمة. إذ تمكن من استقطاب عدد من أمراء الإقطاع البيزنطيين، وبعض عشائر التركمان، للوقوف في وجه قبائل التتار. ومن جملة من انضم إليه من الروم البيزنطيين كوسة ميخائيل، الذي شارك معه في قتال التتار، وساعد في تشتيت شملهم والاستيلاء على مدينة بورصة. وبعد سقوط بورصة، اسلم حاكمها البيزنطي (افرنيوس) فمنحه السلطان عثمان لقب بك، وصار بعد ذلك من مشاهير القادة العسكريين العثمانيين[2] .

السلطان أورخان والجيش الانكشاري

تشير الروايات العثمانية إلى إن السلطان عثمان أوصى قبل وفاته، أن يتولى الحكم من بعده ابنه الثاني أورخان بدلاً من ابنه البكر علاء الدين، الذي كان يميل إلى الورع والعبادة.

وقد استهل السلطان أورخان عهده، بإعادة تنظيم قواته المسلحة وتوسيعها. ومن ثم أقام لنفسه جيشاً ثابتاً، بعد أن كان يعتمد في حروبه على رجال قبيلته

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١١٨

(٢) نفس المصدر، ص١٢٠

الصغيرة، والمقاتلين المرتزقة من الروم أو من رجال القبائل السلجوقية المحيطة به.

ولكن يبدو أن تنامي أعداد عساكر أورخان من تلك الجماعات صاحبته زيادة مشاكلهم أو بالأحرى أخطارهم. وقد أدرك السلطان أورخان بثاقب بصره الأخطار والعواقب الوخيمة التي قد تنجم عن زيادة نفوذ رجال تلك القبائل السلجوقية التي ظلت تنظر إلى العثمانيين باعتبار أنهم غرباء ودخلاء على ذلك المجتمع السلجوقي القديم. وتشير الروايات بان مشاكل السلطان أورخان ومخاوفه، كانت تزداد مع اتساع جيوشه وحملاته العسكرية، حتى أشار عليه أحد رجال الدولة، وكان يدعى قرة خليل، بتكوين فرقة عسكرية من نوع جديد. يتم إنشاؤها وإعدادها في قصر السلطان.

وتتلخص تلك الخطة بان يقوم عساكر السلطان، بخطف عدد من الأطفال الصبيان من قرى السكان المسيحيين في البلاد المفتوحة من أقاليم إمبراطورية الروم وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم، وتربيتهم تربية إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أبا إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من تحزبهم معهم..[١].

وتقول الروايات بان السلطان أورخان اعجب بتلك الفكرة وتحمس لها و أمر بتنفيذها.

وكان من أهم خواص مشروع قرة خليل، الذي نال إعجاب السلطان، هو قصر عملية الخطف والاستحواذ، على أطفال السكان المسيحيين من بلاد الروم. مما يبعد أي احتمال لظهور مراكز قوى محلية في بلاد الترك يمكن أن تتحدى سلطة العثمانيين.

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٢٣

ثم إن اختطاف أولئك الأطفال في سن مبكرة، يضمن اقتلاع جذورهم من مجتمعاتهم، ويسهل عملية تنشئتهم على الولاء لشخص السلطان ودولته. ويمنح ذلك الولاء صفة الرابطة الأبوية، التي سوف تلازمهم طيلة حياتهم.

هكذا ولد مشروع تأسيس جيش السلطان أورخان الخاص به، والذي عرف فيما بعد باسم الجيش الانكشاري. فأخذ عساكر السلطان يداهمون قرى الفلاحين في المناطق المسيحية، ويجمعون الصبيان، ثم يختارون منهم مجموعة، بين الخامسة والسابعة من العمر أو اكثر بقليل. ويحملون أولئك الصبيان إلى العاصمة لتتم تنشئتهم في البلاط كمماليك خاصين بالسلطان. وبعد سنوات قليلة تكونت في قصر السلطان، فرقة من الفتيان الأشداء الذين لا تجري في عروقهم الدماء التركية، ولكنهم مع ذلك، كانوا يشعرون بأنهم أولاد السلطان وعبيده المخلصين. وكان السلطان شديد الاعتداد بتلك المجموعة من الفتيان المماليك، الذين كانوا يكرسون حياتهم لخدمته، والسهر على راحته أيام السلم، ويسهرون على حراسته والقتال دونه بروح فدائية لا تضاهى في أيام الحرب.

وقد شجعت النتائج الباهرة التي حققها ذلك التشكيل العسكري الجديد السلطان، على زيادة أعدادهم ومضاعفة كتائبهم كحرس سلطاني، يضطلع بمسئولية الدفاع عن مقر القيادة في الحروب. وكان السلطان يصطحبهم أينما ذهب، وفي حملاته العسكرية كانوا يلتفون حوله في ساحة المعركة، كالسوار على المعصم، ويدافعون عن مقره كما تدافع الأسود عن عرينها.

وقد صادف أن جاءت زيارة بن بطوطة لتلك البلاد في عهد السلطان أورخان. فكتب بعد أن حل بمدينة بورصة:

نزلنا في زاوية الفتى أخي شمس الدين يوم عاشوراء. وسلطان برصي (بورصة) هو اختيار الدين أورخان بن السلطان عثمان جوق وهو اكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالاً وبلاداً وعسكراً، له من الحصون ما يقارب المائة حصن يقاتل الكفار ويحاصرهم. والده فتح برصي من أيدي الروم وكان مسجدها كنيسة للنصارى... .

أورخان والطريقة البكتاشية

يقال بأن السلطان أورخان كان يعظم مشايخ الطرق الصوفية الشيعية. وفي عهده ذاعت شهرة درويش صوفي زاهد يدعى الحاج محمد بكتاش ولي، كان قد قدم من أقاليم التركمان التي حكمها المغول. وقد استقر ذلك الدرويش الصوفي في الأناضول في قرية تقع على بعد ١٨٠كلم إلى الجنوب من أنقرة. وقيل عنه إنه سيد علوي من ذرية الإمام علي بن أبي طالب (ع). فذاعت شهرته وأخذت أخبار كراماته تنتشر في طول البلاد وعرضها. واخذ الناس يفدون إليه من مسافات بعيدة للتبرك به والاستماع إلى إرشاده الديني وتعلم طريقته الصوفية.

ولابد أن نشير هنا إلى إن هجرة الشيخ بكتاش ولي، من أقاليم التركمان التي كانت خاضعة لحكومات المغول، جاءت في عصر شاهدت فيه تلك الأقاليم، اضطرابات وحروب مدمرة بين قوى المغول المتناحرة. والتي أصبحت وبالاً على السكان المحليين. وبالرغم من أن المنطقة التي استقر بها الشيخ بكتاش ولي في الأناضول، لم تكن ضمن حكم المغول، إذ إن سلاجقة الروم في آسيا الصغرى كانوا قد انفصلوا عن إمبراطورية المغول منذ سنة ١٣١٧م، فإن قبائل الترك في تلك الأقاليم، كانت تعيش ظروفاً اقتصادية واجتماعية لا تختلف كثيراً عن حالة المعاناة التي كانت تعيشها قبائل التركمان في أذربيجان.

وكما شاهدت أقاليم الترك في أذربيجان انتشار أفكار الطريقة الصوفية الصفوية، فإن الأفكار الصوفية التي جاء بها الشيخ بكتاش ولي من مناطق التركمان تلك، أخذت تنتشر في أقاليم الترك في الأناضول.

ولما سمع السلطان أورخان، أخبار كرامات ذلك الشيخ الصوفي الزاهد، قرر التوجه إليه بنفسه مصطحباً معه رجال فرقته الجديدة ليباركها. وعندما قابل السلطان الشيخ بكتاش ولي، آمن به وأعلن انتمائه هو وفتيانه المماليك إلى طريقته الصوفية. ثم طلب منه أن يبارك أولئك الفتيان ويكون أباهم الروحي.

فقطع الشيخ بكتاش نهاية ردن قبائه، ووضعها على راس أحد أولئك الجنود ثم قدم لهم، كما تشير بعض الروايات، راية حمراء يتوسطها هلال وسيف يرمز لسيف ذي الفقار(١)الذي ارتبط باسم علي بن أبي طالب منذ معركة بدر الكبرى. ثم أطلق الحاج بكتاش عليهم اسم "الجيش الجديد" وتلفظ بالتركية "يني جري" وتكتب "ينكي جري" وقد حرف لفظ تلك الكلمة حينما شاع في البلاد العربية فاصبح يلفظ إنكشاري.

بهذه الطقوس الصوفية البسيطة، أعلن الشيخ بكتاش ولي ولادة مؤسسة عسكرية، أطلق الناس على أفرادها اسم أولاد الحاج بكتاش. ومنذ ذلك الحين ارتبط ذلك الجيش الجديد بالطريقة الصوفية البكتاشية. وقد أمر السلطان بإضافة شريط من الخيوط ليتدلى من قمة لباس الرأس الخاص بالانكشارية، ليكون رمز الانتماء لطريقة الشيخ بكتاش(٢).

والطريقة البكتاشية تجمع بين التصوف والتشيع، ويبدوا أن أفرادها كانوا أكثر غلواً، في مسالة تقديس الإمام علي بن أبي طالب، من بعض الطرق الصوفية الشيعية الأخرى التي انتشرت في أقاليم الترك، إبان الحكم المغولي.

يقول الدكتور علي الوردي عن عقائد البكتاشية:

يبدو أن الطريقة البكتاشية هي مزيج من التصوف والتشيع، فهم يؤمنون بالأئمة الإثني عشر إيماناً شديداً لا يخلو من غلو، والملاحظ إن محور التقديس لديهم هو علي بن أبي طالب فهم يعدونه النموذج الأعلى للإنسان الذي تظهر فيه الحقيقة الإلهية ... ومن أدعيتهم المعروفة دعاء "ناد علياً مظهر العجائب" وهم يدعون به في النوائب اعتقاداً منهم إن علياً سينجدهم كما انجد النبي في معركة أحد، ففي عقيدتهم إن النبي عندما جرح في تلك المعركة قرأ الدعاء بأمر من جبرائيل... (٣).

---

(١) سيف ذو الفقار كان للمنبه ابن الحجاج وقيل كان للعاص ابن منبه، وقد قتله علي ابن أبي طالب يوم موقعة بدر، وأخذ سيفه ذو الفقار. فكان للنبي (ص)، ولكن الرسول وهبه لعلي ابن أبي طالب. أنظر ابن الأثير ج٢ص٥٦

(٢) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.٤٩
(Morrow Quill Paperbacks, New York)

(٣) د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ص٣٦

والمعروف إن السلطان أورخان الذي كان يعظم مشايخ الطرق الصوفية، ثم أصبح من أشد المؤمنين بالطريقة البكتاشية الشيعية.(١)

ولشدة اهتمامه بتنشئة جيشه الجديد على عقائد الطريقة البكتاشية، شيد أورخان لأولئك الصبيان مدرسة خاصة، وأوكل لعدد من المشايخ البكتاشية تعليمهم أصول تلك الطريقة، إضافة إلى ما كانوا يتلقونه من تدريبات عسكرية. وقد أمر بتعيين شيخ بكتاشي لكل وحدة عسكرية، ليكون الأب الروحي لتلك الوحدة. وكان أولئك المشايخ يعيشون مع أفراد تلك الوحدات، ويشرفون على شؤونهم الدينية ويخرجون معهم للحرب.

ومنذ البداية وضع أورخان أهم القواعد التي تقوم عليها حياة الجيش الانكشاري. إذ كان محرماً على أفراده الزواج. فكان على الانكشاري أن يقضي جل حياته من دون عائلة. فعائلته كانت وحدته العسكرية والسلطان ولي أمر تلك العائلة. ولضمان تفرغه لمهنة الحرب، كان محرماً على الانكشاري ممارسة أي مهنة غير عسكرية. حتى في حياة الشيخوخة كان عليه أن يظل معتمداً في معيشته على إنعامات السلطان ومرتبطاً به.(٢)

ولما كان رجال الانكشارية هم مماليك للسلطان، يعيشون في كنفه ويكرسون حياتهم لخدمته، فإن ألقاب الخدمة في بلاط السلطان لازمتهم وأصبحت لها مدلولات مهمة تشير إلى رتبهم العسكرية. فقائد فرقة العسكر الانكشاري كان يدعى "جوربجي باشي" أي رئيس طباخين الشوربة (الحساء). (يوجد في بغداد عائلة معروفة يقال لهم آل "الجوربجي" ويقال أن جدهم الأعلى كان أحد القادة العسكريين في الجيش الانكشاري الذي استولى على بغداد في عهد السلطان مراد الرابع سنة ١٦٣٨م)(٣). وكانت هناك رتب عسكرية أخرى مثل "سقا

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.٤٩

(٢) نفس المصدر ص٤٨

(٣) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٤ ص٢٢١. وكذلك

آغاسي" أي رئيس سقاة الماء و "عشي باشي" و "اودة باشي" أي رئيس خدم غرفة السلطان، وصوباشي وبستانجي وميراخور أي سائس إسطبل. وجميع هذه الأسماء كانت تشير إلى رتب عسكرية مرموقة في الجيش الانكشاري.

ومن ذلك تكونت عند الانكشارية تقاليد خاصة بهم تبدو غريبة للآخرين. فرتبهم العسكرية كانت تشير إلى إن الانكشاري مملوك للسلطان يعيش في كنفه ويأكل في مطبخه. وقدور الطبخ التي يأكل منها في الوحدات العسكرية، هي دليل نعمة ولي أمره أي السلطان. ويبدو أن ذلك كان الأساس في إيجاد تقاليد عسكرية عند الانكشارية، تعد المطبخ مكاناً مقدساً يرتبط بشرفهم العسكري. ففي الحروب كانوا يدافعون عن مطابخ وحداتهم دفاع الجنود عن راياتهم ومراكز قيادتهم. وكانوا يعظمون القدور لأنها رمز نعمة السلطان عليهم، وكان ضياعها أثناء المعركة يعد اكبر إهانة تلحق بأصحابها العار والفضيحة(١). وهذه التقاليد بدورها كونت عندهم تقاليد أخرى. فإذا تمردوا وأرادوا إظهار عدم رضاهم عن رؤسائهم، وضعوا قدورهم مقلوبة أمام مقراتهم العسكرية. وبهذه الصورة قام ذلك الجيش الفريد في تكوينه والغريب في أطواره، وتميز عن غيره من الجيوش بأن أفراده كانوا يجمعون بين الحماس الديني الذي يغلب عليه فكر صوفي لا يخلو من الغلو وولاء شديد للسلطان، باعتباره الأب والسيد المطلق وولي النعمة. إضافة إلى كل ذلك الاعتداد الشديد بمهنة الحرب.

لقد بذل أورخان ومن بعده سلاطين آل عثمان جهوداً جبارة في توسيع الجيش الانكشاري، حتى اصبح العمود الفقري وحصن المؤسسة العسكرية العثمانية، وصار لا يعول إلا عليه في الحروب. ولهذا اصبح العامل الأساسي في توسع الإمبراطورية العثمانية(٢). وفي عهد السلطان أورخان تمكن الجيش العثماني

H. Batatu - The Old Social and the Revolutionary Movements of Iraq

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٢٤

(٢)ن.م. ص١٢٣

من فتح ما تبقى من المقاطعات البيزنطية في آسيا الصغرى. وكانت آخر مدينة بيزنطية سقطت بيديه (ازنيك) التي حاصرها لمدة سنتين وبسقوطها انتهى نفوذ الروم البيزنطيين في البر الآسيوي.

السلطان مراد الأول و"السباه"

توفي أورخان سنة ١٣٦٠م وتولى بعده ابنه مراد الأول. وفي عهد السلطان مراد تم توسيع الجيش الانكشاري بصورة خاصة، والمؤسسة العسكرية العثمانية بصورة عامة، فبالإضافة إلى ذلك الجيش الفريد تم في عهده تأسيس تشكيل عسكري جديد، أطلق عليه اسم "السباه". وينسب تنظيم فرق السباه، إلى الوزير ديمور طاش باشا. وكان أساس ذلك النظام أن يقطع السلطان أحد العسكريين أرضاً زراعية في البلاد المفتوحة، بشرط أن يقيم فيها ويديرها باسم السلطان لقاء حصة معينة من إنتاج تلك الأرض التي ربما يكون فلاحيها من المسلمين أو المسيحيين. فهو يتصرف بها وكأنه المالك الأصلي، ولكن بشرط أن يكون على استعداد دائم للخروج للحرب على رأس مجموعة من المقاتلين الفرسان يتناسب عددهم وحجم إقطاعه الزراعي ومع عدد العاملين فيه. وعلى أن يتكفل هو بنفقاتهم طيلة أيام الحرب. وقد عرف أفراد تلك التشكيلات العسكرية الإقطاعية باسم "سباهي" وتعني الفارس.

وبالنظر لتباين مساحات وواردات تلك الإقطاعيات العسكرية. فقد أطلق على كل إقطاع يتجاوز إيراده السنوي العشرين ألف قرش "زعامت"، والإقطاع الذي لا يتجاوز إيراده ذلك الحد "تيمار"[١]. وكان ذلك الإقطاع وراثياً محصوراً بالذكور. فإذا انقرضت ذرية السباهي من الذكور، تسترجع الدولة الأرض وتقطعها لعسكري آخر بنفس الشروط.

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٣٢

وبتأسيس السباه أكمل السلاطين العثمانيون بناء أركان المؤسسة العسكرية العثمانية، التي اصبح الإقطاع العسكري قاعدتها الاقتصادية. والمصدر الرئيسي الذي يمد الجيوش العثمانية بمادته البشرية [1].

وبالرغم من أن العثمانيين استمروا في الاستفادة من رجال القبائل وقوات الأمراء المحليين، فإن دور أمثال أولئك في الحروب أصبح ثانوياً بعد تأسيس السباه.

والجدير بالملاحظة إن نظام السباه خلق طبقة جديدة من الإقطاعيين العسكريين، الذين ارتبطت حياتهم ومصالحهم بالسلطة المركزية العثمانية. وإن تلك المصلحة المشتركة بين السلطان والإقطاع، ساهمت في إحكام قبضة الدولة على الأقاليم المفتوحة في الإمبراطورية، وفي عسكرة اقتصاد ومجتمعات تلك الأقاليم. ففي خلال جيل واحد تمكن السلطان مراد الأول من توسيع رقعة الإمبراطورية بصورة كبيرة. وكانت فاتحة أعماله الاستيلاء على مدينة (أنقرة) التي كانت عاصمة سلطنة القرمان. ثم استحوذ على مدينة (كوتاهية) من بلاد كرميان في غرب الأناضول، وعلى أقاليم أخرى. أما في أوربا فقد استولى في سنة ١٣٧١م على مدينة أدرنة. ولأهمية تلك المدينة الاستراتيجية انتقل إليها السلطان واتخذها عاصمة جديدة للدولة العثمانية.

إن انتقال العاصمة العثمانية إلى البر الأوربي، جاء تعبيراً عن توجهات السلاطين العثمانيين في التوسع نحو الغرب. وقد ظلت أدرنة عاصمة للدولة إلى أن تم الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. ثم تمكنت الجيوش العثمانية بعد ذلك، من الاستيلاء على جميع المقاطعات المحيطة بالقسطنطينية. وهكذا تم فصلها عن شبه جزيرة البلقان، بينما أصبحت حدود الدولة العثمانية، تتاخم إمارات الصرب والبلغار وألبانية. ثم أخذت الجيوش العثمانية تتوغل في شبه جزيرة البلقان وتمكنت من الاستيلاء على عدد من

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P. ١٥٢

مقاطعات الصرب والبلغار. وفي سنة ١٣٨١م وقعت مدينة صوفيا في قبضة العثمانيين، ثم استولوا على مدينة سلانيك الشهيرة. وعلى هذا الأساس فإن السلطان مراد الأول، يرقى إلى صفوف السلاطين العمالقة في التاريخ العثماني. إذ أن إنجازاته في بناء صرح الإمبراطورية العثمانية لا تضاهيها إلا تلك التي تنسب إلى محمد الفاتح وسليمان القانوني.

مقتل السلطان مراد الأول

كان السلطان مراد قائداً متمرساً في فنون الحرب، وسياسياً محنكاً بعيد النظر. وكان يتعامل بحكمة مع مشاكل مختلف شعوب إمبراطوريته الفتية التي أصبحت تظم شعوباً متباينة من بلاد الشرق والغرب[١]. غير أن حياة ذلك السلطان انتهت بصورة مأساوية.

فبعد أن استولى على بلغاريا، قرر في سنة ١٣٨٩م وهو في أواخر العقد السابع من عمره، أن يقود بنفسه حملة عسكرية يجهز بها على دولة الصرب. وفي كوزفو (Kossovo) واجهته جيوش الصرب في وادي جبلي تلتقي فيه حدود صربيا مع بوسنيا وألبانيا وهرزيكوفينا (Herzegovina). كانت جيوش الصرب في تلك المعركة تتفوق في أعدادها، ولكن جيش السلطان مراد كان يتفوق عليها بمعنوياته العالية وإيمانه بالنصر[٢]. ففي القلب كان يقف رجال الانكشارية أولاد الحاج بكتاش ولي، كسد منيع لا يتزحزح. ولثقته العالية بالنصر أمر السلطان مراد أن لا تخرب المدن والقرى والمزارع. إذ كان على ثقة، بان ثروات تلك البلاد الغنية ستكون مصدراً جديداً لخزينة إمبراطوريته الفتية.

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P. ٥٩

(٢) نفس المصدر ص٥٨

وفي يوم المعركة وقف السلطان في القلب على راس جيشه الانكشاري. وعلى الميمنة وقف ولده البكر الأمير بايزيد، على رأس جيوش الأقاليم الأوربية التابعة للعثمانيين. وفي الميسرة وقف ولده الثاني الأمير يعقوب، على راس فرق التركمان القادمة من البر الآسيوي للإمبراطورية.

وحينما اشتبكت الجيوش، قامت بين الطرفين معركة هائلة شرسة تناثرت فيها الرؤوس وزهقت الكثير من الأرواح. ويقال إن الصرب دافعوا عن بلادهم دفاع الأبطال، ولكن معركة كوزفو انتهت، كما توقع السلطان مراد، بنصر ساحق للجيوش العثمانية. ويروى بأن الأمير يعقوب، أبلى في تلك المعركة بلاء حسناً، وأبدى ضروباً من الشجاعة، نالت إعجاب جنوده وضباطه القادمين من مناطق الأناضول(١). وبعد الانتهاء من تلك المعركة، وبينما كان يمر السلطان بين أكداس الجثث في ساحة المعركة، نهض من بينها رجل صربي عاجل السلطان بطعنة خنجر اخترق صدره(٢).

وبعد إعلان وفاة السلطان مراد جرى تنصيب ولده البكر بايزيد على عرش السلطنة. ولكن المفاجأة التي انفجرت في ذلك الجو المتوتر، كانت إعلان قتل الأمير يعقوب بأمر من السلطان الجديد. وقد نفذ ذلك الأمر نفر من رجال الانكشارية الأشداء، الذين انقضوا على الأمير الشاب وكتموا أنفاسه خنقاً بأيديهم. إذ أن تقاليد الأقوام التركومغولية، تحرم قتل الملوك والأمراء بسفك دمائهم(٣).

بالرغم من أن الروايات العثمانية تؤكد على أن الأمير يعقوب كان شاباً شهماً، شهدت ببسالته ساحات الحروب، وأنه قتل مظلوماً، فإن تلك الروايات قدمت

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.٦١

(٢) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٣٥

(٣) ن.م.، ص١٣٧

لنا تبريرات لذلك الحدث الخطير تبدو غير مقنعة. يقول صاحب تاريخ الدولة العلية العثمانية:

كان يعقوب متصفاً بالشجاعة والإقدام وعلو الهمة، فخيف على المملكة منه، من أن يدعي الملك ... ولذلك قتل باتفاق أمراء الدولة وقواد جيوشها. وادعى مؤرخو الإفرنج أن قتله كان بناء على فتوى شرعية أفتى بها علماء ذلك الزمان منعاً لحصول الفتنة بناء على قوله تعالى: والفتنة أشد من القتل.

وهذا أمر يثير العجب، لأن قتل الناس الأبرياء صبراً تحسباً لفتن موهومة ينافي تعاليم الشريعة الإسلامية. كل ذلك يجرنا للتساؤل عن الأسباب الحقيقية لذلك الحدث اللاإنساني، الذي كان الأول من نوعه في التاريخ العثماني. ولكنه اصبح من بعد ذلك تقليداً اتبعه سلاطين آل عثمان إلى آخر أيامهم. والغريب في الأمر أن تلك الممارسات المخالفة للشريعة الإسلامية لم تتوقف مع تقدم وتطور الدولة العثمانية، بل على العكس، فإن قتل أفراد البيت المالك من أمراء آل عثمان، أخذ مع تعاقب الأجيال أبعاداً وأشكالاً جاوزت كل الحدود والقيم(١). وبلغت حداً يفرض علينا أن نبحث عن الجهات أو القوى التي كانت وراء تلك السياسة.

وهنا لابد أن نتذكر ... إن الانتصار التاريخي الذي حققته الجيوش العثمانية في كوزفو، جاء بعد مرور جيلين على قيام المؤسسة العسكرية المتمثلة بالجيش الانكشاري. ففي عهد مراد، توسعت تشكيلات ذلك الجيش وتم دعمها بفرق السباه. وكانت فترة جيلين كافية لارتقاء ضباطه، إلى أعلى المناصب العسكرية والسياسية. فتكونت منهم في عهد مراد، طبقة كبيرة قوية كانت

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، وكذلك
Lord Kinross - The Ottoman Centuries P. ٦١

كتب محمد فريد بك عن ذلك الحدث فقال:

أن ما حدث بعد مصرع السلطان مراد الرابع كان "باتفاق أمراء الدولة وقواد جيوشها.

أما اللورد كنروز فقد كتب ".. في موقع معركة كوزفو وبعد تعرضه لضغوط مجلس الدولة (The State Council) أصدر بايزيد أول فرمان سلطاني يأمر فيه خنق شريكه في قيادة المعركة وأخيه الأصغر يعقوب بعد أن حضا بشعبية واسعة بين العسكريين الذين قاتلوا تحت قيادته.." .

تحيط بالسلطان الجالس على قمة هرم السلطة. فهو يشعر بالقوة والأمان بوجودهم، وهم يشعرون بالقوة والأمان مادام عرش سيدهم وولي أمرهم قائماً وثابت الدعائم.

ولكن يبدو أن مصرع السلطان مراد المفاجئ في كوزفو، ترك فراغاً اربك قادة الانكشارية، وهول لهم خطر المصير المجهول في حالة حدوث نزاعات على العرش، بين بايزيد الولد البكر، ويعقوب الأمير الشجاع الموهوب، والمحبوب بين أمراء عساكر الترك من البر الآسيوي. إذ قد يلتفون حوله ويحرضونه على القضاء على العسكر الانكشاري، الذي هيمن رجاله على مؤسسات الدولة، بالرغم من أنهم من أصول مسيحية غير تركية. فقرروا في تلك اللحظات الخطيرة، قطع الطريق أمام أي احتمال لقيام فتنة، يمكن أن تستغلها مراكز القوى في أقاليم الأناضول التركية ضدهم، وبذلك يخرج أمر السلطة من أيدهم. فقرروا حسم الموقف لصالحهم بالقضاء على الأمير يعقوب بتلك الطريقة اللاإنسانية.

إن المسألة التي تحاشى الخوض فيها العديد من كتاب التاريخ العثماني، هي إن ما حدث في كوزفو ما كان بالإمكان أن يحدث لولا ظهور مركز جديد للقوة بجانب مؤسسة السلطنة، تمثل بالمؤسسة العسكرية التي أسسها السلطان أورخان، ووسعها السلطان مراد الأول، وقد هيمن عليها الانكشارية.

وانطلاقاً من هذا يمكن اعتبار أحداث كوزفو، فاصلة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية، تشير إلى بداية ضعف مقام سلاطين آل عثمان، وتسلط المؤسسة العسكرية التي هيمن عليها رجال الانكشارية، على مقادير الدولة.

الفصل الثاني

السلطان بايزيد الأول

كان السلطان بايزيد قائداً عسكرياً جسوراً يهوى الحروب، وقد اشتهر عنه أنه كان يتحول من جبهة حرب إلى أخرى بسرعة فائقة أكسبته لقب "يلدرم"، ومعناها بالتركية البرق أو الصاعقة. غير أن بعض المصادر تشير إلى أنه كان يفتقر إلى حنكة وبعد نظر والده السلطان مراد. إذ كان متسرعاً ذا مزاج حاد متقلب.

وقد خاض أيام حكمه حروباً عديدة، بسط أثنائها نفوذ الدولة العثمانية على العديد من أقاليم آسيا وأوربا. ففي سنة ١٣٩١م استولى بايزيد على مدينة آلاشهر، وعلى ما تبقى من إمارات السلاجقة. غير أن أعظم المعارك التي خاضها في أوربا، كانت معركة نيكوبلي في سنة ١٣٩٦م. تلك التي انتصر فيها على حلف عسكري أوربي، قام بتحريض من البابا. اشتركت فيه جيوش دوق بوركونيا في شرق فرنسا، وأمراء بافاريا واستيريا وجماعات عديدة من الألمان وغيرهم، زحفوا شرقاً لنجدة ملك المجر. وقد تمكن بايزيد من سحق وتشتيت شمل تلك الجيوش، وقتل أو اسر غالبية الأمراء الذين قاتلوا ضده. وبعد الانتهاء من تلك المعركة، تحول وضرب الحصار على مدينة القسطنطينية التي كادت تستسلم له لولا اضطراره إلى رفع الحصار والزحف نحو الشرق، لمواجهة غارات المغول التي اشتدت على آسيا الصغرى.

ظهور تيمورلنك

بعد أن استولى تيمورلنك على أقاليم ثلاث إمبراطوريات، ومد سطوته من سور الصين العظيم شرقاً، حتى سهوب روسيا غرباً ونهر الكنج جنوباً. لم تبق على وجه الأرض قوة يمكن أن تتحداه سوى الإمبراطورية العثمانية التي كانت تمتد إلى الغرب من إمبراطوريته.

وفي عام ٨٠٢هـ (١٣٩٩م) تغلغلت جيوش تيمورلنك غرباً واستولت على مدينة سيوس الواقعة في شمال شرق الأناضول. ثم انحرفت جنوباً واستولت على حلب ودمشق، وبغداد التي كان نصيبها الدمار الشامل. وبعد أن احكم تيمورلنك قبضته على تلك المناطق، قرر في سنة ١٤٠٢م الزحف غرباً، والتوغل في أقاليم الإمبراطورية العثمانية، في وقت كان فيه السلطان بايزيد الأول، يحكم الحصار على القسطنطينية. ولكن أنباء الخطر الزاحف عليه من الشرق، اضطرته إلى رفع الحصار والتوجه بجيوشه على عجل نحو آسيا لمجابهة تيمورلنك الذي أسر أحد أولاد بايزيد وقطع رأسه(١).

بايزيد وتيمورلنك

تقابلت الجيوش العثمانية مع جيوش تيمورلنك في سهل أنقرة. وكما تشير بعض المصادر، فإن بايزيد اقترف منذ البداية عدة أخطاء عسكرية. إذ حشد بجانب فرق الانكشارية، عدة جيوش أوربية أهمها فرق الصرب بقيادة صهره الأمير الصربي اسطيفان لازار فيتج، وأعداد كبيرة من المقاتلين التتار بلغت نسبتهم اكثر من ربع قواته(٢).

وبالنظر للتفوق الكبير لجيوش تيمورلنك، خاصة في فرق الفرسان، ارتأى كبار قادة بايزيد العسكريين، إتباع التقاليد العسكرية العثمانية في مثل تلك

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٤٦

(٢) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P. ٧٤

الحالات، وذلك في تبني خطة دفاعية، والانسحاب أمام تيمورلنك من سهل أنقرة إلى مواقع حصينة في الجبال. ثم المكوث فيها ريثما يستريح الجنود بعد مسيرتهم الطويلة،. وليتسنى كذلك للقيادة العسكرية، اختيار المكان والوقت المناسب لخوض المعركة الحاسمة.

غير أن بايزيد المتسرع والعنيد، كان يتفجر غيضاً على تيمورلنك ويتحرق لقتاله، ولذا رفض آراء العسكريين المحترفين، وأمر قواته باتخاذ مواضعها لخوض المعركة هناك. ثم مرت الأيام ولم تظهر طلائع جيش تيمور، كما كان متوقعاً من الشرق، وبعد مدة جاءت أخبار مفاجئة تقول، بان تيمورلنك يزحف بجيوشه العظيمة على العثمانيين من الغرب. بعد أن قام بعملية التفاف كبيرة على جيوش بايزيد من الجنوب. وهكذا اضطر بايزيد دخول المعركة في المكان والزمان الذي فرضه عليه عدوه، الذي قطع عليه خط الرجعة والانسحاب.

معركة سهل أنقرة

انتشرت الجيوش العثمانية استعداداً للقتال حسب التقاليد المتبعة، فاتخذت فرق الانكشارية موقعها في القلب، حيث قيادة السلطان. وعلى الميمنة وقف الأمير الصربي اسطيفان الذي كان على راس الجيش الصربي والجيوش الأوربية الأخرى. وعلى الميسرة وقف ولده البكر الأمير سليمان، على راس الجيوش الآسيوية القادمة من أقاليم الأناضول. وفي المؤخرة وقف ولده الثاني الأمير محمد.

وفي بداية المعركة اقترف بايزيد آخر أخطائه العسكرية، إذ اصدر أمره لفرق التتار بالهجوم والاشتباك، ليكونوا الحاجز الأول الذي يمتص هجمات جيش تيمورلنك. غير أن فرق التتار تقدمت ولم تقاتل، بل انحازت إلى جانب تيمورلنك وانضمت إلى قواته. وهكذا فقد بايزيد في الساعات الأولى من

المعركة ربع جيشه. مما اضطره إلى إصدار أمره إلى ولده سليمان بالهجوم على العدو.

اندفع سليمان على راس فرسان الأناضول، الذين اشتبكوا مع التتار في معركة دموية عنيفة، ولكنهم وبعد قتال مرير، فشلوا في اختراق صفوف عدوهم بالرغم من خسائرهم الكبيرة. ثم رجحت كفة فرسان التتار وتراجع فرسان سليمان بصورة غير منتظمة، بعد أن تركوا في ساحة المعركة أكثر من خمسة عشر ألف قتيل(١).

وبينما كان فرسان المغول يلاحقون فلول العثمانيين، باشر تيمورلنك في هجومه الكبير الذي وجهه في بداية الأمر على ميمنة بايزيد. فاندفعت جموعه باتجاه جيوش الصرب، الذين قاتلوا وقاوموا بعناد شديد، ولكن مقاومتهم ما لبثت أن انهارت فانكفأوا على أعقابهم وولوا الأدبار، بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. فلم يبق أمام تيمورلنك بعد ذلك، إلا المرحلة الأخيرة والحاسمة من المعركة.

حينئذ اندفعت جموعه نحو القلب، حيث قيادة السلطان ومن حوله فرق الانكشارية. وكما تشير الأخبار، فإن بايزيد قاتل بشجاعة منقطعة النظير، وقاتل من حوله رجال الانكشارية الأشداء، بروح فدائية عالية. وكانوا يموتون بأعداد كبيرة، دون قائدهم وسلطانهم الجسور. وهذا أقصى ما كان بإمكانهم عمله، وهم محاطون بجموع التتار، التي كانت تفوقهم في العدة والعدد، ولا تقل عنهم في مهارات القتال.

ظل بايزيد وإنكشاريته يقاتلون بعناد إلى آخر النهار، ويتراجعون ببطء نحو تل صغير. وبعد أن حل الظلام لم يجد بايزيد حوله، سوى أكداس أشلاء رجاله البواسل، فامتطى صهوة جواده، وحاول الفرار من بين صفوف أعدائه. ولكنه لم يفلح فوقع أسيراً هو وولده موسى، بيد رجال تيمورلنك. أما بقية

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P. ٧٤

أولاده، سليمان ومحمد وعيسى فقد تمكنوا من الفرار واختفى اثر ولده الخامس مصطفى.

ومما يذكر أن تيمورلنك عامل أسيره السلطان في البداية بما يليق بمقامه، ولكن بايزيد حاول الهرب من أسره اكثر من مرة. ولذا أمر تيمورلنك بوضعه في قفص حديدي، وحبسه كما تحبس الحيوانات الكاسرة. ويقال أن التتار كانوا يحملون ذلك القفص الحديدي على ظهر حصانين ويسيرون به أينما سارت الجيوش. وفي تلك الأثناء، كانت جموع كبيرة من أبناء الشعوب التي حكمها العثمانيون، تخرج للتفرج على ذلك القفص الحديدي، وبداخله السلطان العثماني مقيداً بسلاسل تيمورلنك. وبمرور الأيام كانت معاناة بايزيد تزداد حتى تجاوزت حدود تحمله، فأخذت تنتابه نوبات شديدة من الكآبة. وفي النهاية انهارت قواه العقلية والبدنية ثم أسلم الروح، بعد أن قضى ثمانية أشهر في الأسر. وكان عمره عندئذ ٤٤ سنة.

- -

الفصل الثالث

تفكك الإمبراطورية العثمانية

بعد أن سحق تيمورلنك الجيوش العثمانية في معركة سهل أنقرة، استولى بسهولة على ما تبقى من آسيا الصغرى. ودخل جنوده بورصة عاصمة العثمانيين القديمة، واستباحوها ثم أشعلوا فيها النيران فاحترق ما تبقى منها.

في تلك الأثناء عرض إمبراطور الروم استعداده لتقديم الطاعة والخضوع ودفع الجزية اللازمة، ولكن تيمورلنك لم يهتم بذلك بل اصدر أمره بتجهيز السفن لعبور جيوشه إلى الجانب الأوربي. فعم الهلع والخوف من تقدم تيمورلنك لفتح القسطنطينية. غير أنه لم يتوجه إليها بل اكتفى بإعادة الإمارات الأوربية التي كانت خاضعة للعثمانيين إلى أمرائها المحليين. وبذلك استعاد الصرب والفلاخ والبلغار استقلال بلادنهم. وعلى الجانب الآسيوي، بعث تيمورلنك من جديد استقلال إمارات الأناضول القديمة، فأعاد إلى أمراء قسطموني وايدن وصاروخان وكريمان وقرمان وآخرين ما فقدوه من أقاليم[١]. وهكذا عمل على تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية وإزالتها من الوجود.

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٤٧

أولاد السلطان بايزيد الأول

أما أولاد بايزيد فقد سمح لهم تيمورلنك بالتصرف ببعض المناطق كأمراء محليين، بعد أن قدموا له الطاعة واقروا بتبعيتهم لسلطانه . وبعد أن استقر كل واحد منهم في جهة، أخذ يسعى من جانبه إلى الانفراد بالحكم دون اخوته. ولذلك حبكوا فيما بينهم الفتن والمؤامرات، وحولوا مناطقهم إلى ساحات حروب أريقت فيها الدماء لأكثر من عشرة سنين. في تلك الأثناء كان كل واحد منهم يستنجد بتيمورلنك ضد أخوته. وكان تيمورلنك من جهته، يستقبل وفودهم، ويقدم العون لهم، ويزيد تلك الحروب اشتعالاً إمعاناً في إضعافهم (١) .

وبعد وفاة بايزيد بفترة قصيرة، وبعد أن بدا وكان إمبراطورية آل عثمان قد تمزقت وزالت من الوجود، قرر تيمورلنك سلوك طريق العودة نحو الشرق. وفي هذه المرة كان ينوي التوجه لغزو الصين، غير أنه لم يتمكن من تحقيق تلك الأمنية، إذ وافته المنية وهو في طريقه إليها سنة ١٤٠٥م. وبعد وفاته تفككت إمبراطوريته العظيمة، وأخذت تسير حثيثاً نحو الزوال.

في غمرة صراعات أولاد بايزيد تمكن سليمان الذي فر من معركة سهل أنقرة، عبور البحر والوصول إلى مدينة أدرنة. وهناك التفت حوله جماعات عسكرية من فلول العسكر العثماني، ونصبوه سلطاناً هناك. ولكي يحافظ على كيانه الجديد، عقد سليمان حلفاً مع ملك الروم، تنازل له فيه عن مدينة سلانيك وعن سواحل البحر الأسود.

أما عيسى. فبعد وفاة والده بايزيد ورحيل تيمورلنك نحو الشرق، ظهر في بورصة، فاجتمعت حوله فلول العسكر العثماني هناك ونصبوه سلطان آل عثمان. أما الأمير محمد فقد ظهر في جبال الأناضول، ومعه جماعات كبيرة من فلول الجيش الانكشاري الذي تشتت بعد معركة سهل أنقرة. وبعد ظهوره أخذت جماعات أخرى من الانكشارية تلتف حوله، فتمكن بفضلهم من

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص١٤٨

السيطرة على مدينتي توقات واماسيا. ومن هناك سار على راس جيشه، لمحاربة أخيه عيسى الذي سبق وان أعلن نفسه سلطان آل عثمان في بورصة. وبعد سلسلة من المعارك، انتصر جيش محمد ودخل بورصة وقتل أخاه السلطان عيسى.

لقد قويت شوكة محمد، بعد الاستيلاء على بورصة عاصمة العثمانيين وقتل أخيه عيسى، ثم تعزز مركزه اكثر، بعد أن تمكن من فك أسر أخيه موسى. فجهز له جيشاً كبيراً وأرسله لقتال أخيهم الأكبر سليمان الذي نصبه الجنود هو الآخر سلطاناً في أدرنة. وبعد سلسلة من المعارك، وبالرغم من اندحار موسى في أول الأمر، فقد تمكن في عام ١٤١٠م من إنزال الهزيمة بجيش سليمان وقتله خارج أسوار مدينة أدرنة.

ولكن لما استقام الأمر لموسى في أدرنة بعد القضاء على أخيه سليمان، طمع بالملك لنفسه، فشق عصا الطاعة على أخيه محمد وأعلن استقلاله في الأقاليم العثمانية على الجانب الأوربي، ثم زحف على القسطنطينية وحاصرها.

انتهز محمد تلك الفرصة، فعقد حلفاً مع ملك القسطنطينية البيزنطي، ومع أمير الصرب. ودخل في الحرب ضد أخيه موسى، فاستمرت الحرب سجالاً بين الأخوين. غير إن محمد تمكن بمعونة حلفائه الأوربيين، من نشر الدسائس في صفوف جيش موسى فتخلى عنه عدد كبير من قادة جيشه. وبفضل تلك الدسائس، وبعد عدة معارك وقع موسى أسيراً بيد جيش محمد. فأمر بقتله وذلك في عام ١٤١٣م. وهكذا قضى أولاد بايزيد أحدهم على الآخر ولم يبق منهم سوى الأمير محمد الذي انفرد بالحكم.

السلطان محمد الأول

جرى تنصيب الأمير محمد سلطاناً على العرش العثماني باسم السلطان محمد الأول[1] ولم يكن قد ناهز الخامسة والثلاثين من العمر. وحينما نتابع تطور الأحداث منذ بداية فترة انهيار الدولة على يد تيمورلنك، نجد أن انتصارات محمد التي أوصلته إلى عرش عثماني جديد جاءت تتويجاً لجهود غير عادية بذلها العسكر الانكشاري الذي تجمع حوله وساعده في القضاء على أخوته.

فعندما هرب محمد من معركة أنقرة كان شابا يافعاً لم يتجاوز من العمر اثنين وعشرين عاماً. وبعد فترة ظهر في جبال الأناضول وقد تجمعت حوله جماعات كبيرة من فلول الجيش الانكشاري. أولئك الرجال الذين مزق تيمورلنك فرقهم العسكرية، وهد كيان الإمبراطورية التي شيدوها بسواعدهم. وهكذا وجد أولئك الرجال أن لا خيار لهم سوى سلوك طريق واحد، هو طريق بعث الدولة من جديد. فهم كعسكريين محترفين وكمماليك، لم تكن لهم جذور اجتماعية يرجعون إليها سوى جيش السلطان، الذي كان ملجأهم وعشيرتهم. ولذا فإن بعث الدولة التي عاشوا في كنفها، كانت بالنسبة لهم مسألة موت أو حياة. وعلى هذا الأساس، لم رجال الانكشارية صفوفهم المبعثرة في جبال الأناضول الحصينة، وأعادوا تنظيم تشكيلاتهم لاستعادة ما فقدوه. ولما كان محمد اصغر أولاد بايزيد بينهم، التفوا حوله واختاروه ليكون الرمز المناسب لتحقيق تلك الأهداف السياسية والعسكرية.

وبالرغم من أن بقية أولاد بايزيد حظوا بدعم العديد من الجماعات العثمانية، ولكن أحداث التاريخ أثبتت أن الخصوصيات الفريدة التي تميز بها جيش

---

(١) اعتبر المؤرخون العثمانيون السلطان محمد الأول خامس سلاطين آل عثمان وتجاهلوا سلطنة أخويه سليمان في أدرنة وعيسى في بورصة، وكأ م أرادوا بذلك إلغاء أو إنكار فترة الإ يار من تاريخ الدولة العثمانية.

الانكشارية، كانت أقوى العوامل التي مكنتهم من التفوق على تلك الجماعات المنافسة لهم.

وهكذا كان اعتلاء السلطان محمد عرش آل عثمان نتيجة لجهودهم، التي كانت ترمي إلى بعث السلطنة والانطلاق لاستعادة مركزهم ودورهم العسكري في الإمبراطورية الجديدة. كتب أحد الباحثين في التاريخ العثماني عن تنصيب السلطان محمد الأول فقال:

لقد كان مدعوماً بقوة الانكشارية الذين اصبحوا يفرضون نفوذهم في الشؤون الداخلية للدولة. ولم تقف ظاهرة تدخلهم عند حد بل أخذت تتكرر منذ ذلك العهد في أحداث التاريخ العثماني.[١]

الانكشارية وبعث الإمبراطورية الجديدة

مثّل انفراد محمد الأول بالحكم، انفراد وهيمنة العسكر الانكشاري على مقدرات الدولة الجديدة. فبعد أن اعتلى السلطان محمد عرش آل عثمان، تركزت جميع الجهود لاستعادة الأقاليم التي انسلخت عن الإمبراطورية العثمانية في آسيا الصغرى. ولذا قضى السلطان محمد فترة حكمه التي دامت ثمانية أعوام في حروب متواصلة لتحقيق ذلك الهدف. وطيلة تلك الفترة حافظ على علاقته الحميمة مع حليفه ملك الروم في القسطنطينية، الذي ساعده في القضاء على حكومة أخيه موسى في القسم الأوربي من الإمبراطورية.[٢]

ولكن يبدو أن تسلط العسكر الانكشاري على حكومة السلطان محمد، واجه ردود فعل عنيفة في مختلف أنحاء الإمبراطورية. فقد اندلعت ثورة شعبية، سرعان ما انتشرت في مناطق عديدة من أقاليم الأناضول. وكان زعيم تلك الثورة عالم ديني مشهور يدعى بدر الدين، الذي كان يشغل وظيفة قاضي عسكر في جيش حكومة موسى. كان قد اعتقل وفرضت عليه الإقامة الجبرية

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.٧٨

(٢) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٤٩

بعد القضاء على تلك الحكومة. غير أنه هرب واخذ يحث الناس على الثورة. وقد انضم إلى دعوته رجل دين آخر يدعى "بير قليجة مصطفى" أي صاحب العلم. وقد انتشرت دعوته "وتبعه خلق كثير من المسلمين والمسيحيين وغيرهم لأنه كان يعتبر جميع الأديان على السواء ولا يفرق بينها بل كان عنده جميع الناس أخوة مهما اختلفت مذاهبهم وأديانهم ..." [١]. وللقضاء على تلك الثورة جهز السلطان جيشاً كبيراً بقيادة سيسمان ابن أمير البلغار، وحينما اشتبك ذلك الجيش بجيش الثورة الذي كان بقيادة بير قليجة مصطفى انتصر الثوار على جيش السلطان، وتمكنوا من القضاء على قائده سيسمان.

أمام ذلك الخطر المتفاقم، حشد السلطان ما بحوزته من جيوش وأرسلها بقيادة وزيره الأول المدعو بايزيد. فاشتبك ذلك الجيش الجرار بجيش بير قليجة في موقع بالقرب من مدينة إزمير، وتمكن من الانتصار عليه وقتل زعيم الثورة مع أعداد كبيرة من أتباعه. ثم تمكنت قوات السلطان من مطاردة زعيم الثورة الآخر بدر الدين، والقبض عليه بعد مقاومة شديدة ومن ثم شنقه "بناء على فتوى من قبل رجال الدين" [٢]. وكان ذلك سنة ١٤١٧م.

بعد القضاء على تلك الثورة الشعبية، باشر رجال الحكم الجديد في إعادة تنظيم مؤسسات الدولة، من اجل إنجاز مشروع إعادة بناء الإمبراطورية. غير أن الموت داهم السلطان سنة ١٤٢١م، قبل الانتهاء من تلك المهمة وكان عمره ٤٣ سنة.

السلطان مراد الثاني ١٤٢١م - ١٤٥١م

بعد وفاة السلطان محمد اعتلى العرش ولده مراد وكان عمره ١٨ سنة. ولتتمكن الدولة من إكمال مشروعها الإمبراطوري، تم عقد هدنة مع ملك

---

(١) ن م، ص١٥٠

(٢) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٥١

المجر أمدها خمس سنوات. وفي أثناء ذلك استولت الجيوش العثمانية مرة ثانية، على ايدن وصاروخان ومنتشا وغيرها من الإمارات التي منحها تيمورلنك استقلالها. ثم ضمت بلاد القرمان بعد أن قتل أميرها. وفي سنة ١٤٢٨م استولت الجيوش العثمانية على إمارة كرميان، وبذلك أكملت الجيوش العثمانية سيطرتها مرة أخرى، على أراضي الإمبراطورية السابقة في آسيا الصغرى (تركيا حالياً).

وبعد أن تمكنت الجيوش العثمانية من إعادة هيمنتها على شعوب آسيا الصغرى، توجهت الأنظار نحو المناطق الأوربية. وفي أوربا دخلت الجيوش العثمانية حرباً شديدة ضد المجر وتمكنت أثنائها من الاستيلاء على مدينة كوزوفو جنوب شرقي مدينة بلغراد.

وفي سنة ١٤٣٠م تم الاستيلاء على مدينة سلانيك، وبعدها خضعت للحكم العثماني الجديد بلاد الفلاخ والارنؤد أو الأرناوط (ألبانيا حالياً).

ومن الجدير بالملاحظة، إن عهد مراد الثاني شهد إدخال المدافع لأول مرة في حروب الجيش العثماني [١].

ولكن بالرغم من كل تلك الحروب التي خاضتها الجيوش العثمانية في عهد السلطان مراد الثاني، فإن المعلومات التاريخية تشير إلى، أن مراد الثاني كان سلطاناً متنوراً يحب البساطة ويهتم برفاه الناس وبالسلام. ولذا كسب حب الكثير من أبناء الشعب طيلة الثلاثين عاماً من حكمه. ويقال إنه كان يفضل العزلة والخلوة وهدوء البال، ولذا فقد اعتزل العرش مرتين لصالح ولده الشاب الأمير محمد. غير أن الظروف في كلتا الحالتين أجبرته على العودة لتسلم زمام السلطة.

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٥٨ . وكذلك
Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.٨٣

ففي سنة ١٤٤٤م، عقد معاهدة هدنة مع المجر لمدة عشرة أعوام، وبعدها قرر الاعتزال. ولكن حكام المجر نكثوا العهد، فعاد السلطان مراد وحاربهم وانتصر عليهم. وبعد ذلك الانتصار، قرر مراد العودة إلى عزلته وسلم الزمام لابنه محمد الذي لقب السلطان محمد الثاني. ولكن عسكر الانكشارية ازدروا بأوامر سلطانهم الشاب، وأعلنوا العصيان عليه، وسيطروا على العاصمة ونهبوها. وأمام ذلك الحدث الخطير الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الدولة العثمانية، اضطر مراد إلى العودة مرة أخرى لإخماد فتنة الانكشارية. ولكي يشغلهم، قرر في أوائل سنة ١٤٤٥م الإغارة على بلاد اليونان.

تميز عهد السلطان مراد الثاني بإجراءات تم بموجبها، وضع الأسس اللازمة لقيام إدارة مركزية ذات طابع عسكري. قادرة على إدارة الإمبراطورية العثمانية الجديدة بصورة فعالة.

ولتعزيز القدرات العسكرية للدولة، جرى توسيع فرق الانكشارية، عن طريق إلحاق آلاف الشباب ذوي الأصول المسيحية الأوربية، وكان غالبيتهم من الصرب. ويبدو أن المبالغة في زيادة أعداد أمثال أولئك الشباب، أثار مخاوف وغضب الجيل القديم من الانكشارية، الذين اعتبروا ذلك الإجراء بدعة غير مرغوب فيها، وهذا اضطرهم إلى الاحتجاج والتحرك للحد من ذلك التوسع.

وفي ذلك العهد جرى تحول أعداد كبيرة من العسكريين وغالبيتهم من الانكشارية، إلى مراكز جديدة، إذ أنيطت بهم مسئولية إدارة مختلف مرافق الدولة الإدارية. وقد ساعدت تلك الخطوات في بناء إدارة مركزية متينة، كانت تفتقر إليها إدارة الإمبراطورية في عهد بايزيد الأول. ولكنها في نفس الوقت، زادت من نفوذ وسيطرة رجال الانكشارية على بقية مرافق الدولة.

الفصل الرابع

محمد الثاني وفتح القسطنطينية

في سنة ١٤٥١م توفي السلطان مراد الثاني، فاعتلى العرش بعده ولده السلطان محمد الثاني، وقد دشن السلطان الجديد عهده، بقتل أخيه الرضيع "احمد". إذ بينما كانت أرملة أبيه تقف بين يديه لتبارك له اعتلائه العرش دخل رجال الانكشارية غرفة طفلها الرضيع احمد وانتزعوه من مهده ثم أغرقوه في بركة الحمام ولم يتركوه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة [١].

وفي عهد السلطان محمد الثاني، بدأت الاستعدادات لمرحلة جديدة من الفتوحات العسكرية في أوربا. وكان طبيعياً أن يكون الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين هدف تلك المرحلة، ولتحقيق ذلك الحلم الكبير الذي ظل يراود خيال الأجيال، كان لابد من تحقيق مرحلة جديدة من التعديلات في إدارة مؤسسات الدولة. تلك التعديلات التي باشر بها رجال الدولة العثمانية منذ بعثها من جديد، والتي كانت تهدف في مجملها إلى تحجيم نفوذ وصلاحيات السلاطين، وزيادة نفوذ بقية مؤسسات الدولة التي هيمن عليها كبار رجال المؤسسة العسكرية. وعلى هذا الأساس جرى توزيع أعمال

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.١٣٩

إن لقب باشا مقتبس من التقاليد الفارسية القديمة، وكانت العادة آنذاك أن يمنح كبار قادة الفرس العسكريين القأبا مثل ساعد الملك أو يد الملك، ولقب باشا يعني قدم الملك.

أنظر (Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.١٤٠)

الدولة على أربعة دواوين رئيسية تملك من الصلاحيات ما يضمن لها حرية أوسع، في الحركة والعمل خارج نفوذ ديوان السلطان. وكانت كما يلي:

١- ديوان الوزير الأول "الصدر الأعظم": وقد أنيطت به إدارة أعمال الحكومة بصورة عامة ومنح من اجل ذلك صلاحيات جديدة.

٢- ديوان قاضي العسكر: الذي اصبح المسئول عن إدارة القضاء في البلاد، والمرجع الأعلى في الشؤون الدينية. وبذلك ضمنت المؤسسة العسكرية سيطرتها على القضاء وعلى الشؤون الدينية في جميع أنحاء الإمبراطورية.

٣- ديوان الدفتر دار: الذي أنيطت به الإدارة المالية في البلاد.

٤- النيشانجي: أو حامل أختام السلطان: وقد عهدت إليه إدارة ديوان السلطان، وكتابة صيغ الاتفاقيات والأوامر والتعليمات التي تصدر باسم السلطان وختمها.

وفي تلك المرحلة منح الصدر الأعظم صلاحية ترأس مجلس الدولة الأعلى بدلاً من السلطان، واصبح بإمكانه عقد جلسات الوزراء برآسته، لرسم سياسة الدولة ولمتابعة تنفيذ القرارات المتخذة. وبذلك دخلت السلطنة العثمانية مرحلة الحكم بالتفويض، أي إن السلطان يفوض الوزير الأول أو الصدر الأعظم السلطات التي كانت حكراً عليه. ومنح الوزير الأول لقب باشا (١) وبرتبة أعلى من بقية الوزراء، إذ اصبح يعقد له لواء بـ "بخمسة جواليش" (٢) بينما كان يعقد للوزير لواء بثلاثة جواليش.

---

(٢) جاليش- كلمة تركية تشير إلى الجزء السفلي من ذيل الحصان كان يعلق في أعلى راية رئيس القبيلة. وهي من تقاليد الفروسية القديمة عند قبائل التركمان حينما كان رئيس القبيلة يعلق فوق رايته ذلك الجزء من ذيل الحصان رمزاً لقيادته وسلطته العليا في القبيلة. وقد استمرت تلك التقاليد في الدولة العثمانية، وتطورت فأصبح عدد الجواليش التي تعلق في أعلى الراية تشير إلى رتبة القائد صاحب الراية. فالسلطان العثماني الذي كان يحظى بأعلى رتبة يعقد له لواء يعلق بأعلاه سبعة جواليش.

أما قاضي العسكر، فقد أنيطت به إدارة المحاكم ومسئولية إصدار الفتاوى الشرعية، فنال بذلك مقام المرجعية الدينية العليا في الدولة العثمانية. واصبح للشؤون المالية نظام مركزي يديره الدفتردار، الذي يفرض الضرائب ويقرر سبل جبايتها من مختلف أنحاء الإمبراطورية.

أما السلطان فقد أصبح له ديوان خاص يرأسه أحد كبار رجال الدولة يدعى النيشانجي، الذي أنيطت بديوانه مسئولية وضع صيغ الاتفاقات والفرمانات التي تصدر بختم السلطان.

عند دراسة تلك التنظيمات الجديدة، نجد أن الدولة دخلت في ذلك العهد مرحلة متطورة، جرى فيها تقسيم العمل على أساس الاختصاص. وهذا أدى من الناحية الفعلية، إلى تحجيم دور السلطان في رسم سياسة الدولة ومتابعة تنفيذها. وهكذا اكتسب رجال الدولة وكبار قادتها، وجلهم من العسكريين، وعلى رأسهم الصدر الأعظم، صلاحيات أهلتهم لان يكونوا قوى فاعلة في إدارة شؤون الإمبراطورية، بعد أن كانوا أدوات مطيعة ومنفذة لمشيئة السلطان.

في أوائل نيسان سنة ١٤٥٣م بدأت جيوش عثمانية بلغ تعدادها الربع مليون مقاتل، حصارها للقسطنطينية من جهة البر، حيث أقيمت حول أسوارها ١٤ بطارية مدفعية ثقيلة لم ير مثلها من قبل، كان قد صنعها مهندس عسكري مجري يدعى "اوربان". ويقال أن المدفع الواحد منها، كان يحتاج إلى ٧٠٠ رجل لسحبه. أما قذائف تلك المدافع فيقال إن وزن الواحدة منها كان يبلغ ٣٠٠كغم.(١)

أما من جهة البحر، فقد أحكم أسطول عثماني قوامه ١٨٠ سفينة، الحصار على المدينة. غير أن السلاسل الحديدية الضخمة التي كانت تسد مداخل القسطنطينية المائية، كانت تمنع تقدم سفن أي أسطول من الوصول إلى

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٦٠

شواطئها، ولذا كان المدافعون عن المدينة مطمئنين لسلامة دفاعاتهم من جهة البحر.

غير أن العثمانيين تمكنوا من إقامة ممر بري، سحبت فوقه ٧٠ سفينة تم إنزالها على الجانب الثاني من السلاسل، وبذلك تمكنت تلك السفن من التقدم ومهاجمة المدينة من الجهة الغير المحمية من جهة البحر. وكانت تلك مفاجأة عسكرية لم يكن يتوقعها البيزنطيون ولم يكونوا مستعدين لها.

وفي ٢٠ جمادى الأول سنة ٨٥٧هـ/ أيار سنة ١٤٥٣م أصدر السلطان أمره بالهجوم. وعند الفجر اندفع قرابة ١٥٠ ألف مقاتل، ومعهم المنصات المتحركة والسلالم وتسلقوا أسوار القسطنطينية ودخلوها من كل صوب وعملوا السيف في أهلها. وعند الظهر انتهت المقاومة واستسلمت المدينة. فدخلها السلطان ليعلن الاستيلاء على آخر ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية. وبعد ذلك تم تغيير اسمها إلى إسلامبول أي مدينة الإسلام أو "استانبول. وبعد أن خطت الدولة خطوات مهمة في إعادة تنظيم هياكلها ومؤسساتها، اكمل السلطان في عام ١٤٦٢م فتوحات واسعة استولى فيها على بلاد البوسنة التي ألحقت بالإمبراطورية. وفي البوسنة تم إدخال ثلاثين ألف شاب من شبابها في الجيش الانكشاري، واعتنق الدين الإسلامي اغلب الأشراف فيها[١].

وبعد ذلك قامت الحرب بين السلطان محمد الثاني والسلطان حسن الطويل، الذي منيت جيوشه بهزيمة منكرة كما مر بنا سابقاً.

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٧٠

الانكشارية بعد فتح القسطنطينية

بعد فتح القسطنطينية أنيطت بالجيش الانكشاري مهمة السيطرة على المدينة، وجرى تعيين رئيس (أغا) من الانكشارية ليضطلع بأمور الضبط والربط فيها(١). وهكذا أحكم الانكشارية ومنذ البداية، سيطرتهم على عاصمة الإمبراطورية الجديدة. واستحدث كذلك منصب رئيس لسلاح المدفعية (الطوبجية) الذي كان يتم اختياره عادة من بين قادة الانكشارية، ورئيس آخر لإدارة المئونة والذخيرة للجيش. وأصبح أمراء الجيش في العاصمة يدعون "أغوات الداخل".

أما في خارج العاصمة فقد تم ربط إدارة الإمبراطورية بإدارة الجيش الانكشاري وسيطرته. وكان أمراء الجيش الانكشاري في مختلف الولايات، يرتبطون مباشرة بالسلطة المركزية في العاصمة، ويدعون "أغوات الخارج".

وجرى تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين رئيسيين هما:

- القسم الأوربي وكان يدعى "الروملي"
- القسم الآسيوي "الأناضول"

واصبح كل قسم منها يحكمه حاكم عسكري عام يدعى "بيلر بيك" يرفع لواء يعلوه جاليشان. وجرى تقسيم كل منهما إلى ولايات وسناجق، كان عددها وحجمها يخضع لعوامل جغرافية وعسكرية. كما كان كل سنجق يحكمه قائد عسكري يدعى سنجق بك يرفع لواء يعلوه جاليش واحد.

أما القضاء، فقد جرى تقسيمه إلى إدارتين: القسم الأوربي ويتبع قاضي عسكر الروملي، والآسيوي ويتبع قاضي عسكر الأناضول. وجرى تنظيم رتب القضاة وصلاحياتهم وتدرجهم. وهكذا وضعت جميع مؤسسات الدولة العثمانية بعد فتح القسطنطينية بتنظيماتها الجديدة في إطار نظام عسكري ثيوقراطي لا

---

(١) ن.م. ص١٧٧

يختلف كثيراً عن النظام البيزنطي، كانت تسيطر عليه وتدير شؤونه مؤسسة مركزية تتمتع بنظام قوي يقوم على مبدأ السلطة المطلقة.

في ظل ذلك النظام العسكري المتماسك ازدهر الإقطاع العسكري "التيمار" بعد أن استولت الدولة على أراضي الإقطاعيين الأوربيين، والأراضي الزراعية التابعة للأديرة والرهبانيات، وعلى أراضي زراعية أخرى. وتم تحويل جميع تلك الأراضي إلى أملاك سلطانية(١). وبذلك أصبحت أكثر الأراضي الزراعية في أقاليم الإمبراطورية تابعة للدولة وتحت سيطرتها. وكان الانكشارية في ذلك العهد، يمثلون القوة العسكرية العظمى في الجيش العثماني، وذراع الحكومة المركزية في مختلف أقاليم الإمبراطورية. وكان وجودهم في تلك الأقاليم يحاط بامتيازات خاصة. فهم لا يخضعون لسلطة الولاة والحكام المحليين بل كانوا يرتبطون مباشرة بالقيادة المركزية، ولا يأخذون الأوامر والتعليمات إلا من السلطان، الذي كان يعين قادتهم وضباطهم ويتولى أمور إعاشتهم. أما الولاة والحكام المحليون فلم يكن تحت إمرتهم، سوى بعض القوات المحلية شبه النظامية، لتيسير أمور السلطة المحلية. ولم يكن بإمكان تلك القوات أن تكون نداً من الناحية العسكرية، لفرق الانكشارية التي كانت تحتكر امتلاك الأسلحة والعدد الثقيلة وخاصة المدافع.

مدرسة السراي

في سنة ١٤٦٥م اختار السلطان محمد الثاني في عاصمته الجديدة استانبول، أرضاً واسعة في موقع مناسب ليقيم عليها قصره الجديد في "السراغليو". وقرر أن يقيم ضمن مجمع القصر، مدرسة كبيرة لم يسبق لها مثيل. وقد تميزت مدرسة السلطان الجديدة، بتعدد مناهج التعليم والتدريب فيها، لكي

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.١٥٢

تخرج للدولة أجيالاً جديدة من الرجال القادة، الذين يحملون السيف والقلم في آن واحد.

كان القبول في مدرسة السراي تلك، وكما جرت العادة في السابق، مقتصراً على الصبيان المخطوفين الذين كانت عساكر الحكومة تنتزعهم من أهاليهم من قرى أقاليم أوربا المسيحية، كاليونان والبلغار والارناؤوط (الألبان) والصرب والرومان وغيرهم. بينما كان يحرم على أولاد العوائل التركية بمختلف طبقاتهم، من سكان المدن والأرياف وأبناء القبائل التركمانية والإقطاعيين من ذوي الأصول التركية، الانتماء لتلك المدرسة تمشياً مع السياسة العثمانية التي وضع أسسها السلطان أورخان مؤسس الجيش الانكشاري، والمبنية على مبدأ عدم السماح بخلق مراكز نفوذ محلية في الأقاليم التركية يمكن أن تشكل خطراً على السلطة المركزية.

كانت المدرسة تحوي قسمين يتم تدريب الطلاب فيهما حسب أعمارهم وقابلياتهم. وكانت مناهج الدراسة والتدريب فيها تستغرق ١٤ عاماً، تشمل التدريب العسكري، وتعلم أصول الدين ومختلف العلوم العامة. وكان يسمح للطلاب اختيار المهارات والمهن التي يميلون إليها عدا الصبيان الذين كانوا يهيأون للالتحاق بفرق الانكشارية إذ لم يكن مسموح لهم مزاولة أي مهنة أخرى.(١)

وجرت العادة على تغيير أسماء أولئك الأطفال حين التحاقهم بتلك المدرسة، وإعطائهم أسماء تركية إسلامية وكأنهم ولدوا من جديد. وفي المدرسة كانوا يلقنون دروساً خاصة في قواعد اللغة التركية، وتعطى لهم دروس في الأدب والشعر الفارسيين، ومع دروس الدين والقرآن كانوا يتعلمون قواعد اللغة العربية. إضافة إلى ذلك كانت تعطى لهم دروس في التاريخ التركي وفي الحساب والهندسة والموسيقى والغناء والترتيل. وتخصص لهم ساعات عديدة

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.١٥١

لممارسة تمارين الرياضة، وتعلم فنون المصارعة والمبارزة بالسيف ورمي الرماح والإصابة بالسهام. وكانوا يمارسون مختلف العاب الفروسية والجري والقفز والسباحة، وكل ما يساعدهم ليكونوا رجالاً أشداء يجيدون المهارات اللازمة التي تؤهلهم للقيادة ولإدارة مؤسسات الدولة وتسنم أعلى المناصب فيها.

وفي حياة مدرسة السراي كان يتم تعليم أولئك الطلاب، فن طبخ أنواع الطعام وخاصة الأصناف المفضلة لدى السلطان. وتحضير أنواع مختلفة من "الشربت"، وفن الحلاقة ولف العمائم ومهارات أخرى.

ومن المعروف إن بعض السلاطين العثمانيين كانوا يجيدون صناعة النبال والأقواس والسكاكين وصقل السيوف وصنع الخناجر. وكان بعضهم يمارس هوايات أخرى مثل تنظيم الحدائق.

لقد أصبحت تلك المدرسة الفريدة التي لم يكن لها مثيل في العالم، المصدر الرئيسي أو ربما الوحيد لتدريب وتخريج رجال الحكم من عسكريين وإداريين في الإمبراطورية العثمانية. وفي الغالب كان أولئك الرجال يبدأون حياتهم في الخدمة العامة في ديوان السلطان، حيث يتدرجون في سلم الوظائف. وكانت السبل تهيأ لأصحاب الكفاءات منهم، للوصول إلى القمة ليكونوا وزراء وولاة وباشوات، أو رؤساء دوائر ودواوين مهمة كالدفترية والمكتوبية وغيرها.

إن تشييد مدرسة السراي في استانبول بأقسامها المتنوعة ومناهجها الواسعة والمتعددة، يعطينا مؤشراً مهماً إلى المرحلة المتقدمة التي بلغتها الدولة العثمانية في ذلك العصر، بفضل تطوير مؤسساتها التي كانت تجمع بين تقسيم العمل ومركزية السلطة. ويعرفنا بالطبقات الحاكمة التي كان يتم تنشئتها بتلك العناية الفائقة لإدارة تلك الإمبراطورية الجبارة.

الفصل الخامس

الانكشارية والانقلاب العسكري

توفي السلطان محمد الثاني سنة ١٤٨١م وخلف ولدين هما الأمير بايزيد والأمير جم. وكان الصدر الأعظم يميل إلى الأمير جم ولذا حاول تنصيبه على العرش. ولكن الانكشارية ثاروا على الصدر الأعظم وقتلوه، وعاثوا في العاصمة استانبول سلباً ونهباً مطالبين بتنصيب الأمير بايزيد، الذي كان خارج العاصمة. وحينما وصل بايزيد أحاط به الانكشارية وطلبوا منه عزل الوزير مصطفى باشا، وتعيين أغا الانكشارية (حاكم استانبول العسكري) محله. وطالبوه كذلك بدفع منحة مالية لهم بمناسبة ارتقائه العرش. فانصاع لهم السلطان واستجاب لكل مطالبهم[١].

دام عهد بايزيد الثاني اكثر من ثلاثة عقود من الزمن شملت آخر عقدين من القرن الخامس عشر والعقد الأول من القرن السادس عشر، تمتعت أثناءها شعوب الإمبراطورية العثمانية بفترات طويلة من الهدوء والتطور السلمي. فالسلطان بايزيد كان ميالاً للسلم محباً للعلوم والآداب وحياة الزهد. ولهذا كان الناس يدعونه بايزيد "الصوفي". وقد تميز عهده بتطور العلاقات السلمية مع العديد من الدول الأوربية وبعدم تحقيق فتوحات خارجية تذكر.

(١) صار دفع الإنعامات المالية للإنكشارية في تلك المناسبات سنة مفروضة على سلاطين آل عثمان. المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٧٩

غير أن عصر السلطان بايزيد الثاني شهد تحولات تاريخية كبيرة، هزت مجتمع الشرق الإسلامي وما حوله بصورة عامة، ومجتمعات التركمان بصورة خاصة. فقد انهارت في عهده إمبراطورية الآق قوينلو على يد الثائر الصوفي التركماني الشاه إسماعيل الصفوي، الذي أقام على أنقاضها دولة تركمانية، مشبعة بروح دينية صوفية تستوحي فكرها من الطريقة الصفوية الشيعية، التي لم تكن تختلف كثيراً عن فكر الطريقة البكتاشية. وبسرعة مذهلة، سيطرت جيوش تلك الدولة الناشئة على إيران وبلاد الرافدين وبقية أقاليم إمبراطورية الآق قوينلو. ثم أخذ نفوذها الروحي، ينمو في مجتمعات الترك بصورة لم تكن متوقعة، ولا مقبولة من قبل بعض الأوساط السياسية والعسكرية في استانبول.

ويبدو أن كان لتلك التحولات أثر عميق في الأوساط العسكرية العثمانية التي فوجئت بانهيار جيوش السلطان مراد بن يعقوب وهروبه إلى الأراضي العثمانية. ومما زاد من مخاوف العثمانيين استيلاء الشاه إسماعيل في سنة ١٥٠٨م على بغداد آخر معاقل الآق قوينلو. مما زاد في احتمالات اندفاعه نحو الغرب، وتهديد كيان الإمبراطورية العثمانية.

وبالرغم من جهلنا لما كان يدور في الخفاء في أوساط الحكم في استانبول، فإن الأحداث التي تفجرت في العقد الثاني من ذلك القرن كشفت لنا عن حقائق مثيرة دلت على أن المظاهر السليمة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، أخفت وراءها أزمات داخلية عميقة كانت تتفاقم بمرور الأيام ومع تصاعد انتصارات الشاه إسماعيل الصفوي الذي بدا وكأنه عملاق جديد يظهر في الشرق، في عصر لازالت ذكريات الفاتح المغولي الكبير تيمورلنك، تعيش حية في ذاكرة المؤسسة العسكرية العثمانية.

ويبدو أن رجال الانكشارية الذين ضجروا من حياة اللا حرب كانوا يرون بان الدولة العثمانية هي الوريث الأحق والمؤهل للاستحواذ على أقاليم إمبراطورية الآق قوينلو، بدلاً من حكومة الشاه إسماعيل الصفوي. وان

سياسة السلطان السلبية هي التي فوتت على الدولة العثمانية الفرصة لتحقيق مثل ذلك الهدف وساهمت في مضاعفة الأخطار التي باتت تهدد حدودها الشرقية.

الحالة في الأناضول

تعد الأناضول قلب المجتمع التركي الذي انبثقت منه الدولة العثمانية، غير أن تسلط المماليك الانكشارية، وتوسع الدولة باتجاه الغرب خاصة في الأقاليم الأوربية، وتبنيها سياسات وتنظيمات جديدة بما يلائم مصالحها العسكرية والسياسية، باعد بين حكومات السلاطين العثمانيين والسكان الترك في أقاليم الأناضول.

وقد واجهت الدولة منذ سنين خلت، مشاكل مستديمة مع سكان الأناضول خاصة مع سكان المناطق الزراعية، ومع قبائل التركمان التي كانت تتنقل في المناطق الرعوية من تلك الأصقاع. وقد كان لانتقال السلاطين العثمانيين إلى الجانب الأوربي واتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة ومن ثم إقامة إدارة أوربية باسم "الروملي" وعزل الأناضول، أثر بالغ في نمو تلك المشاكل. إذ دأبت الحكومة المركزية في استانبول على إتباع سياسة إضعاف قبائل التركمان وتقليص دور رجالها في الحروب، والاعتماد بصورة متزايدة على رجال "السباه" ذوي الأصول المسيحية.

ومما ضاعف تعميق تلك الأزمات، التأثيرات السلبية لقوانين الضرائب التي فرضتها السلطة المركزية وأساليب جبايتها[١]. ودعمها للإقطاع العسكري الذي استحوذ على مناطق زراعية ورعوية واسعة مما كان يعده السكان اعتداء على حقوقهم الطبيعية في الأرض وعلى استقلاليتهم في تلك المناطق.

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٤٧ ترجمة جعفر الخياط - بغداد

إن تفاقم أوضاع سكان الأناضول الاقتصادية، وتدهور علاقاتهم مع حكومة استانبول مهدت السبيل وهيأت الأجواء الملائمة لتعاطف السكان مع ثورة الشاه إسماعيل الصفوي، خاصة في مجتمعات التركمان، التي كانت تسود فيها عقائد الطرق الصوفية الشيعية. ويبدو أن جماعات كبيرة من السكان الترك في أقاليم الأناضول أخذوا يتحولون إلى الطريقة الصفوية، واصبح الشاه إسماعيل بالنسبة لهم، بطلاً قومياً يدعونه "الصوفي العظيم"[١].

وفي خضم تلك التطورات كانت ثورات قبائل التركمان تنتشر في مختلف أرجاء الأناضول، واخذ رجالهم يرتدون عمائم "القزلباش" الحمراء رمز المقاتلين التركمان الشيعة في أذربيجان. وفي إحدى المواجهات العسكرية، تمكن رجال القبائل من إنزال هزيمة كبيرة بجيش السلطان وقتل الوزير علي باشا، والوصول إلى أسوار بورصا التي كانت تعد المركز الروحي للحركات الصوفية.

بوادر الفتنة في استانبول

حرك تسارع الأحداث على الجبهة الداخلية، وتنامي قوة الشاه إسماعيل الصفوي، رجال المؤسسة العسكرية العثمانية، وخاصة الانكشارية الذين اخذوا يجاهرون في تذمرهم من سياسة السلطان بايزيد الثاني السلبية، ويطالبون باتخاذ الإجراءات العسكرية اللازمة ضد ثوار الأناضول، وضد دولة الشاه إسماعيل، قبل فوات الأوان.

في تلك الفترة، كان قد مضى على حكم السلطان بايزيد الثاني قرابة ثلاثة عقود، وقرابة عقد من الزمن على ثورة الشاه إسماعيل الصفوي، وقيام حكومته الثورية التي فجرت روحاً وطموحات جديدة في كافة مجتمعات التركمان.

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.١٦٦

يبدو أن حالة الغليان وتضارب التيارات السياسية بلغت حداً شمل حتى أولاد السلطان الذين أخذوا يلعبون دوراً في الحياة العامة. وكان أكبرهم واسمه كركود منشغلاً بالآداب ومجالسة العلماء، ويقال إنه كان ينفر من العسكر ويبتعد عن مجالستهم. أما ولده الثاني واسمه احمد فكان على علاقات طيبة برجال الدولة والأعيان، وكان يعد الابن المفضل لدى السلطان ولدى كبير الوزراء علي باشا، الذي كان يكن له الكثير من الود والإخلاص. غير أن اصغر أولاد السلطان واسمه سليم فكان على النقيض من أخويه، إذ كان ذا طباع شريرة يهوى الحرب ويميل إلى سفك الدماء. وكان له وجه مكفهر قاطع حاد النظرات، ولذا كان يلقب "ياوز" وتعني بالتركية ذو الوجه القاطع أو المكفهر. ولكن سليم كان أقرب أولاد السلطان إلى أمراء عسكر الانكشارية الذين كانت تربطهم به علاقات حميمة.

ولتفادي المشاكل والحد من تفاقم الأوضاع السياسية قرر السلطان إبعاد أولاده عن العاصمة. فعين ولده كركود والياً على إحدى الولايات البعيدة. وعين ولده أحمد على أماسية، وولده سليم على طرابزون. وعين سليمان ابن سليم والياً على كافا وهي من بلاد القرم.

غير أن الأحداث ظلت تتسارع وتنذر بأمور يصعب التكهن بنتائجها. ففي الأناضول تحول الأمير أحمد إلى جانب الثوار من رجال قبائل التركمان، وارتدى مثلهم العمامة الحمراء (قزلباش) التي أصبحت رمز الثوار الشيعة في بلاد التركمان. ثم زحف أحمد على رأس كتائب قزلباش الأناضول واستولى على بورصة، عاصمة جده أورخان، ومركز الطريقة الصوفية البكتاشية.

وفي غالب الظن، إن تطور الأحداث في الأناضول فجر الوضع في أوساط المؤسسة العسكرية في استانبول فتحرك أمراء الانكشارية لحسم الموقف.

تمرد الأمير سليم

كان سليم الإبن الأصغر للسلطان، يهوى السلطة ويطمح للاستحواذ على العرش العثماني دون أخويه. وحينما بدأت آثار الكبر تبدو على والده السلطان، الذي كان يقترب من سن السبعين، تحرك سليم لتحقيق طموحاته الذاتية في الوقت الذي كان فيه رجال الانكشارية يتململون ويجهرون بسخطهم على سياسة السلطان السلبية تجاه تطور الأحداث داخلياً وخارجياً. وفي تلك الأثناء كان سليم يتصل بقادتهم، ليعبر لهم عن تجاوبه مع أفكارهم. وتشير بعض المعلومات إلى أنه ذهب أبعد من ذلك، إذ عقد اجتماعات سرية مع قادة الانكشارية وطلب منهم دعم جهوده الرامية للاستحواذ على العرش بعد والده.[١]

وحينما عين السلطان ولده سليم والياً على طرابزون البعيدة، اعترض سليم على قرار السلطان وأرسل يطلب منه تعيينه في إحدى ولايات أوربا (الروملي) ليكون قريباً من العاصمة. ولكن السلطان رفض ذلك الطلب، وبالأثر أعلن سليم العصيان على والده السلطان وجمع جيشاً من قبائل التتار وسار به إلى القسم الأوربي (الروملي). مما دعا السلطان إلى إرسال قوة عسكرية لقمع تمرد ولده سليم. ولكن ولسبب ما، آثر السلطان حقن الدماء فلم يعاقب ولده سليم بل عينه والياً سنة ١٥١١م، على مدينتي سمندرية و فدين (Vidin).

لما علم كركود بما حدث، انتقل إلى ولاية صاروخان واستلم إدارتها بدون الحصول على أمر من السلطان، وذلك ليكون قريباً من العاصمة، وليراقب تطور الأحداث عن كثب.

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.١٦٦

أما سليم فبدلاً من الذهاب إلى سمندرية، سار إلى أدرنة القريبة من استانبول وأعلن نفسه سلطاناً عليها. مما اضطر السلطان إلى إرسال قوة عسكرية هزمته، ففر سليم إلى بلاد القرم. وأرسل السلطان جيشاً آخر لمحاربة كركود بآسيا فهزمه أيضاً.

بالرغم من كل ما أتاه سليم من أعمال لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدولة العثمانية، فإن الانكشارية لم يتراجعوا عن تأييدهم له. بل تدخلوا لصالحه وضغطوا على السلطان وطالبوه بإصدار عفو خاص عنه. انحنى السلطان وخضع لإرادة الانكشارية، وأصدر أمره بالعفو عن ولده المتمرد سليم، وأعاد تعيينه حاكماً على ولاية سمندرية.

وبينما كان سليم في طريقه إلى مقره الجديد، تحرك الانكشارية بصورة مباغتة، وبدون أمر من السلطان، وساروا بجموعهم والتقوا بالأمير سليم وكأنهم كانوا على موعد معه. ثم حملوه باحتفاء عظيم وعادوا به إلى استانبول، حيث ساروا به إلى سراي السلطان.

خلع السلطان بايزيد الثاني

وفي السراي حدث ما لم يحدث من قبل في تاريخ الدولة العثمانية. فقد دخل عسكر الانكشارية على السلطان وأجبروه على التنازل عن العرش. ونصبوا بدلاً منه ولده الأصغر سليم الذي عرف باسم السلطان سليم الأول. وكان ذلك في سنة ١٥١٢م.

أما السلطان المخلوع فقد اعتكف في أحد قصوره، ولكن رجال الانقلاب لم يرق لهم وجوده في العاصمة، فاصدر السلطان سليم الأول أمراً بنفي والده المخلوع إلى إحدى مدن اليونان. ولكن بايزيد توفي، في ظروف يشوبها الغموض، وهو في طريقه إلى منفاه الجديد. وقد أطلقت وفاته إشاعات تؤكد،

إن السلطان سليم دس السم لوالده خوفاً من عودته إلى سدة الحكم، وهكذا توفي السلطان بايزيد في ٢٧ أيار سنة ١٥١٢م.[١]

السلطان سليم يصفي الجبهة الداخلية

اعتلى السلطان سليم الأول العرش عبر تلك الأحداث العاصفة التي أنهت ثلاثة عقود من الحياة السلمية. وبعد أن وزع المكافآت المالية على رجال الانكشارية، أصدر أمراً بتعيين ولده الشاب سليمان حاكماً على استانبول. ثم خرج على رأس جيشه لقمع الحركات الثورية التي انتشرت في البلاد، ولملاحقة اخوته وأعوانهم.

فاقتفى اثر أخيه أحمد وضرب الحصار حوله، لكن أحمد تمكن من الإفلات والهرب. غير أن العساكر الانكشارية تمكنوا من القبض على الوزير مصطفى باشا وقتلوه شر قتلة. وبعد ذلك زحف السلطان سليم على بورصة واستولى عليها. وهناك قبض الانكشارية على خمسة من أولاد اخوته، كان أحدهم لم يبلغ الخامسة من العمر. فأصدر السلطان سليم أمره بقتلهم جميعاً. ويقال بأن السلطان سليم كان يتابع عملية قتلهم من غرفة مجاورة ويستمع لتوسلاتهم وبكائهم[٢].

وبعد ذلك زحف السلطان سليم نحو صاروخان مقر أخيه الأكبر الأمير كركود، الذي تمكن من الفرار إلى الجبال. وبعد أسابيع من المطاردة قبض عليه الانكشارية وقتلوه. وفي سنة ١٥١٣م تمكنوا من القبض على الأمير أحمد فقتل هو الآخر. وهكذا قضى السلطان سليم على جميع اخوته وأولادهم، وعلى من أيدهم من رجال الدولة.

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٨٧

(٢) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٨٩

بعد أن سحق إنكشارية السلطان سليم الجماعات العسكرية التي التفت حول أولاد السلطان الآخرين، بدأت الاستعدادات لسحق واجتثاث حركات المعارضة التركمانية في أقاليم الأناضول، وذلك بتدمير المراكز السكانية في المناطق التي جاهرت بعدائها للحكم الجديد، والقضاء على السكان ومصادر عيشهم.

ومن أجل ذلك أصدر السلطان سليم أوامر سرية لإجراء مسح شامل لتلك المناطق وحصر أعداد الرجال من سكان القرى التي ينتمي أهلها إلى الطرق الصوفية الشيعية الذين كانوا يجاهرون بولائهم للشاه إسماعيل والطريقة الصفوية. ثم أمر بانتشار أعداد كافية من العسكر في تلك المناطق، وأمر أن يذبح كل جندي منهم رجلاً واحداً على الأقل من السكان الشيعة البكتاشية، باعتبار أنهم أصبحوا من أنصار الثورة الصفوية.(١)

وحينما بدأت العملية العسكرية، طوقت فرق الجيش العثماني مناطق التركمان الشيعة البكتاشية، وهجم الجنود على السكان وباشروا بذبح الرجال حتى أفنوهم عن بكرة أبيهم. وبعد ذلك تحولوا إلى عمليات الحرق والتدمير والقضاء على بقية السكان. وهكذا تم القضاء على عشرات الألوف من رجال القبائل التركمانية في الأناضول، وهجر من بقي على قيد الحياة من أفراد عوائل الضحايا، إلى المناطق العثمانية في أوربا وجرى تشتيتهم في مقدونيا وغيرها.

لقد شبه عدد من المؤرخين الغربيين مذابح السلطان سليم في الأناضول، بالمذابح التي نفذها ملك فرنسا الكاثوليكي شارل التاسع سنة ١٥٧٢م بحق البروتستانت والتي عرفت بالتاريخ بمذابح سان برتليمي.

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٨٧

ويقال أن تلك المذابح تركزت في مناطق أنصار الطريقة الصفوية الذين سماهم الصدر الأعظم يونس باشا "أصحاب الدين الفارسي". ولم تشمل أنصار الطرق الصوفية الشيعية الأخرى كالبكتاشية والقلندرية وغيرهم.

الفصل السادس

حروب السلطان سليم في الشرق

بعد الانتهاء من عمليات التصفية المذكورة بدأت الاستعدادات الواسعة لحروب خارجية جديدة. ولكي تؤمن الدولة حدودها من جهتي أوربا، وبلاد الشام التي كانت تابعة لحكومة المماليك في مصر، اجتمع السلطان في مدينة أدرنة بسفراء البندقية والمجر وموسكو، وبسفير حكومة مماليك مصر، وابرم مع كل منهم معاهدة عدم الاعتداء طويلة الأمد. وقد هيأت تلك المعاهدات الظروف اللازمة للجيوش العثمانية للتحرك شرقاً بكامل قواها لتوجيه الضربة القاصمة للشاه إسماعيل في عقر داره.

معركة جالديران

بعد الانتهاء من مذابح الأناضول، أعلن السلطان سليم الحرب على الشاه إسماعيل وباشرت الجيوش العثمانية زحفها نحو الشرق.

وأثناء زحف الجيوش العثمانية، أرسل السلطان سليم إلى الشاه إسماعيل عدداً من الرسائل تعمد أن تكون مفعمة بالقذف والشتائم[١]. ولكن الشاه إسماعيل كان يتجاهل شتائم السلطان سليم ويؤكد له في رسائله رغبته بالسلام، وتمسكه بالمحافظة على العلاقات السلمية بين الدولتين ذوات الأصول التركمانية.

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٩٠

وحتى بعد أن اخترقت الجيوش العثمانية حدود الدولة الصفوية (أي حدود دولة الآق قوينلو سابقاً)، لم تتصد لها جيوش الشاه إسماعيل، بل تعمد التقهقر من أمامها[١].

لقد ظهر جلياً بأن القيادة الصفوية كانت تحاول بكل جهودها، عدم الانجرار إلى الحرب مع الدولة العثمانية، فالشاه إسماعيل كان لا يزال مشغولاً بترسيخ دعائم دولته الفتية.

ثم انه كان يدرك بأن فرق القزلباش الثورية، لم تكن قد بلغت من ناحية التسليح أو التدريب العسكري، مستوى الفرق الانكشارية المحترفة التي لم تكن تضاهيها في تلك الأيام أية قوة عسكرية في العالم، خاصة سلاح مدفعيتها الجبار. ولذا حاول الشاه إسماعيل كسب الوقت وإنهاك العثمانيين، بالانسحاب من أمامهم، أو لعله كان يأمل في تجاوبهم مع نداءاته المتكررة لحقن الدماء بين الدولتين.

وقد استمر انسحاب الجيوش الصفوية حتى بلغت مشارف العاصمة تبريز، وهناك في وادي "جالديران" التحم الطرفان في معركة ضارية حصدت الآلاف من الطرفين.

لقد قاتل رجال القزلباش التركمان بضراوة بالغة، دفاعاً عن حاضرة الترك الأذريين وعاصمتهم تبريز. وقد قاتل معهم عشرات الألوف من سكان الأقاليم التي كانت بالأمس ضمن إمبراطورية الآق قوينلو، والذين هرعوا لنجدة الشاه إسماعيل ضد السلطان سليم وعسكره الانكشاري.

ومن الذين ساهموا في تلك المعركة الرهيبة، نقيب أشراف العراق السيد محمد كمونة، الذي جاء على رأس جيش كبير من أبناء العشائر العراقية، غير أن تلك الجموع لم تتمكن من الصمود طويلاً أمام فرق الانكشارية ونيران المدافع العثمانية التي كانت تحصد المقاتلين بالآلاف. وفي ٢٤ آب (أغسطس)

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.١٦٧

انهارت مقاومة القزلباش وانتهت معركة جالديران بانتصار كاسح للجيوش العثمانية.

أما الشاه إسماعيل فقد أصيب في تلك المعركة بجروح بالغة، فحمله أعوانه وهربوا به من ساحة المعركة. وتمكن العثمانيون من اخذ عشرات الآلاف من الأسرى كان من بينهم زوجة الشاه إسماعيل. فأمر السلطان سليم بعد انتهاء المعركة بذبح جميع الأسرى. وهكذا ذبح عسكر السلطان سليم، نقيب الأشراف السيد محمد كمونة ومعه آلاف المقاتلين العراقيين[1]. أما زوجة الشاه إسماعيل فقد رفض السلطان إرجاعها إلى الشاه بالرغم من الجهود التي بذلت لافتدائها، و أمر أحد أعوانه بالزواج منها إذلالاً للشاه إسماعيل.

وفي ١٤ أيلول سنة ١٥١٤م دخل السلطان سليم مدينة تبريز واستولى على خزائنها. ثم اصدر أمره إلى الجيوش العثمانية في الانتشار في أقاليم التركمان الواسعة لملاحقة الشاه إسماعيل وأنصاره من القزلباش للقضاء عليهم وعلى سكان المناطق التي التجاءوا إليها. ولكن الانكشارية تمردوا على أوامر السلطان سليم ورفضوا مواصلة الحرب والملاحقة. ويقال أن رجال الدين البكتاشية المصاحبين لتلك الحملة العسكرية ساهموا في التحريض على ذلك التمرد، مما اضطر السلطان سليم إلى إيقاف الاستمرار في عمليات المطاردة والتراجع إلى مدينة أماسيا. وفي ربيع سنة ١٥١٥م تحرك السلطان سليم واستولى على قلعة كوماش وإمارة ذي القدرية[2].وبعد ذلك عاد إلى استانبول. حيث قتل السلطان سليم عدد كبير من ضباط الانكشارية الذين ساهموا في حركة التمرد، وقتل معهم رجال الدين البكتاشية وعلى رأسهم قاضي العسكر

---

(١) بلغ عدد الذين قتلهم السلطان سليم من العرب نحو عشرة آلاف.
المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٣،ص٣٥٣

(٢) تقع إمارة ذي القدرية أو ذي القدر في جنوب شرق الأناضول وتمتد إلى سواحل البحر المتوسط في الزاوية الشمالية الشرقية منه بما في ذلك خليج الاسكندرون.

جعفر جلبي، باعتباره اكبر المحرضين على ذلك التمرد[١]. ثم أصدر أمراً حصر فيه صلاحية اختيار القائد العام للإنكشارية بالسلطان نفسه، بعد أن كان العرف المتبع أن يمنح المنصب للضابط الانكشاري الأقدم. وبعد ذلك استولت الجيوش العثمانية على عدة مدن مهمة مثل: ماردين وأورفة والموصل على نهر دجلة، والرقة على نهر الفرات.

لقد حقق انتصار السلطان سليم في جالديران للإمبراطورية العثمانية إنجازات ذات أبعاد تاريخية مهمة. فقد نجحت المؤسسة العسكرية العثمانية في ضربتها الساحقة في معركة جالديران، في تحجيم تأثيرات الثورة الصفوية وحالت دون توسع الشاه إسماعيل باتجاه الغرب. وتمكنت كذلك من الاستيلاء على أقاليم مهمة استراتيجية، كانت في السابق من ضمن أملاك إمبراطورية الآق قوينلو، التي زالت من الوجود أثناء حكم السلطان العثماني المسالم بايزيد الثاني. فقد ألحق السلطان سليم بدولته، القسم الشرقي من هضبة الأناضول المرتفعة والمشرفة على مناطق الشرق، والتي تعد عسكرياً الحاجز الطبيعي أمام تقدم أي جيوش قادمة من الشرق. وبذلك غير العثمانيون الموازين العسكرية في تلك المناطق لصالحهم[٢].

وزيادة في إضعاف دولة الشاه إسماعيل، اتخذ السلطان سليم إجراءات سياسية واقتصادية واسعة، تهدف إلى شل الحياة الاقتصادية في أقاليم الترك التابعة للدولة الصفوية. فقد طرد من بورصا وبقية المدن العثمانية، جميع تجار الحرير ونفاهم إلى مناطق نائية في البلقان. ومنع تجارة الحرير وأوقف سير القوافل البرية التي يسيرها رجال القبائل التركمانية إلى أسواق الغرب. وبذلك حرمهم من أهم مصدر لكسب الذهب والفضة[٣].

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٩١

(٢) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P.١٦٧

(٣) ن.م.

ومن أجل تحجيم دور تبريز كعاصمة وحاضرة للتركمان، قبض السلطان سليم على أعداد كبيرة من الحرفيين والصناع المهرة والفنانين والمهندسين ونقلهم إلى استانبول. وتشير بعض المصادر بان عددهم بلغ نحو ألف أستاذ[١].

الدولة العثمانية والعالم العربي

فتحت معركة جالديران الباب على مصراعيه أمام الجيوش العثمانية، لاكتساح البلدان العربية. وبالرغم من استيلاء العثمانيين على الموصل، فانهم لم يتقدموا نحو بغداد، بل قرر السلطان سليم لاعتبارات عسكرية وسياسية، مهاجمة حكومة المماليك في مصر، والتي كانت تسيطر على بلاد الشام.

كان حاكم مصر وبلاد الشام في تلك الفترة، السلطان قانصو الغوري وهو من مماليك الأشرف الظاهر خشقدم. وكان مماليك مصر قد أقاموا تحت حمايتهم "خلافة عباسية" إسمية، حينما نصبوا رجلاً كان قد هرب من بغداد بعد سقوطها على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ (١٠٩١م)، ادعى إنه من بني العباس و إنه الرجل الوحيد الذي نجا من الموت من بيت الخلافة، بعد المذبحة التي قضى فيها هولاكو على الخليفة وجميع أفراد عائلته. وبتنصيبه اعتبر مماليك مصر، أن الخلافة العباسية انتقلت إلى القاهرة. غير أن منصب الخلافة في القاهرة ظل بصورة عامة، إسميا وغير معترف به في العالم الإسلامي. وفي عهد السلطان الغوري كان يشغل منصب الخلافة رجل يدعى محمد المتوكل على الله.

(١) المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٣،ص٣٥٣

معركة مرج دابق

كانت حكومة مماليك مصر قد وقعت معاهدة سلام مع السلطان سليم. وفي أثناء ذلك قام تعاون بين الدولة العثمانية وحكومة المماليك دام لسنوات. غير أن حكام مصر فوجئوا في سنة ١٥١٦م باجتياح الجيوش العثمانية لحدود دولتهم من الشمال.

وبالرغم من تقدمه في السن جهز السلطان الغوري، جيشاً وسار به لصد الجيوش العثمانية. ولكي يسبغ على حملته صبغة دينية، اصطحب معه "الخليفة" محمد المتوكل على الله، ومعه حشد من رجال الدين. وكان محمد المتوكل يحمل معه مفتاح الكعبة، ورداء ينسب إلى رسول الله (ص)، وبعض السيوف والرايات التي تنسب إلى الرسول (ص) والخلفاء الراشدين، والتي كانت تعد من رموز الخلافة التي كانت حكومة مصر تحتفظ بها في القاهرة.

وفي شمال غرب مدينة حلب، في موقع يدعى مرج دابق، التقى الجيشان واشتبكا في معركة شرسة، تمكنت أثناءها فرق الانكشارية من تمزيق جيش مماليك مصر وقتل السلطان الغوري، وأسر "الخليفة" محمد المتوكل ومن معه من رجال الدين. وبعد الانتهاء من تلك المعركة، زحف الجيش العثماني واستولى على حماة وحمص ودمشق ومدن الساحل وعلى القدس.

أما في القاهرة فقد اجتمع قادة المماليك، وبايعوا طومان باي ليحل محل السلطان الغوري. وقد استلم حاكم مصر الجديد طومان باي كتابا من السلطان سليم، يقول فيه إن "الخليفة" محمد المتوكل سلمه مفاتيح الكعبة، وتنازل له عن كل حقوقه، وبذلك حل السلطان سليم محل الخليفة في رآسة دولة مصر وتوابعها، وإن بقية رجال الدين الذين أسرهم الجيش العثماني قد أيدوا ذلك. (ويبدو أن ذلك الإدعاء كان الأساس الذي تذرع به سلاطين الدولة العثمانية فيما بعد بأن الخلافة الإسلامية قد انتقلت إليهم). وعلى أساس هذا الإدعاء، طلب السلطان سليم من طومان باي أن يسلمه مصر بدون حرب. وهو بالمقابل سيثبته (أي السلطان سليم) حاكماً على مصر لقاء مبلغ من المال يدفع

سنوياً للدولة العثمانية. ولكن طومان باي رفض الخضوع، وجمع ما تبقى من جيوش المماليك وخرج لمواجهة الجيش العثماني.

استيلاء العثمانيين على القاهرة

زحف السلطان سليم جنوباً واستولى على غزة بعد أن هزم مقدمة جيش المماليك. وبعدها سار نحو القاهرة وعسكر في منطقة قريبة تدعى الخانكة. وفي ٢٢ كانون ثاني (يناير) سنة ١٥١٧م بدأت المعركة الفاصلة بين الطرفين.

وبالرغم من تفوق نيران مدفعية السلطان سليم التي أضيفت إليها مدافع المماليك التي استولى عليها الجيش العثماني في معركة برج دابق، تمكن طومان باي ومجموعة من خيرة مقاتلي المماليك، من اختراق صفوف الانكشارية والاستيلاء على مقر قيادة السلطان سليم وقتل من كان فيه، ومنهم الوزير سنان بك الذي قتله طومان باي بسيفه ظناً منه أنه السلطان سليم. غير أن السلطان سليم تمكن من الهرب من مقر قيادته وبذلك نجا من موت محقق(١).

لكن المماليك لم يتمكنوا من التمسك بذلك الانتصار طويلاً، إذ كانت نيران المدفعية العثمانية المتفوقة، تحصد رجالهم بالآلاف. ومع تنامي خسائرهم أخذت مقاومتهم تضعف ثم انهارت. فانسحبت فلولهم واعتصمت بمدينة القاهرة. وفي داخل القاهرة قاتل جيش المماليك بعناد شديد، من بيت لبيت ومن شارع لآخر، وبذلك تمكنوا من تكبيد العثمانيين خسائر فادحة. لكن العثمانيين بالمقابل، ركزوا نيران مدافعهم على مناطق المقاومة داخل أحياء

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٩٣

المدينة، فأخذت المدافع العثمانية تدك تلك المواقع بنيرانها وتقضي على المدافعين، وعلى الآلاف من السكان العزل[١].

وبعد معركة القاهرة انسحب طومان باي إلى بر الجيزة، ونظم هناك ما يشبه حرب العصابات وشن عدداً من الغارات أنزلت خسائر فادحة بالجيش العثماني. غير أن السلطان سليم نجح في أثناء ذلك، بإغراء أحد أعوان طومان باي بعد أن وعده بإمارة مصر، فغدر ذلك الرجل بطومان باي وسلمه إلى السلطان العثماني. وفي ١٣ نيسان ١٥١٧م شنق طومان باي بباب زويلة.

وبعد القضاء على حكومة المماليك اضطر السلطان سليم أن يمكث في القاهرة مدة ستة أشهر، لتثبيت الإدارة العثمانية فيها. ثم رحل عنها في أيلول سنة ١٥١٧ م، بعد أن ترك فيها حامية عسكرية من الانكشارية. وفي طريق العودة أمر السلطان بقتل وزيره الأول "الصدر الأعظم" يونس باشا، بسبب قوله للسلطان، بأن فتح مصر لم يعد على الدولة بشيء سوى مقتل نحو نصف عدد الجيش العثماني.

وفاة السلطان سليم الأول

بعد العودة إلى استانبول باشر السلطان سليم استعداداته العسكرية لشن حرب جديدة ضد الشاه إسماعيل، للقضاء عليه وعلى دولته الفتية، ولإكمال استراتيجية المؤسسة العسكرية العثمانية في الاستحواذ على أملاك إمبراطورية الآق قوينلو من جهة، وللتخلص من التأثيرات الدينية والسياسية، للثورة الصفوية في أقاليم الترك بصورة عامة، وفي مناطق الأناضول بصورة خاصة.

فجمع خمسة عشر ألف فارس وحشدهم في وسط الأناضول، وضم إليهم ثلاثين ألف جندي مشاة وعدداً كبيراً من المدافع والذخيرة. غير أن الموت

---

(١) يذكر أن عدد من قتل من سكان القاهرة بلغ خمسين ألف نسمة

عاجله قبل إكمال استعداداته العسكرية لحربه القادمة، إذ توفي في ٢٢ أيلول سنة ١٥٢٠م قبل أن يتمكن من القضاء على الدولة الصفوية التي أقامها الشاه إسماعيل.

لقد مكث السلطان سليم ثمانية أعوام فقط في سدة الحكم، قضاها في الحروب. وفي أثناء تلك الفترة تمكنت المؤسسة العسكرية العثمانية من مضاعفة مساحة الإمبراطورية، بعد أن استولت على أجزاء كبيرة من إمبراطورية الآق قوينلو بما فيها الجزء الشرقي من هضبة الأناضول الاستراتيجية. والتي تم انتزاعها من دولة الشاه إسماعيل الصفوي، بعد معركة جالديران. وكذلك استولت على بلاد الشام ومصر. وهكذا تحولت حروب الفتح في عهد السلطان سليم الأول، من أوربا المسيحية إلى البلدان الإسلامية والعربية.

وقد قتل السلطان سليم في فترة حكمه عدداً كبيراً من رجال الدولة منهم سبعة من كبار وزرائه. إذ كان كل وزير يخدمه مهدد بالقتل لأقل هفوة، حتى صار الناس يدعون على من يودون موته، بأن يصبح وزيراً للسلطان سليم(١). وبعد وفاته خلفه في الحكم ولده الشاب الأمير سليمان.

---

(١) المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٩٧

تم الجزء الأول من كتاب العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية ويليه الجزء الثاني الذي تشمل فصوله تاريخ العراق في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتتناول المواضيع التالية:

- التحولات السياسية والعسكرية في الدولة العثمانية بعد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالسلطان الصوفي بايزيد الثاني.
- العراق والحكم الصفوي ١٥٠٨م-١٥٣٤م.
- إدارة عرب العراق برآسة نقيب أشراف بغداد والنجف.
- حكومة المنتفك في البصرة.
- حكومة المشعشعين في الحويزة.
- استيلاء الجيوش العثمانية بقيادة السلطان سليمان الأول على بغداد سنة ١٥٣٤م.
- بداية مرحلة ضعف وانحطاط الدولة العثمانية، بعد وفاة السلطان سليمان الأول.
- تمرد بكر صوباشي قائد الانكشارية في بغداد وطلب الحماية من الشاه عباس الصفوي.
- الشاه عباس يستولي على بغداد. الحكم الصفوي الثاني في العراق ١٦٢٢م-١٦٣٨م.
- بداية مرحلة ضعف وانحطاط الدولة الصفوية بعد وفاة الشاه عباس.
- السلطان مراد الرابع يستولي على بغداد سنة ١٦٣٨م.
- العراق والحكم العثماني في عهده الثاني.
- السلطان مراد الرابع يشيد قصبة الأعظمية ويقيم قاعدة عسكرية للإنكشارية.
- ظهور أول مجتمع عثماني في العراق.
- تكايا البكتاشية في النجف، وكربلاء، وبغداد، وكركوك.

- تفاقم مشاكل الحكم وتردي أوضاع الإدارة العثمانية في العراق، حتى مطلع القرن الثامن عشر الميلادي.
- تغير مجاري الأنهار والتحولات السكانية والاجتماعية في العراق.
- تعرض وادي الرافدين لهجرات بدوية جديدة.
- أمراء العسكر العثماني ومحاولات الاستحواذ على الأراضي الزراعية.
- الحملات العسكرية ضد العشائر العراقية، وعمليات السلب والنهب للمحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية.
- ضعف الحكومة وانكماش سيطرتها، شحة الموارد وإفلاس الخزينة، وغياب السلطة خارج أسوار بغداد.
- الدولة العثمانية تنسب في سنة ١٧٠٤م حسن باشا لولاية بغداد، لاستعادة سيطرتها على العراق.
- حسن باشا يؤسس جيش المماليك الكرج (الكولمند) ويستحوذ على الحكم لنفسه، ويستقل عن إرادة حكومة السلطان .
- دخول العراق مرحلة جديدة من تاريخه.

المراجع

العربية

١. د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث
كوفان للنشر – لندن ١٩٩١
٢. المحامي عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين.
ج١/ج٢ - مطبعة بغداد.
ج٣ مطبعة التفيض الأهلية- بغداد.
ج٤ - ج٨ / شركة التجارة والطباعة المحدودة - بغداد
٣. د.جعفرخصباك - العراق في عهد المغول الأيلخانيين
الطبعة الأولى ١٩٨٦، مطبعة العاني - بغداد
٤. عبد الله محمد (ابن بطوطة) - رحلة ابن بطوطة
دار صادر - بيروت
٥. المحامي عباس العزاوي - عشائر العراق.
ج١ مطبعة بغداد.
ج٢ - ج٤ مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة - بغداد.
٦. د. محمود فهمي حجازي - علم اللغة.
وكالة المطبوعات - الكويت.

٧. طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.
دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام - بغداد
٨. مجموعة من أساتذة الجامعات في العراق (١٩٨٣) - العراق في التاريخ
دار الحرية للطباعة ـ بغداد
٩. ابن الأثير - الكامل في التاريخ.
دار الكتاب العربي ـ بيروت
١٠. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي - القاموس المحيط.
دار الجيل ـ بيروت
١١. أبي القاسم ابن حوقل النصيبي - صورة الأرض
منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٩٢م ـ بيروت
١٢. المحامي محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية.
دار النفائس ـ بيروت
١٣. ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث
ترجمة جعفر الخياط ، منشورات مكتبة اليقظة العربية ـ بغداد
١٤. برتولد شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي.
نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى.
دار حسان للطباعة والنشر - دمشق
١٥. الدكتور محمد عبد الحي شعبان - الثورة العباسية
دار الدراسات الخليجية
١٦. الدكتور محمد سهيل طقّوش - تاريخ الدولة الأموية..
دار النفائس ـ بيروت
١٧. الدكتور عبد الأمير عبد الحسين دكسن - الخلافة الأموية
دار النهضة العربية - بيروت
١٨. أحمد بن أبي يعقوب (اليعقوبي) - تاريخ اليعقوبي
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت

١٩. أبو الحسين بن علي المسعودي - مروج الذهب.
المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - الجزائر ١٩٨٩
٢٠. عبد الرحمن الشرقاوي - شخصيات إسلامية : أئمة الفقه التسعة
دار اقرأ - بيروت
٢١. حسين مروه (الجزء الأول) - النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية
دار الفارابي - بيروت
٢٢. عبد العزيز المقالح - قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة
دار العودة - بيروت
٢٣. أبو الفرج الأصفهاني - مقاتل الطالبيين
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت
٢٤. فلهوزن - أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام
ترجمه عن الألمانية عبد الرحمن بدوي
وكالة المطبوعات - الكويت
٢٥. د. صالح احمد العلي - التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري
دار الطليعة - بيروت
٢٦. فؤاد عبد المعطي الصياد - المغول في التاريخ
دار النهضة العربية - بيروت
٢٧. د. عبد الأمير الأعسم - الفيلسوف نصير الدين الطوسي مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي
دار الأندلس - بيروت
٢٨. محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقي - الفخري في الآداب السلطانية
دار صادر - بيروت

٢٩. ياقوت الحموي الرومي البغدادي - معجم البلدان
دار صادر - بيروت
٣٠. حسن الأمين - الغزو المغولي
دار التعارف للمطبوعات - بيروت
٣١. الشيخ جعفر محبوبة - ماضي النجف وحاضرها
دار الأضواء - بيروت
٣٢. د. أحمد مختار العبادي – في التاريخ العباسي والفاطمية
دار النهضة العربية ـ بيروت
٣٣. جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي
دار الروضة – بيروت
٣٤. إبراهيم فصيح الحيدري البغدادي – عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد.
دار الحكمة – لندن
٣٥. جاسم حسن شبر – مؤسس الدولة المشعشعية وأعقابه في عربستان وخارجها.
مطبعة الآداب – النجف الأشرف.
٣٦. حمود الساعدي – دراسات عن عشائر العراق الخزاعل
مطبعة الآداب – النجف الأشرف
٣٧. حسن الأسدي – ثورة النجف
دار الحرية للطباعة - بغداد

الأجنبية

- Lord Kinross– The Ottoman Centuries

Marrow Quill Paperback– New York

- H. Batatu – The Old Social and the Revolutionary Movements of Iraq

Princeton University Press – Princeton, New Jersey

- Philip K. Hitti – History of the Arabs

The Macmillan Press ltd – London and Basingstoke

- Georges Roux – Ancient Iraq

George Allen & Unwin ltd ١٩٦٤ – Pelican Books

- Birge, J.K.– The Baktashi order of Dervishes
- Richard W. Bulliet –The Camel and the Wheel

Harvard University Press – Cambridge, Massachusetts London

- Browne, E.G. – A litrary History of Persia. **١٩٥٣**